جورج ريمون

من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا



الناشر
الفرجاني
طرابلس - ليبيا

معسكرات (١)

من داخل
معسكرات الجهاد في ليبيا

جورج ريمون

GEORGES RÉMOND

من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا

نقله عن الفرنسية
وحققه وقدم له

محمد عبد الكريم الوافي

MOH. A. KARIM WAFI

مكتبة الفرجاني
طرابلس - ليبيا

EDITORI FERJIANI
Tripoli — Libia

الطبعة الأولى

١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م

« .. وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين
أجراً عظيماً » .

قرآن كريم

هذا الكتاب

بقلم : **محمد عبد الكريم الوافي**

في هذه السنة التي قرر المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو للتربية والعلوم والثقافة إعلانها سنة دولية للكتاب ، يسعدني أن أقدم للقراء ترجمة عربية كاملة لهـذه الوثيقة التاريخية الهامة عن جهاد ليبيا العربية خلال النصف الأول من سنة ١٩١٢ ضد الغزو الايطالي . ويزيد في أهميتها أن مؤلفها شاهد عيان أجنبي محايد رأى ملحمة جهادنا بعينه وعاشها بوجدانه متنقلا بين معسكرات مجاهدينا ، ثم دوّنها في مذكراته هذه ساعة بساعة ويوماً بيوم ، بقلم نزيه وببصيرة نافذة وفي أسلوب روائي استطرادي جذّاب .

ولقد أقدمتُ على إنجاز هذا العمل إيماناً مني بأن من بين الواجبات الملقـاة على عواتق أولئك الذين أتيحت لهم فرصة الدراسة في الخـــارج والاحتكاك بالثقافات الأجنبية من أبناء هذا الجيـل ، التنقيب عن مختلف الآثار التاريخية والجغرافية والاجتماعية وغيرها ، مما كتبه الأجانب عنا قديماً او حديثاً وضمّنه خزائن مكتباتهم ؛ ومن ثم نقله الى العربية بأمانة لتعريف الناس في بلادنا به . ففي ذلك تعميم للفائدة وفرصة للكشف عمّا خفي عنا من تراثنا العربي، خصوصاً في تلك الحقبات التاريخية التي حرمتنا فيهـا السيطرة الأجنبية من الأقلام التي تسجّل وتؤرّخ ، بل ومنعتنا فيها حتى من أبسط حقوق التعلّم .

والكتاب – فيما أعلم – هو الوحيد من بين كل ما صدر باللغات الأجنبية عن

الغزو الايطالي لليبيا الذي ينقل الوقائع التي يرويها من داخل الخطوط القتالية للمجاهدين ، دون تحيز . بـل إن صاحبه يردُّ فيه – كما سيرى القارىء – على ادّعاءات الصحافة الغربية وتحيزها غالباً للجانب الايطالي .

والمؤلف قد نشر هذه المذكرات في البداية على شكل مقالات صحفية كان يبعث بها الى مجلة «المصوّر – L'Illustration » الباريسية التي كانت قد أوفدته الى ليبيا كمراسل حربي لها ، فدخلها على ظهر جواده من الحدود التونسية في ١٧ يناير ١٩١٢ ، وظل يتنقل بين واحاتها وقراها ومدنها ومعسكرات مجاهديهـا وأنجع باديتها حتى دخـــل مصر يوم ٢٠ مايو من نفس السنة ، أي ان رحلته زادت عن أربعة أشهر .

ولقد اطّلعتُ في البداية على هذه المذكرات صدفةً بقسم الدّوْريات بالمكتبة الوطنية بباريس ، حيث تصفّحتُ بعضها ضمن المجلّد الضخم الذي يضم أعداد تلك المجلة القديمة ، وهو مصنّف في خزائن تلك المكتبة تحت الإشارة التصنيفية رقم : (L C^2 1549) ، لمن يريد الاطلاع عليها . غير أنني لم أكن أدري أن تلك المذكّرات المبعثرة بين أعداد المجلة قد جُمّعت ونُشرت في كتاب خـــاص . فصرفت النظر عنها .

ومضت الأيام ، ثم حدث ان زرت مرة إحـدى المكتبات المتخصّصة في بيْع الكتب القديمة بالحي اللاتيني ، فوقعتُ صدفة على الكتاب الذي بين يدي القارىء ؛ وما إن تصفّحته حتى اكتشفت أنه ليس سوى تلك المقالات التي حدثت القارىء عنها ، وقد تضمنها الكتاب كما هي ، ونُشرت بالتالي مفردة بين دفّتيْه في سنة ١٩١٣ ، أي في السنة التي تلت زيارة مؤلفها لجبهات القتال في ليبيا . فابتعْتُ الكتاب .

وهذه الوثيقة تعطي فكرة مفصّلة عن حقيقة جهادنا ضد ايطاليا في الفترة التي أرّخ لها ، وتُبرز الدور الذي قام به أبطالنا البواسل على جميع جبهاتنا مع

العدو : في طرابلس (معسكر العزيزيّة) ، وفي الخمس (معسكر جبل المرْقب)، وفي بنغازي (معسكر الكويفية) ، وفي درنة (معسكر عين بو منصور) ، وأخيراً في طبرق (معسكر طبرق) . وتتضمّن إشادة بأبطال جهادنا الأوّلين من أمثال (سليمان الباروني) و (محمد فرحات الزاوي) وغيرهم ممن ذاع صيت جهادهم . هذا الى جانب مجاهدين آخرين لم يحفظ لنا التاريخ أسماءهم من أمثال (عمر بورقعـــهْ) في (الفويْهات) والشيخ (المبروك البرعصي) ، و (عمر السكوري) في المرج ، والشيخ (المبري المريمي) في طبرق وغيرهم كثيرون .

والكتاب يُلقي ضوءاً على الدور الذي لعبه بعض الزعماء والضباط العرب الى جانب المجاهدين الليبيين ، من أمثال الأمير علي باشا الجزائري ، ابن الأمير عبد القادر الجزائري ؛ والفريق عزيز المصري قائد جيوش منطقـة بنغازي . وهو يبيّن الدور الذي قام به الأطباء المصريون من أمثال الدكتور حافظ عفيفي وغيره من أعضاء بعثة الهلال الأحمر المصري في بنغازي .

وكذلك دور الضباط والقادة الأتراك من أمثال (أنور بـــك) في درنة ، و (خليل بك) عند الخمس ، ومصطفى كمال آمر الحامية التركية في درنـة ، والذي أصبح فيما بعد مصطفى كمال أتاتورك رئيس جمهورية دولة تركيا الحديثة .

كما يطلعنا على اشتراك متطوعين ألمان وإنجليزي مسلم مع المجاهدين في (سواني ابن يادم) وفي (عين بو منصور) .

والكتاب يحفظ لنا على الخصوص أسماء كثير من المجاهدات الليبيّات اللاتي ذكر لنا المؤلف تفصيلاً مواقفهن البطولية، وروى لنا قصص بعضهن من أمثال (سليمة النايليّهْ) ، وغيرها من المجاهدات الـلاتي كُنّ يلحقن بالمجاهدين الى ساحات الشرف لرفع روحهم المعنوية بالأهازيج والملاحم البطولية ، يُلهبن حماسهم تارة ، ويقمن بإسعاف جرحاهم ونقل شهدائهم تارة أخرى. بل إنه يحدثنا حتى عن أدوار أطفالنا وصبيتنا في تلـــك الحرب وتدرّبهم على السلاح في سن مبكرة جداً .

وإلى جانب هذا فإن الكتاب يحتوي على تحليل عميـق لنفسيات وأفكار الضباط الأتراك، وفيه تقييم لثورة تركيا الفتـاة التي اشترك الكثير ممن التقى المؤلف بهم في ليبيا منهم في التخطيط لها وتنفيذها .

غير أن الكتاب ليس كله رواية عن الحرب وحدهـا . فمؤلفه يودعه كذلك خواطره وملاحظاته وتأملاته عن ليبيا وبقية العـالم العربي والإسلامي . وليس هذا فحسب ، بل نجده يستطرد إلى ذكر كل ما يمس حياتنا الاجتماعيـة والاقتصادية ويؤرخ لها في تلك الفترة ؛ فالكتاب من هذه الزاوية دراسـة سوسيولوجية ونفسية واقتصادية لا يستهان بها : فالمؤلف يتناول بقلمه بنياتنـا الاجتماعية فيصف حضرنا وباديتنا ، ويعدّد قبائلنا واصفـاً أنجعها ومراعيها ، ويحصي أسماء معظمها فلا يخطىء فيها . وهو يرسم ببيانه لوحات انطباعيـة لصحرائنا وواحاتنا وقرانا ومدننا ومراعينا ، وآبارنا وشطآننا وجبالنـا وسهولنا . ويطيل في وصف الصحراء وما يناله فيها من عطش وإرهاق ويصوّر رمالها وسرابها الخادع ومياهها الشحيحة ، وإبلها وثعابينها وعواصفها الرملية . ويتحدث عن رياح « القبلي » وعن النخيل والتين والزيتون ، والزهور البرّية والأعشاب الصحراوية . وهو يبدي إعجابه بالجبل الأخضر وغاباتـه وطيوره ومراعيه وأرزه وصنوبره وبطّومه . ولا يغفل الحديث عن الأسواق والشوارع والأزقة وطراز البناء. ويُشَـنّي فيرصد أوصافاً نادرة للآثار اليونانية والرومانية في كل نواحي بلادنا قبل أن تسرق المتاحف الإيطاليـة – فيما بعد – الكثير من تحفها وتماثيلها . فهو يصف (لبدة) الرومانية و (قورنـّة) الإغريقيـة وغيرهما . وهو يتأمل أيضاً فولكلورنا الشعبي ويطيل في التحدث عن أغانينـا وأهازيجنا الحربية بل ويترجم بعضها . كما يتطرق إلى وصف الطرق الصوفيـة ويصور مواكبها ، ويعرض لأضرحة المرابطين والأولياء كلما مرّ بها فيستطرد إلى ذكر ما سمعه عنهم وعن سير حياتهم . ولا ينسى أن يصف لنا المجاعات التي كانت تضرب أطنابها في بلادنا وقت الحرب مصوراً حالة البؤس التي كان يحياها الناس .. الخ .

وفوق كل هذا، فالكتاب مليء بالقصص والطرائف والقفشات والمفارقات العجيبة التي تنقل المرء حينا إلى أجواء القسطنطينية، أو يسرد تاريخ الطرابيش والقبعات في الدولة العثمانية ، أو يذهب بنا إلى إحدى ثكنات العسكر الأتراك في جزيرة (مقدونيا)، ثم يرتحل بنا إلى فرنسا ليعود بنا إلى الجزائر أو تونس أو جزيرة صقلية ، كل هذا في استطراد عفوي طريف .

وللمؤلف في كتابه تحليل عميق لشخصية القادة والجنود الايطاليين وشهادة منه بضعف قدراتهم القتالية ، واحتمائهم المستمر بتحصيناتهم وقلاعهم وخنادقهم لا يقدرون على مجابهة المجاهدين . وهو يثبت بكتابه ترجمة لمنشورات الإيطاليين الدعائية المضحكة وردود المجاهدين عليها بمنشورات وملصقات حائطية يثبتونها ليلاً على جدران بنغازي المحتلة المحصنة ؛ فيصحوا العدو في الغداة ليجدها فتثور ثائرته، ولا يجيب عليها إلا بالمزيد من منشوراته التي توزعها طائراته فوق معسكر المجاهدين .

ويُكثر المؤلف من إعطاء الأمثلة على شجاعة المجاهدين الليبيين الذين تبلغ بهم الشجاعة حد الاستلقاء على أسرّة الهلال الأحمر المصري لاجراء العمليات الجراحية لهم أو لاستخراج الرصاص من أجسامهم بدون حقنهم بالبنج ، متحملين آلام الجراحة في كامل وعيهم .

فالكتاب – مثلما يرى القارىء – صيغ على طريقة معظم الرحّالة الذين زاروا ليبيا في العصور الوسطى والحديثة، من حيث طريقة العرض والاستطراد والأسلوب أيضاً : ففيه صدى بعيد وغريب لمنهج الرّحالة العرب والحجاج والتجار المغاربة الذين عبروا ليبيا في الأزمنة الماضية من أمثال : أبي القاسم بن حوقل في كتابه « صورة الأرض » الذي يرجع إلى نهاية القرن العاشر الميلادي ، أو محمد العبدري البلنسي الذي زار بلادنا في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي ودوّن مشاهداته في « الرحلة العبدرية » أو أبي سالم العيّاشي في رحلته « ماء

الموائد». كما أنه يُذكِّرُني برحلات بعض الرَّحالة الأوروبيين الذين تجولوا في ليبيا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، من أمثال: الإنجليزي (جيمس برُوس)، والإيطالي (باولوديللا شيلَّا)، والأخوَين الإنجليزيين (بيشي)، و الرَّحالة الفرنسي (باشو)، والأسكتلندي (جيمس هاملتون)، وغيرهم.

وكنت أعتقد أن رحلة الحشائشي إلى ليبيا في سنة ١٨٩٥، التي ضمّنها كتابه « جلاء الكرْب عن طرابلس الغرب » – الذي قام بتحقيقه ونشره الأخ البحّاثة علي مصطفى المصراتي – هي آخر هذا الضرب الاستطرادي الشامل من الرحلات التقليدية التي تناولت ليبيا في القرون الماضية، فألقت أضواءً هامة على تاريخها وعلى بنيتها الاجتماعية والاقتصادية في كل عصر، مما لا يقدّر بثمن ولا يستغني عنه أي باحث جاد.

ولكن، ها هو كتاب (جورج ريمون) – الذي بين يدي القارىء – يوضع بعد مضي حوالي سبع عشرة سنة من قيام الحشائشي برحلته، فيضم بين دفّتيه – الى جانب أهميته كمصدر أساسي عن جهادنا ضد الغزو الايطالي في فترة محدّدة – وصفاً شاملاً لمختلف نواحي حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية وغيرها. ولعل هذا وحده يكفي في اعتباره مرجعاً هاماً لكل مؤرخ لتطور مجتمع هذا الجزء من العالم العربي في تلك الحقبة.

وقد حاولتُ أن أتحقق مما إذا كان هذا الكتاب مُثْبتاً في معاجم المراجع البيبلوغرافية الخاصة بليبيا؛ فراجعتُ بإمعان كتاب الإنجليزي « هيل – R. W. Hill » الذي نشرته جامعة « دورهام » البريطانية سنة ١٩٥٩، تحت عنوان: «بيبلوغرافية ليبيا»: « A Bibliography of Libya » وهو الكتاب الذي تناول بالرّصد اسم ما يزيد عن الألفين من الكتب والأبحاث المتعلقة بليبيا بمختلف اللغات، فلم أجد له ذكراً بينها. كما ان كتاب « المختار في مراجع تاريخ ليبيا » الذي صدر بالعربية عن دار ليبيا للنشر والتوزيع سنة ١٩٦٧، والذي

احتوى جزؤه الأول الذي نشر على مـــائة عنوان كتاب او بحث في الموضوع بمختلف اللغات ، لم يأت لهذا الكتاب ذكر به أيضاً .

ولست أدّعي أنني قد اطّلعتُ على بقية معـــاجم البيبلوغرافيا الأخرى الخاصة بليبيا او تثبتُّ منها كلها ، بل اقتصرتُ على أحدثها فـيما أعتقد ، إذ المفترض فيها أن تكون خلاصة للسابقات عليها زمناً .

وعلى أية حال فإن أي واضع لمعجم بيبلوغرافي عن ليبيا مضطر الى الاعتماد الى حد كبير على تلك القائمة الطويلة التي دبجها الايطاليون وصنّفها بحّاثتهم عن ليبيا أثناء احتلالهم لها . فالذي يقتصر على استقراء مصادرهم لن يعـــثر بالتأكيد فيها على مثل هذا الكتاب الذي بين أيدينا ؛ فإن الهدف الاستعماري وعدم النـّزاهة العلمية لا بد لها وأن تدفع البيبلوغرافيين الطليان الى إغفال هذا الكتاب ، ما دام كله تمجيداً لليبيين العرب ولجهـــادهم وتقريعاً للايطاليين واستخفاف بضباطهم وجنودهم .

وإذا لم يكن إغفال الكتاب راجعاً الى ما ورد، فليس لذلك من تعليل آخر سوى ان ناشره الذي أصدره سنة ١٩١٣ لم يطبع منه سوى عدد محدود جداً من النـُّسخ التي لم تصل الى أيدي المهتمين بوضع جداول مراجع ومصادر الدراسات الخاصة بليبيا . وهذا رغم شكـّي فيه أمر مُرجَّحٌ . إذ أنني لم أعثر للكتاب على أية نسخة ولم أجد له ذكراً في « فِيشات » المكتبات الباريسية التـالية : « المكتبة الوطنية » ، « مكتبة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية » ، او « مِكتبة متحف الانسان » . بالرغم من ان الأولى هي من أهم وأشمل مكتبات فرنسا بل والدنيا ؛ والثانية متخصصة أساساً في كل ما يمسّ الشرق وبلاد العرب والبلاد الإسلامية عموماً من الدراسات ؛ والثـــالثة متخصصة في الدراسات الأنثروبولوجية والإثنوغرافية التي تنضوي كتب الرّحالة تحت قوائمها لِما تحتويه من أوصاف تسجيليّة حيةٍ لحياة الشعوب وتقاليدها ، ممـــا يتضمن منه هذا الكتاب الكثير فيما يخصنا .

ومهما يكن الأمر ، فها هو كتاب (جورج ريمون) يفكّ الحصار عن نفسه ، نافضاً غبار النسيان عنها ، وينفذ بعد مضي ستّين عاماً من نشره بالفرنسية ، الى المكتبة العربية وبلغة الضّاد ، فينضاف اليهـــا لعلّه يلقي أضواء جديدة هامة من تاريخ هذا الجزء الغالي من أجزاء الوطن العربي . فشكراً لله ، وشكراً لذلك الكتُبي الأرمني الذي عرضه للبيع بثمن زهيـــد على رفوف مكتبته العتيقة بذلك الشارع المنسيّ من شوارع الحي اللاتيني .

وما دمت بصدد شكر من باعني نسخة الكتاب النادرة ، فدعوني أشكر كذلك مجلة الـ « Illustration » الباريسية التي أوفدت مراسلهـــا الحربي مؤلف الكتاب الى بلادنا ، فهي أول من يستحق الشكر . ودعوني أعرّفكم بها ، ومن بعدُ بالمؤلف نفسه .

فأما الـ « Illustration » فهي مجلة أسبوعية باريسية أنشئت سنة (١٨٤٣)، وظلت أعدادها تصدر تباعاً حتى قاربت الحرب العالمية الثانية على الانتهاء ، حيث قفلت المجلة أبوابها ، واحتجبت عن الصدور نهائياً سنة (١٩٤٤) . وكان يصدر منها في السنة إثنان وخمسون عدداً من بينها ثلاثة أعداد خاصة يرفق بها ملحق منفصل . وكانت تجمع أعدادها الصادرة خلال كل أربعة أشهر في مجلّد خاص يحتوي على حوالي خمسمائة صفحة . وهي متخصصة في نشر المقـــالات والمواضيع ذات الأهمية التاريخية ، كما أنها من الحجم الكبير جداً . ولم يكن توزيعها محصوراً في فرنسا وحدها بل تجاوزها الى بقية بلدان أوربا الغربية وأمريكا اللاتينية ، كما نستدل على ذلك من قائمة أثمانها بالعملات الخاصة بالبلدان التي كانت توزع فيها ، والمثبتة على أغلفتها .

هذا فيما يتعلق بالمجلة التي نشرت المذكرات تباعاً ، خلال الفترة الممتدة ما بين ١٠ فبراير ١٩١٢ وحتى نهاية يونيو من نفس السنة ، قبل أن ينشرها المؤلف في كتاب .

أما المؤلف (جورج ريمون) ، فقد بذلتُ ما في مستطاعي لتجميع معلومات عنه . ولكنني لم أعثر عنه إلا على القليل من المعلومات . فهو قد كان في حوالي سن الثلاثين عندما زار ليبيا ، وهذا يستدل عليه من بعض صوره التي عثرت عليها في بعض أعداد المجلة ، واعتماداً على إطراء رئيس تحريرها له ووصفه بأنه « شاب في مقتبل العمر » . وكما سيلمس القارىء خلال قراءة الكتاب ، فإن المؤلف قد تخصص فترة من حياته في دراسة الفنون الجميلة في إيطاليا بإحدى أكاديمياتها الفنية ، وهذا ما أعرفه عن دراسته . كما أنه قام برحلات صحفية الى كل من الجزائر وتونس وتركيا والحبشة والصومال الفرنسي ومصر وسوريا وفلسطين .

ويُستشفّ من كتابه أنه لا يتحدث العربية او التركية إلا لماماً ، ولذا فإننا نراه قد اصطحب معه مترجماً جزائرياً . كما أنه لا يتحدث الإنجليزية . غير أن له اطلاعاً بلغته لايستهان به عن تراث الثقافة العربية وحضارة العرب وتاريخهم . فنحن نراه يلمّح أحياناً الى بعض الآيات القرآنية الكريمة او الى أحاديث نبوية ، كما أنه يذكر الخلفاء المسلمين بأسمائهم أحياناً . ويتحدث عن الشعر العربي فنفهمُ منه أنه قد اطّلع على المعلّقات السبع وقرأ الشعر الجاهلي وفهمه ، ونجده يستشهد بحكايات كتاب ألف ليلة وليلة فيروي لنا مثلاً قصةً عن هارون الرشيد . وهو يلمّح الى شعراء العصر الإسلامي الأول والى الشعراء الفارسيين القدماء . ويبدي احتراماً ضمنياً لشعائر الدين الإسلامي ، ونراه يتحدث عن مواقيت الصلاة وعن الوضوء وعن التيَمُّمْ . كما يتطرق الى الفتح الإسلامي لليبيا ، ويذكر شيئاً عن رُوَيْفع بن ثابت الانصاري ويسرد ما استقاه من الناس عن سيرة حياة الشيخ عبد السلام الأسمر ، كما يذكر الطرق الصوفية ويعدد بعض أسمائها ويفصّل درجات مريديها ونقبائها وشيوخها . وهو الى جانب هذا مُلمٌّ بتاريخ الجزائر واحتلال فرنسا لها ويعرف دور الأمير عبد القادر الجزائري ويجلّه ويقدّره ، كأنه متتبع لأحداث ثورة تركيا الفتاة . فهو

إذن ملمّ إلماماً كبيراً بالحياةالعربية والإسلامية في المشرق والمغرب. وأكبر فيه توخّيه ذكر أسماء الأعلام والبلدان والأماكن بدون خطأ في معظم الأحيان ، كما أنه يحرص على رسم بعض كلمات لهجتنا الدارجة بالأحرف اللاتينية بدون خطأ في معظم الأحوال ، مما سهل عليّ مهمة الترجمة والتثبّت كثيراً .

وهو فوق كل هذا قد تبنّى ، وبإنسانية وإنصاف لا يتطرق إلى سموّهما الشك، موقفاً متعاطفاً مع قضيتنا، ونقل في كتابه، وفي مجلته من قبل، تسجيلاً أميناً لمقابلاته مع زعماء الجهاد ، وأثنى على استبسال المجاهدين في القتال على نحو أثار عليه ثائرة الصحافة الايطالية في ذلك الوقت، فأرسلت في إثره في معسكر (العزيزية) من سرق منه كُتيّب مذكراته فنقله مع كل نقوده الى دائرة الاستخبارات الايطالية ، وحملت عليه جريدة (ستامبا) الصادرة في (تورينو) وجريدة (الماتينو) الصادرة في (نابولي) . وهذا وحده كاف لأن نثني على حسن قصده ونعترف له اليوم بالجميل ، ميّتاً كان أم حياً . وهو ان كان ما يزال على قيد الحياة فلا بد وأن يكون قد تجاوز الآن التسعين سنة ، والله أعلم .

أما عن بقية مؤلفاته ، فإنني قد حصرت منها ما يلي ، وإليكم عناوينها باللغة الفرنسية ، مرتبة ترتيباً كرُونولُوجياً بحسب تواريخ صدورها :

ترجمة واحدة عن الإيطالية لمؤلف اسمه: Giovanni Bellori واسم الترجمة:

1. «Vie de Nicolas Poussin», Paris 1903 .
2. «Avec les vaincus : La campagne de Thrace, octobre 1912 - mai 1913», Paris 1913 .
3. «Sur les lignes de feu : Le carnet de champ de bataille du colonel Djamal Bey», Paris 1914 .
4. «La route de l'Abbai noir : Souvenirs d'Abyssinie» , Paris 1924 .
5. «Le château de Lourmarin», Paris 1931 .

يضاف اليها بطبيعة الحال الكتاب الذي بين يدي القارىء، وعنوانه الأصلي باللغة الفرنسية هو ما يلي :

6. «AUX CAMPS TURCO-ARABES : Notes de Route et de Guerre en Cyrénaïque et en Tripolitaine », Paris 1913 .

أما عن جهدي الشخصي من نقل الكتاب الى العربية وتحقيقه ، فإنني قد التزمتُ بالنص الأصلي التزاماً كاملاً ، ولم أغفل منه إلا بضعة أسطر تُعد على اليد الواحدة ؛ وجدتُ أنه من الأفضل إغفالها ، وهي تتعلق غالباً بالمقارنة بين ما تفعله ايطاليا وبين ما كانت قد فعلته فرنسا عند احتلالها للمغرب ولسياستها فيه .

ولقد وجهتُ عناية كاملة لأسماء الأعلام والبلدان والقبائل والمواقع ، وراجعت كل اسم منها وتثبتُّ منه بما في حوزتي او في ما وقعت عليه في مكتبات باريس من المراجع والخرائط . الى جانب الاستعانة بمطالعاتي ومعلوماتي المتواضعة . والكمال لله سبحانه .

كما أنني قد حرصت على وجه خاص على تذييل الكتاب بمتونٍ عديدة تختلف طولاً وقصراً بحسب المادة موضع الشرح : فلقد عرّفت بالأعلام من مجاهدين ، ومن قادة أتراك ، ومن أدباء أجانب ورد ذكرهم ، ومن أولياء ومرابطين ، ومن قادة وفاتحين عرب وأتراك ، ومن ضباط عرب او عثمانيين اشتركوا في الحرب في ليبيا ، او من شخصيات عربية عرض المؤلف لها .. الخ .

وزدتُ فوضعتُ شروحاً تاريخية وجغرافية لعديد من الأماكن والقرى والواحات والمدن والجزر ، وقارنتُ في كثير من الأحيان بين انطباعات وأوصاف المؤلف لها وبين انطباعات وأوصاف رحّالة او جغرافيين سابقين عليه من عرب او أجانب ؛ لإبراز أهم ما كان يستلفت أنظار الزّوار لبلادنا عنّا .

وقد فسّرتُ بعض ما غمض لديه بمتون أخرى وصحّحت أخطاءه كلما

اكتشفتها . كما عرّفت بأسماء ومواضيع وشخصيات معظم الكتب الأدبية الأجنبية التي ذكرها ، حتى يدرك القارىء الذي لم يطّلع عليها مغزى السياق الذي ذُكرت فيه .

كما قمتُ بتنفيذ خرائط الكتاب بنفسي كلها ونقلتها طبق الأصل عن الخرائط الفرنسية التي وضعها المؤلف ، سواء تلك الخريطة الشاملة التي رسم فيها خط سير رحلته ، او الخرائط الأربع الأخرى التي وضّح عليها تحصينات الغزاة من جهة ومواقع المجاهدين من جهة أخرى؛ في كل من مناطق طرابلس والخُمس وبنغازي ودرنة ، وذلك لأهميتها التاريخية .

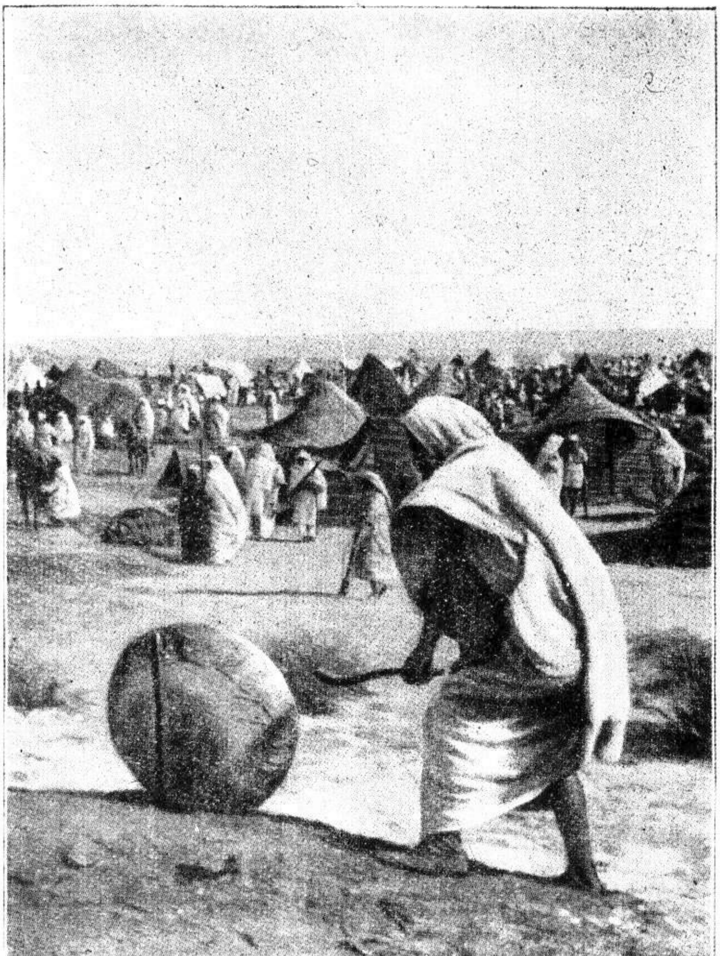
وضمنتُ بالكتاب تلك الصور الفوتوغرافية السّتين التي التقطها المؤلف لدعم نصّه بمشاهد تسجيلية حية ، وترجمتُ شروحها . وإنّ لفي نشر هذه اللقطات وحدها تسجيل ماديّ لملحمة جهادنا ضد الغزاة .

ويجد القارىء في نهاية الكتاب قائمة بمعظم المصادر التي رجعت اليها في تحقيق الكتاب ووضع متونه ، وكذلك تلك التي ذكرتها او أشرت اليها إشارة خاطفة حتى ولو لم تكن لها علاقة مباشرة بموضوع الكتاب .

وكل ما أتمنّاهُ مخلصاً — وأنا أضع ثمرة هذا الجهد المتواضع بين أيدي القراء والباحثين — أن أكون قد أسهمتُ بعملي هذا في الكشف عن بعض الصفحات المجهولة من نضال هذا القطر من أقطار الأمة العربية ، في وقت هي أحوج مـا تكون فيه الى استلهام العبرة من جهادها القريب والبعيد لتستعيد ثقتها بنفسها مُجدّداً . فإن هذه الصفحات تتضمن صدى حقيقياً لأصالتها .

محمد عبد الكريم الوافي

باريس — صيف سنة ١٩٧٢



ضارب طبل الحرب يدعو المجاهدين للقتال

مقدمة المؤلف

كنت قد بلغت حافّة هضبة (السلّوم) عند غروب شمس يوم العشرين من مايو سنة ١٩١٢ عندما تبدت أمامي فجأة سلسلة الجبال الليبية الممتدة في اتجاه القاهرة . ولم تكن ظلمة الليل قد أطبقت بعد على المشهد تماماً ، فقد كانت بقايا ذلك النهار ما تزال تعكس فوق أديم البحر وعلى سفوح الجبـال خيوط ضوء شاحب عمّ قبة السماء ، فبدت الطبيعة كما لو كانت تصدّ عن نفسها ظلمـة الليل ومواته . وقفز رجالي من فوق ظهور خيولهم وجمالهم ، ثم انهمكوا في تـأدية صلاة المغرب وقد يمموا وجوههم شطر المشرق . تلك هي خاتمة مطافي الطويل عبر ليبيا التي خلفتها ورائي ، ولم أعد ألمح أمامي الآن سوى علم مصري يخفق فوق قصر تركي قديم . والتفت وأنا أتوارى عن المشهد الرائع الممتد خلفي لألقي نظرة أخيرة على ذلك الطريق الذي ظللت أعبره طيلة قرابـــة خمسة أشهر : ولم يكن ذلـك الطريق سوى درب وعر عبّدتـه ، وسط الحصى ، حوافر الجياد وأنعل البدو الخفيفة وأخفاف البعير الرخوة عبر فضـاء الأرض الليبية الواسع .

لقد قال لي أولئك الذين كلفوني بالقيام بهذه الرحلة الشاقـة : « إذهب لتقصّي حقائق وأخبار هذه الحرب المقدسة ، واختلط بجموع المجاهدين الليبيين ، واخترق هذه البلاد الواسعة التي لم يجسر على عبورهـا أي أوربي منذ أربعين سنة .. فلعله أن يحالفك الحظ فتستكنه لنا بعض أسرار الإسلام » .

وبالرغم من أنني لم أتمكن من القيام بكل ما ُطلب مني ، إلا أنني وفقت مع

ذلك في أن أرقب الناس والأشياء عن كثب، خلال ظروف تتكشف فيها الحقائق كاملة، وأتيح لي، فيما أعتقد، أن أسمع دقات قلب العالم الإسلامي أكثر من أي مراقب غربي آخر. وقد علمتني تجربتي هذه أنه مهما تكن عظمة القوى التي تتهدد هذا الشعب الليبي، فإنه من المستحيل عليها أن تقهره ما لم يستسلم لها في النهاية بنفسه. وأدركت كذلك أنه واجد الآن في دينه الإسلامي أعظم قوة يستند إليها في مقاومته للاحتلال الأجنبي؛ ومن ثم فإن على أعدائه أن يتوقعوا منه مقاومة تُقاس قوتها ومداها بمدى عمق إيمانه بعقيدته.

أما من وجهة نظري كفرنسي جاء يرقب حربا ستقرر مصير بلد يطل على هذا البحر الأبيض المتوسط الذي نعتبره في هذا الزمن مجالاً حيوياً لنا كفرنسيين، ويسكنه شعب عربي يعتبر امتداداً بشرياً للشعوب المغربية التي نستعمرها حالياً؛ فإنه يتراءى لي أنه يتحتم علينا ألا نكتفي بالوقوف كمتفرجين على ما يجري فوق أرضه من صراع دام. وفي رأيي أن فرنسا باعتبارها حامية ديار الإسلام [!!]، في وقت تحاول فيه ألمانيا سدى أن تقوم مكانها بهذا الدور، من واجبها على نفسها ومن حق الشعوب المغربية، التي تستعمرها، عليها أن تكون لها من الآن فصاعداً سياسة إسلامية مرسومة، لا بد لها أن تتمسك بها ولا تصرف النظر عنها بإيعاز من وزير من وزرائها المتهاونين أو حاكم من حكام مستعمراتها اللّيّنين. ولدينا في هذا المجال قوى وقدرات لا بد لنا وأن نستعملها لصالحنا. ولقد كنت أتذكر، وأنا أعبر الأراضي الليبية، كيف أن ملوك فرنسا كانوا قد رأوا ضرورة اتباع مثل هذه السياسة منذ القرن السادس عشر، وكيف أن (نابليون بونابرت) كان قد رأى ما رآه هؤلاء الملوك قبله في هذا الشأن، حيث قال: « إنني سأسدي لبلدي فرنسا خدمة جليلة إن أنا استطعت جعل قوة الأتراك أكثر خطراً على بقية البلدان الأوربية ».

إنني بوصولي الآن إلى الحدود المصرية أكون قد فرغت من تحرير هذه المذكرات التي أودعها الصفحات التالية، والتي طفقت أسجلها يوماً بعد يوم منذ أن

وطئت أقدامي أرض ليبيا . واعتقد أن الموقف العسكري قد تبدل الآن في كل من طرابلس الغرب وبرقة ، وأن الإيطاليين قد استمروا في احتلال بقية المواقع الهامة على الشواطىء الليبية ، والتمركز فيها ضد عدو لم تخمد لديه قط حمأة الدفاع عن وطنه والذود عنه . أما في أوربا نفسها ، فإن الإيطاليين قد أصبحوا أكثر نشاطاً وحذقاً ؛ إذ أعلن أن تركيا ، وقد تعرضت لحرب صليبية جديدة ، قد قررت التسليم فيما هو في حوزتهـا في أفريقيا ، لكي تتمكن من تركيز كل قواها ضد أعدائها الجدد الذين أصبحوا يتهددونها هـذه المرة في عقر دارهـا .

فيا ترى ما الذي سيكون عليه رد فعل الأتراك الذين ما يزالون موجودين في ليبيا تجاه تلك الاتفاقيات التي وقعتها حكومتهم دون استشارتهم ، بالرغم من أنها تخصهم وتخص ليبيا التي ما تزال اسمياً تحت سيطرتهم ؟ .. ويا ترى مـا الذي سيفعله الضباط والجنود الأتراك الذين التزموا بالدفـاع عن ليبيا حتى الموت ؟ .. إن الأتراك هم وحـدهم الذين تركوا الأمور تتدهور وتتردى إلى هذه النهاية المؤلمة لليبيين . فكيف سيكون حالهم وهم يتركون هؤلاء الليبيين وحدهم وجهاً لوجه أمـام عدوهم ؟ .. وهل سيقبل هؤلاء أن يتخلى الأتراك عنهم .

ومهما يكن الأمر ، فإن الجيش التركي الهزيل الموجود حالياً في ليبيا ، إنْ هو استدعي الآن للعودة للإسهام في الدفاع عن تركيـا نفسها وترك ليبيا لمصيرها ، فإنه سيغادر في الأيام المقبلة كلاً من طرابلس الغرب وبرقه تاركاً المدن الليبية التي حاول الدفاع عنها أكثر من سنة . والحقيقة إن هذا سيكون مشهداً مخزياً : مشهد هذه البضع مئات من الجنود الأتراك ذوي الثياب الرثة الممزقة ، الذين حرقت الشمس وجوههم وغطت الجروح أجسامهم ، وهـم ينسحبون أمام المائة وعشرين ألف جندي إيطـالي الموجودين الآن في طرابلس وبنغازي ودرنة . وعندما يصل هؤلاء المحـاربون القدماء الأتراك إلى ميناء اسطنبول ،

فلن يكون في وسعهم سوى الارتماء في أحضان أبناء عمومتهم الذين لم يخسروا الحرب في تركيا ، وطنهم الأم. سيصلون إلى هناك للإسهام في جهاد أشد فظاعة من ذاك الذي تخلوا عنه على أرض ليبيا ، إذ فيه سيتقرر مصير تركيا نفسها . بل وقد تترتب عليه كذلك تحولات شاملة في أوربا برمتها . وإذا كانت حملة إيطاليا على طرابلس الغرب هي الأصل في قيام حرب البلقان ؛ فيا ترى ما هي العواصف الاخرى التي ما تزال هذه الحرب تنذر بهبوبها ؟ .. إن مائة سنة من سياسة القوميات وحقوق الشعوب قد جرّتنا إلى هذا الوضع ، بحيث أن حدوث أقل شرراة قد يكون من شأنه اندلاع نار الحرب في الكرة الأرضية برمتها .

وعلى أية حال ، فإنني في هذه اللحظة التي أتأهب فيها للتوجه إلى القسطنطينية ، عبر مصر ، إن كان لي أن أصدر حكما على جميع الأتراك – منطلقاً في ذلك من انطباعاتي عن أولئك الذين احتككت بهم منهم وعشت معهم في ليبيا ، فلست أشك في أن تركيا ستخسر الحرب الجديدة أيضاً .

١٥ أكتوبر ١٩١٢

الفصل الأول

الحدود الليبية التونسية

١٧ يناير ١٩١٢

اخترقت جيادنا خط الحدود الفاصل بين تونس وطرابلس الغرب والممتد ما بين علامة للحدود منصوبة وسط السهل وأخرى تقع في أعلى جبل يطلق عليه اسم جبل « الـّـللّا ذهيبة » . ويُروى أن الـّـللّا ذهيبة هذه كانت فتاة أراد ذووها عقد قرانها ، على كره منها ، على شخص لا تحبــه ، فهربت يوم عرسها ممتطية ظهر الجمل الذي كان يحمل هودج العرس ، وصعدت به إلى جبل قريب ، استلاذت بقمته حيث ظلت تعيش هناك وحيدة . ولذا فقد صـار ذلك الجبل يحمل اسمها .

وصحبني الملازم (بوڤيه) قائم مقام مركز ذهيبة ونائبه الملازم (پيلليه) حتى نهاية طرف التراب التونسي ، ثم توقفا . وكانت قد اتفقت السلطات الفرنسية في تونس مع الأتراك على أن ينتظرني اثنـان من « الزبْطيه » ، لكنهما لم يكونا بطبيعة الحال في انتظاري . وقد أبدى الملازم (بوڤيه) سخطه لتخلفهما عن الموعد، فهوّنت عليه قائلا إنه لا داعي لأن يقلق للأمر، وانني لا أشك في أنني سأبلغ بلدة (نالوت) سالماً . بيد أنه أصدر أوامره ، بالرغم من ذلك ، إلى أحد الفرسان الجزائريين العاملين تحت إمرته ، طالبـا منه أن يلقي ببرنسه الأزرق ويصطحبني أنا ومترجمي العربي (العلمي عليش) داخـل الأراضي الليبية حتى نلتقي بالشرطة الأتراك . والحقيقة أن الدخول إلى بلد أجنبي مع فارس شجاع كهذا الجزائري لهو أمر يبعث على الطمأنينـة في النفس ، وليس لي إلا أن أثق فيه ثقة مطلقة كما يثق فيه رؤساؤه . إذ أن هؤلاء الفرسان ، الذين يطلق عليهم اسم (فرسان الصباحي) ، من عادتهم حين يوكل إليهم حماية شخص وحراسته

ان يظلوا باستمرار يحتضنونه بعيون ساهرة على سلامته ، ويسيروا بجـانبه خطوة بخطوة. ويذكـّرني هؤلاء الفرسان الجزائريون بأولئك الحراس الأحباش الذين لا يتخلون عمن هو في حراستهم وتحت حمايتهم قيد أنملة ، حتى ولو طلب منهم هو نفسه أن يتركوه لحظة لقضاء حاجة بشرية ؛ وكل ما يفعله الواحد منهم في مثل هذه الحالة هو أن يخفي وجهه بثوبـــه جاعلاً منه ستارة بينه وبين محروسه .

تقع بلدة نالوت على بعد أربعين كيلومتراً من مركز ذهيبة التونسي ، حيث يربط بينهما طريق وعر لا يعدو أن يكون درباً ضيقاً يصعب اجتيازه في كثير من المواقع . ويخترق هـذا الدرب منطقة تتبعثر فيها الصخور والأحجار عند سفوح جبال دُببت قممها بفعل هبوب الرياح المحملة بالرمال ، بحيث تبـــدو تلك القمم من بعيد كالإبر أو كالأوراق المدببة . ثم تأخذ تلك الجبال في الانحدار شيئاً فشيئاً كلما تقدم المرء في سفره تجاه السهل الخـــالي ، حيث تتسطح فوق رماله على هيئة نتوءات صخرية مستطيلة كالألسنة .

وأثناء تقدمنـــا ، لمحت على يميني قرية (اويزّن) التي ضُمت جميع البساتين التي كانت تتبعها إلى الأراضي التونسية عندما أعيـد رسم الحدود الليبية التونسية مؤخراً . ونجم عن ذلك أن سكانها الأصليين من الطرابلسيين يأتون للعمل فيها كل يوم حتى بعد ضمها إلى تونس . ومن المؤكد أنه إذا قـــدّر للإيطاليين يوماً أن يستعمروا ليبيا ، فإن هذه القرية التي لا تبعد عن مركز ذهيبة إلا بمسافة سبعة كيلومترات، ستُضم برمتها إلى داخل الحدود التونسية. ولقد أبدى لي قائممقام ذهيبـــة الفرنسي الملازم (بوڤيه) أسفه، عندما كنت أتجاذب معه أطراف الحديث ، قبيل عبوري للحدود الليبية، لتسرع فرنسا في الاتفاق مع تركيا على على رسم الحدود بين تونس وليبيا قبل بداية الغزو الإيطالي لهذه الأخيرة . ففي رأيه أن فرنسا ، لو أنهـا تريثت في الأمر ، لأمكنها أن تضم إلى تونس أراضي ليبية أخرى ، إذ أن الأتراك لن يحتجوا على ذلك إن هم رأوا أن كفـّة الحرب سترجح لصالح إيطاليـــا [!!!] . ويقول هذا الملازم الفرنسي ان الضباط

والموظفين الحكوميين الأتراك العاملين في ليبيـا لا يهمهم التفريط في أجزاء من الأراضي الليبية لصالح فرنسا ؛ إذ كثيراً ما صرح له بعضهم بـدون ما خجل قائلين : « .. إننا إن نحن خسرنا حربنا ضد إيطاليـا نتيجة لتفوقها في العتاد والرجال ، فإننا نأمل ألا تتخلى لهم فرنسا عن مطامعها في مدينة غدامس وأن تضمها إلى تونس » [!!!] .

ومرّ بنا ، أثنـــاء انشغالي بالتفكر في مثل هذه الخواطر ، أول سرب من الغزلان مكون من ثلاث غزالات شقراء كالذهب ، أو قلْ مثل الرمال التي تركض فوقها ، ثم سرعان ما توارت عن أنظارنا .

وكنـا ونحن نعبر هذه الأرض التي حرقتها الشمس ، نمر من آن لآخر قرب بستان من البساتين أو بنخلة أو ببضع أشجار تين تعرّت من أوراقها وثمارها ، فالفصل فصل شتاء ، مثلما هو الحال عندنا في فرنسا . وبالرغم من أن الشمس قد أخذت تلفح وجهي بحرارتها إلا أن هنالك رطوبة باردة تصحبها وتلطف الجو ، فلا يبدو قائظاً كما هو الحال في أعماق الصحراء المجاورة لنا . والخضرة التي يلاقيها المرء هنـــا شيء يريح النفس وسط هذه الصحراء الشاسعة العادية التي ترهق كآبتها العين والنفس .

وبعد انقضاء أربع ساعات من السفر المتواصل عبر وديان منطقة (المالحة) ، بدأنا في التصعيد وسط آكام من الصخور الحمراء والقرمزية ، وكنا ننحدر من آن لآخر عبر وديان صغيرة تناثرت على أطرافها أشجار النخيل التي كانت في بعض الأحيان تتحول إلى واحـــة صغيرة . وكنت بين تارة وأخرى ألقي نظرة على حارسي الجزائري الذي يتقدمني فوق صهوة جواده ، فـــأراه مرتدياً برنسه الأبيض محتمياً بـــه من وهج الشمس ، يتلفت وراءه من آن لآخر كي يطمئن عليّ ؛ فألمح تقاسيمه الحادة وأنفه المعقوف وجبهته العالية ونظرته الحـادة التي لا تماثلها في تعبيرها إلا نظرات تلك الوجوه التي خلفها لنا الفراعنة في رسوماتهم الخـــالدة .

وعندما بلغنا أعلى نقطة في تصعيدنا ، شاهدنا أمامنا فجأة تلالاً متناثرة نمت فوقها شبه غابة من أشجار الزيتون ، وبدت تحتها مراعي خضراء من أعشاب الديس الخصبة . ولم أكن منذ أن غادرت مدينة (قابس) التونسية أمرّ إلا بطبيعة جدبة قاسية ، وها أنذا أمر المرة الأولى من سفرتي هذه بمنطقة باسمة تريح النفس خضرتها الشديدة الشبه بخضرة بعض مرتفعات ريف جنوبي فرنسا .

.. ثم تجلت أمامنا بلدة تالوت التي لم نلمح منها في البداية سوى بضعة منازل بيضاء ، أعقبهـــا نمط آخر من المساكن ذات الدهاليز المحفورة في الأرض . ثم تلتها فجأة بـــلدة محصّنة بنيت مساكنها على جانبي واد عميق بحيث بدت تلك المساكن كما لو كانت تتسلق الصخور أو تتدحرج منها . وكانت جميع تلك المساكن في وضع مائل ، وقد تهدم معظمها وأصبح من الصعب الصعود إليها . وبدا في الوسط قصر شامخ بُنِي سوره من صخور هائلة عمَّها الظل وبدت قمته لامعة تحت وهج الشمس .

وبدا لي ذلك المشهد عند غروب الشمس ، وقد طغت عليه خضرة مشربة بصفرة كصفرة الكبريت ، مشهداً أسطورياً . وخيـــل إليّ أنني كنت واقفاً أمام بلدة حلّت بها جميع النكبات أو عبثت بها الحروب . وكنت أعتقد قبل أن أقدم إلى هنا أن قصور (طيطوان) التونسية لا يمكن أن يعلو عليها شيء من مظهرهـــا الروماني الذي لا يوصف ؛ لكنني وقد تأملت الآن بلدة تالوت وقصرها القديم ، أدركت أنها تفوق طيطوان رومانية وغرابة : فالحضارة قد فعلت فعلها بطيطوان وضواحيها ، وهُدم من قصورها القديمة مـــا كان آيلاً للسقوط كي لا تنهار أنقاضها على السكان ، وأُدخلت على المدينة بعض التحسينات ، وغادرها عدد من أهلها حيث بنوا لهم بيوتاً جديدة في السهل القريب منهـــا أو عند سفوح الجبال القريبة ؛ وظلت قصور طيطوان القديمة خالية كخلايا النحل المهجورة ، يأتي الناس للفرجة عليها عن بعد دون الاقتراب منها ، إذ أنها لم تعد مسكناً سوى للحمام البري .



نالوت – قصرها القديم من الداخل

عندما ولجت مساء أمس الى بلدة نالوت ، حزّ في نفسي أن القمر لم يكن قد بزغ بعد ، وقد كنت أودُّ مشاهدة أبنيتها وقد انعكس عليهـا نوره الشاحب فجعلها كأشباح أسطورية .

وفي صباح اليوم تجولت في أزقة نالوت في صحبة رفاقي ، ثم ولجنا من تحت قبة واطئة الى داخل قصرها الكبير . وفي الظل لمحت وجوه رجال انسدلت عليها أردية بيضاء وهم جالسون جماعات جماعات . وكانت سعة تلك الأزقة لا تزيد عن متر واحد بل وأقل من ذلك . وكانت تقوم على جوانبها سلالم ودرج تفضي الى غرف شبيهة بأعشاش الطيور او قل هي شبيهة بالثقوب المنقورة في الصخور . والناس هنا يستعملون هذه الغرف الفريدة كمساكن لهم او كمخازن لمحاصيلهم من القمح والشعير . وفوق رأسي كنت ألمح بين الحين والآخر روافـد من الخشب قُصد بها دعم الجدران ومنعها من التداعي والانهيار في الأزقة . وظللت أخترق الأزقة والسكان واقفون وسط فتحات غرفهم العالية صامتين لا ينبسون ببنت شفة ، في حين ان رؤوسهم البيضاوية النحيلة لا تتحرك فيهـا سوى عيونهم التي كانت تتطلع الينا ، وقد انعكس عليها الضوء ، فبـدوا لي أشبه بسرب من أسراب البوم الأبيض او كجماعة من طيور الليل التي تحدق بمن يمر بها دون أن تراه .

ثم هرعنا تاركين تلك الأزقة المعتمة الى نور النهـار ، فتبدى أمامنـا واد واسع ، انحدر عمودياً بين جبلين وعرين تعرت طبقات الصخور المكونة لهما إلا في بعض المواقع التي غطتها آكام الأتربة التي نمت فوقها واحة خصبة تشابكت حولها أغصان الشجر ، حيث انبجس من بين الصخور نبع ماء انسابت مياهه بين جذوع أشجار النخيل التي بدت سامقة في الفضاء كصواريخ خضراء بددت كآبة الجبال بعض الشيء .

ويبلغ تعداد سكان بلدة نالوت حوالى أربعة آلاف نسمة ، لكنني أجزم بأنه لم يعد بها في ذلك اليوم سوى الألف نفس فقط . فلقد ذهب من الرجـال من

ذهب الى ساحة القتال للتصدي للعدو الايطالي ، وبقي البعض الآخر في البلدة حيث ارتدى عـدد منهم بزّة العسكر التركي او بدلة الشرطة وظـلوا يحرسون البلدة .

ولقد أحسن الجميع استقبالنا ، وقدموا لنا ظهر اليوم وجبة من طعـام « البازين » الذي يُعد الأكلة المحليـة . و « البازين » يتكون من عيش التسميد الصلد المتماسك ومن لحم الخراف ومن طبيخ مفلفل حاذق . وقد حُملت الينـا هذه الوجبة في قصعة كبيرة من الخشب مغطـاة بطبق منسوج من السعف الملون أظنه مصنوعاً في غدامس . وما أن لمح الداعون والضيوف الشخص الذي يحمل القصعة يقترب منا حتى صدرت عنهم صيحات فرح ، ثم سرعان مـا غرسوا أصابعهم في قبـة « البازين » ، يقتطعون منه كتلاً مناسبة ، أخذوا يغمرونها ويقلبونها في عصارة الطبيخ قبل أن يدفعوا بها الى أفواههم متلذذين . ثم تقدم خادم فغرس في قمة « البازين » فخذة خروف ما لبثنا أن تقاسمنا لحمها بيننا . وقد أكلت مع الآكلين ملتهماً بأصابعي طعامهم اللذيذ الذي يستحيل على المرء أكله إلا بهذه الطريقة ؛ اللهم إلا إذا اخترعت له أدوات أكل خـاصة جديدة . وعلى أية حال ، فليس لي أن آخذ عليهم هذا التقليد المحلّي في أسلوب الأكل ، إذ أن كلاً منا قد غسل يديه بعد فراغه من تناول الطعام بأصابعه .

ثم جلست للراحة بعد تناول تلك الوجبة الدسمة ، حيث أخذت أتحدث مع هذا او ذاك من مستضيفي ، فمرة أتحدث مع صاحب جمل أناقشه في أمر تأجيره منه ، وأخرى مع جاويش شرطة ، او مع نائب القائممقام او مـع ضابط او مع أحد موظفي البرق ؛ كل يريد أن يسدي خدمة او نصيحة تتعلق برحلتي التي سأواصلها في الغد .

وقد لاحظت أن الناس هنا لا يدخلون في صلب موضوع الحديث الذي جاءوا من أجله مباشرة ، إذ ان ذلك يعتبر عند الليبيين مخـالفاً لآداب اللياقة في

المحادثة . ولذا فإن الأحاديث تطول ، حيث تُتبادل التحيات مدة ساعة تقريباً قبل أن يطرق محدثي معي موضوع رحلتي والإعداد لها . وكنت أقول لهم : « شكراً لكم ، ألف شكر ، على استقبالكم الحسن لي ، وإنني لأشعر في تواجدي بينكم أنني بين أهلي وعشيرتي او مع إخوة لي » .

فيرد عليّ أحدهم قائلاً :

— « عندما لمحناكم عن بعد قادمين من ذهيبة قلنا لبعضنا البعض : هـا هو ضيفنا قادم نحونا مع صحبه ، وتمنّينا أن لو كانت لنا أجنحة فنطير بها للقياكم » .
وأرد أنا قائلاً :

— « إن الفرنسيين معجبون بالجنود الأتراك ويعتبرونهم أشجع الشجعان » .
فيرد عليّ أحد الأتراك قائلاً :

— « ونحن الأتراك نُعجب من طرفنا بالفرنسيين ونعتبرهم من أعظم شعوب الأرض ، وبيننا وبينهم حلف من المودة قديم العهد ، ولن نسمح لأي قوة أن تفرق بين الشعبين التركي والفرنسي .. ثم ألسنا جيراناً : أنتم تحكمون تونس ونحن نحكم ليبيا ،فأنتم إذن جيراننا وأصدقاؤنا ولن يعكر صفونا أحد .. » [!!] .

على هذه الشاكلة كان يجري حديثي معهم بواسطة مترجمي الجزائري (العلمي عليش) ، إذ أنه لا يوجد في هذه البلدة القاصية البعيدة عن العمران وعن ميدان المعارك سوى الليبيين وبعض صغار الموظفين الأتراك ، وكلاهما لا يتحدث سوى العربية او التركية . ولقد كنت أحمل في جيبي رسائل تعريف موجهـة الى قائممقام نالوت التركي (رافد بك) ، والذي يحمل دكتوراه في الطب ، وعاش مدة طويلة في تونس ، إلا أنه الآن غائب في سفرة الى بلدة (بن قردان) التونسية . ومع ذلك فإن استقبال الناس لي هنا كان حاراً للغاية ، كما سبق لي وان ذكرت ، بل إنه كان مؤثراً الى حد كبير . ولقد لمست حرارة الضيافة

وبوادر الاستقبال من الفلاحين الليبيين الذين كانوا يحيّونني كلما مررت عليهم بضم اليد اليمنى الى صدورهم، ومن الموظفين الأتراك الذين أسكنوني ومرافقي في أحسن بيوت البلدة ودعوني للعشاء ، وكذلك من نائب القائممقام ، وهو ليبي ، الذي تعهد حتى بتقديم الشعير الى جيادنا إفراطاً في الكرم .

نالوت في ١٩ يناير ١٩١٢

إنني على أهبة الرحيل الى مدينة (غريان) التي سأسافر اليها بعد ساعة عن طريق جبلي ، وذلك في صحبة نقيب في الجيش التركي قادم من بلدة (غات) ومتجه الى بلدة (العزيزية) . وقد علمت أن القافلة التي سأسافر معها تتضمن جملاً يحمل هدايا وملابس مرسلة من قِبل عائلات من ايطاليـــا الى المساجين الايطاليين في غريان .

الفصل الثاني

في قلب طرابلس الغرب

الجوش في ٢٢ يناير ١٩١٢

قطعنا المسافة الفاصلة بين بلدتي (نالوت) و (الجوش) خلال يومين ونصف من السفر المتواصل حيث عبرنا سهلاً خالياً تمتد بمحاذاته سلسلة جبال (نفوسة). ثم انحدر بنا الطريق عبر صخور وادي (تارليس) . وكانت جمالنا تقاسي العناء من اجتياز تلك الدروب الوعرة ، إذ أن أخفافها الرخوة قد خلقت للسير على الرمال وليس على الأحجار . وكان اجتياز مطبات الطريق الكثيرة يؤدي الى زحزحة أمتعتنا من فوق ظهور دوابنا ، بحيث نضطر كل خمس دقائق تقريباً الى إعادتها الى مواضعها وربـط الأحزمة من جديد ، مكيلين الى الدواب المسكينة الشتائم واللعنات . وخيولنا هي الأخرى كانت تقاسي من وعورة الطريق .

وهكذا انطلقنا نحو وجهتنا في طابور متتابع ، مخلفين وراءنا بلدة نالوت ، التي كلما بعدنا عنها كلما بدت لنا معالمها ومعالم قصرها الهائل وخرائبها المهجورة مليئة بالكآبة . ولم نصادف أثناء تقدمنا عبر ذلك الطريق أحـداً ، إذ خلت المنطقة من البشر ومن قطعان الماشية ، بل وحتى من الطيور .

وتتألف قافلتنا من حصانين وأربعة جمال تحمل أمتعتنـا والشعير المخصص لغذاء خيولنا ، ومن مهرين يملكهما رائد في الجيش التركي ، وأخيراً من جمـل خامس محمل بالألبسة والمؤن المرسلة من ايطاليا الى أسرى الحرب الايطاليين المعتقلين في غريان ، كما سبق لي وأن ذكرت . هذا فيما يتعلق بالدواب ؛ أما فيما يتعلق بنا ، فإنه بخلافي أنا وترجماني (العلمي عليش) فقد كان هنالك اثنان من صحاب الجمال المؤجرة من الليبيين، وخادمان لي، وموظف ليبي اسمه (الصادق

أفندي) يعمل كمحاسب في دائرة الخزانة التركية ، ونقيب تركي اسمه (شكيب أفندي) قدم من بلدة غات وبصحبته اثنان من « الزبطية » – أي الشرطة التركية – وقد أمضى هذا النقيب التركي في طرابلس الغرب زهاء أحد عشر عاماً قضاها متنقلاً ، بحكم وظيفته بين فزان ومرزق وغات وسوكنة والشاطىء . وبالرغم من أنه تركي من اسطنبول نفسها ، إلا أنه قد تأقلم بعد هذه السنوات الطويلة التي قضاها في دواخل ليبيا وتطبّع بعادات وطبائع الليبيين وملبسهم وتصرفاتهم فبدا وكأنه واحد منهم .

كنا قد غادرنا نالوت حوالي الساعة التاسعة صباحاً فوصلنا (وادي غيلة) عند الساعة الخامسة بعد الظهر ، حيث وجدنا ان آثار مياه الأمطار ما تزال تكون غدراناً وبركاً ، فتوقفنا هناك لقضاء الليل ، وكنا قد خلفنا الجمال وحُداتها تتبعنا على بعد مسيرة ساعة .

ولمحت فوق الجبال سحباً داكنة السواد ، أخذت تتجمع في السماء ، ثم سمعت دوي الرعد ، وأعقبه هبوب الرياح بعنف ، فساءلت نفسي ، والحال هذه ، كيف لنا أن ننصب خيمتنا وسط هذا الجو المكفهر الذي تزمجر فيه العاصفة . والواقع أنه ما ان لحقت بنا الجمال حتى ادلهمّت السماء بالسحب السوداء فجأة وأخذت الرياح تصفعنا على وجوهنا بالحصى والرمال . وحاولت مع مرافقيّ أن ننصب الخيمة ، غير أنني تبينت أنهم لا يعرفون الطريقة المثلى لنصبها . فلقد أوقعتهم الريح العاتية على الأرض وانكسر أحد صواريها ، وهكذا أصبحنا بدون مأوى. ثم أخذت الأمطار تنهمر دون أن يتوقف هبوب الرياح . وهبط الليل ، فأسرعنا برمي أحجار على الخيمة كي لا تطير بها الرياح. أما الخزائن التي تتضمن أمتعتنا ومؤننا فقد ظلت مبعثرة تحت المطر الغزير هنا وهناك . وبعد عدة محاولات نجحت في إضاءة أحد الفوانيس ، وأخذنا نجمع ما تشتت من أمتعتنا . ولكن ظلمة الليل المطبقة وصفير الرياح العنيفة جعلتنا لانكاد نرى أو نسمع أحدنا الآخر . وأخيراً قررنا أن نتركها مكدسة في العراء وهرعنا للاحتماء في الوادي في بقعة تدرأ عنا هبوب الرياح .

وكان أول شاغل لي هو محاولة إنقاذ آلات التصوير ، وهكذا فإنني قد أدخلت نفسي في أحد أكياس الخيش حاملاً معي تلك الآلات الدقيقة ، ثم أسدلت فوقي معطفي ومن فوقه لحافاً سميكاً ، وظللت ممسكاً بالآلات بين يدي حيث بقيت بين ركبتي المغطاتين في منجى من ماء المطر والأتربة والرمال .

وهكذا بقيت جماعتنا المكونة من حوالي اثني عشر رجلاً ، مكدسة ، في كومة على الأرض المبللة ، والأمطار تهطل بدون توقف . وكنا نخشى أثناء ذلك أن تتجمع المياه المندلقة من السماء فتنتظم في واد دافق يحملنا فجأة مع زحمة مياهه الجارفة ، كما يحدث كثيراً في هذه البلاد . ولكن لم يكن لنا خيار في ذلك ، إذا أننا لو بقينا فوق المرتفع الذي تركنا فيه امتعتنا لتعرضنا للرياح العاتية التي تصفع الوجه بالحصى والرمال .

وفجأة شعرنا بأن المياه قد أخذت تتجمع من حولنا في الوادي فكادت تغمرنا ، واعتقدنا في البداية ، أن مياه الوادي قد تدفقت نحونا ، ولكنها لحسن الحظ لم تكن سوى بداية تجمع لبضعة مجاري جانبية . وهكذا فقد اضطررنا للهرب منها قبل فوات الأوان ، ولم يعد لنا من مأوى نلتجىء إليه .

وبعد مضي ثلاث ساعات متواصلة من هبوب الرياح وهطول الأمطار ، انقشعت الغيوم وهمدت وانقطع المطر . وسرعان ما تعاونا على تنظيم منتجعنا ، فهرعنا الى امتعتنا وخزائن ملابسنا ومعداتنا ننتشلها من غدران المياه ، حيث كومناها الواحدة فوق الأخرى . وذهب « الزبطيه » والجمالون لجمع بعض الحطب ، حاملين معهم أحد الفوانيس . ثم أشعلنا ناراً وأخرجنا بعض المآكل وشرعنا في إعداد الشاي . وقد اكتشفنا أن حبات الرمال قد تسربت حتى إلى داخل خبزنا وامتزجت به ؛ فتذكرت قول الخليفة عثمان بن عفان [رضي الله عنه] ، الذي مفاده إن لم تخني الذاكرة :

« إن أنت تقاعست عن أداء واجبك فستأكل خبزك وقد مازجته الرمال »[1] .

ومع ذلك فإننا لم نخل بأي واجب من واجباتنا ، فيما أعلم ، ولكن هذا هو ما حدث على أية حال . وبقينا جالسين حول النار أطول مدة ممكنة . وقد كان البرد قارصاً ، وصفت السماء من غيومها من جديد ولمحنا من بعد نيران قوافل أخرى ، داهمتها العاصفة من قلب الصحراء مثلما داهمتنا . وفجأة لمحنا ظلالا هائلة تنعكس على الأرض ، ثم بادرنا رجل بإلقاء التحية ؛ فالتفتنا نحوه فإذا به ساعي بريد نالوت المتجه في طريقه إلى العزيزية ، جاء يطلب منا أن نخلي له بيننا مكاناً قرب النار لكي يجفف ملابسه .

وعلى بعد عدة خطوات منا جلس الجمّالون في نصف حلقة ، وقد أسدل كل واحد منهم برنسه فوق رأسه كي يحتمي به من البرد ؛ وكانت النار تعكس ضوء لهبها عليهم ، لكنني لم ألمح تقاطيع وجوههم وكل ما كنت ألمحه منهم هو أرجلهم وأذرعهم التي كانت ألسنة اللهب تتلاعب بظلالها على الأرض .

وحاولنا بعد ذلك أن ننام ، ولكن بالنظر الى ان الأغطية والألحفة كانت كلها مبللة بالمياه ، فقد أخرجت سريراً خشبياً مفككاً قمت بنصبه بنفسي واستلقيت عليه فعزلني عن بلل الأرض . وبسبب شدة البرد فقد نمت منكمشاً ، وقد وضعت ركبتيّ في بطني حامياً رأسي ووجهي بيدي طلباً للدفء . ولم يطل علينا الصباح بشمسه إلا بعد ليلة ليلاء من النوم القلِق ، ففرحنا بقدومه ، وأمضينا فترة الصباح في تنظيف حوائجنا وأمتعتنا وتجفيفها. وقمت بإصلاح صاري الخيمة المكسور . وغادرنا (وادي غيلة) وقد جفت

---

(١) لم أعثر على النص العربي الأصلي لهذا الحديث الذي ينسبه إلى سيدنا عثمان بن عفان ، فاكتفيت بترجمته نصياً عن الفرنسية . المترجم

ملابسنا من جديد ، وهنا تذكرت أن النبي محمد ﷺ ، أو لعله أحد خلفائه ، قد وجه كلامه مرة الى أحد الطغاة قائلاً :

« ستذهب عنك قوتك يوماً ، فتصبح كقاع واد جف بعد أن مرت بـه السيول »[1] .

ولكنني أفضل في الحقيقة وادياً جافاً على سيل عـارم ، كما أنني أفضل في هذه الظروف التي مررنا بها ، إشراقة الشمس على هطول الأمطار . ومع ذلك فإنني أعتقد أن هذه الأمطار التي هطلت قد ملأت نفوس الطرابلسيين بالفرحة والنشوة ، لأنها ستمد أرضهم بخصب حرمت منه منذ قرابة خمسة أعوام ، وأن هطولها المفاجىء يعد في نظرهم علامة على رضاء الله عليهم وهم مقبلون على الجهاد ضد أعدائهم الكفار .

وفي يوم العشرين من يناير واصلنا اختراقنا للسهل الصحراوي الخـــالي . والتقينا في الصباح بضابط قادم من العزيزية ومتجه الى نالوت ؛ فسألناه عن سير الأمور في طرابلس ، فلم نجد لديه أخباراً طازجة ، إلا أنه أخبرنا أن الأتراك قد حققوا يوم ١٤ يناير الحالي انتصاراً على الايطاليين. كما التقينا أمس في طريقنا بنسوة تركيات مسافرات على ظهور جمال ؛ وقد قيل لي إنهن زوجات ضباط أتراك غادرن طرابلس وهن بصدد الإقلاع من أحـد الموانىء الى اسطنبول . وقد سبق لي وأن شاهدت في بلدة ذهيبة التونسية نسوة تركيات أخريات كنّ يتأهبن للسفر أيضاً الى بلادهن : فهل يتحتم عليّ تفسير رحيل نساء الأتراك عن ليبيا على أنـه بادرة لأحداث خطيرة تتهدد الليبيين والأتراك ؟.. أم أن سببه هو مجرد استفحال الغلاء وندرة المواد الغذائية في هذه الظروف العصيبة ؟

وبعد مسيرة ثلاث ساعات من (وادي غيلة) مررنا على واحة بهـــا بضعة

---

(١) لم أتمكن من التحقق من صحة هذا الحديث الذي ينسبه المؤلف الى الرسول او الى أحد الخلفاء ، ولذا فإنني أنقله عن الفرنسية كما هو بكل تحفظ في صحة نسبه . — المترجم

منازل ونبع ماء وأنجع بادية رحّل يشكلون عائلة كبيرة أكثر منها قبيلة . وقد رأيت أول ما رأيت حماراً وبضع نساء وأطفال وحوالي رجلين او ثلاثة وشيخاً مسنّاً . ويعيش هؤلاء الناس في حالة من الفقر المدقع ؛ فغذاؤهم الرئيسي هو نبات (الجرجير) ولا شيء غيره . وواصلنا سيرنا فمررنا ببدو آخرين يرعون قطيعاً من الماعز ، وكانت نظراتهم مليئة بالحذر وعدم الثقة فينا كغرباء ، وذلك بالرغم من أن مرافقيَّ كانا من العرب والأتراك . وقد حاولنا أن نبتاع منهم جدياً فرفضوا بيعه لنا بكل شدة قائلين :

« إن عنزاتنا وجدياننا مخصصة لنحرها قرباناً على قبر أحد المرابطين » . فعدنا نسألهم :

— « بيعوا لنا إذن بعض لبنها ! » ، فردوا قائلين :

— « إن بيع اللبن أمر مخجل ، فاللبن يعطى ولا يباع ، لكننا على أية حال نرفض أن نعطيه لشخص (رومي) » !

وهكذا فقد فشلنا في تذوق لبنهم ، ولم يعد أمامنا سوى أكل المعلبات التي في حوزتنا وكذلك خبزنا الممتزج بالرمال . والحقيقة أن الرمل يعتبر أحد « شخصيات » الصحراء ، وهي شخصيات قليلة العدد ، وهي : (الريح ، والشمس ، والحجاج المتجولين ، والرعاة الرحل ، والغزلان والكلاب والجمال) .. فهي كما ترون شخصيات محدودة ، ولكنها لها طابعها الخاص . وفيما يتعلق بالرمل إنه يتسرب الى كل مكان ، وهو يلتصق بالأسنان ، فهو حاضر دائماً يتعدى جميع الحواجز ؛ إنه كالعطر ينفذ الى كل شيء ! وكنا نأكل طعامنا هذا واقفين ، وقد رمى كل منا لجام حصانه حول كتفه ، وان كان لدينا وقت فإننا عادة نوقد النار ونعد الشاي . وتقليد إعداد وشرب الشاي في هذا البلد يقتضي أن يشرب منه المرء أربعة أكواب . وعندما سألت : لماذا أربعة أكواب لا أكثر ولا أقل ؟ رد علي النقيب التركي بهز رأسه قائلاً :

– « لأننا هنا في بلاد يعيش فيها الجمل ، وحيث أن للجمل أربع أرجل ، فقد تقرر أن يشرب المرء من الشاي أربعة أكواب » !

ثم اجتزنا واحة (تيجي) ، وكانت الطبيعة التي غسلتها الأمطار التي هطلت أثناء الليل ، قد اتخذت لها هيئات أكثر تماسكاً وأكثر تمايزاً إحداهـــا عن الأخرى ؛ فإنه خلافاً للأيام الصارمة ، فقد انتفى الاغبرار وعفرة التراب وخف لمعان الرمال التي كان انعكاس ضوء الشمس عليها يمتص تمايز الألوان. فلقد اتخذت الرمال لها لوناً ذهبياً جميلاً طغت عليه في بعض الأحيان خضرة الاعشيشاب في بعض البقاع ، وأصبح من الممكن استجلاء خط الأفق والتمييز بين لون الأرض ولون السماء ، أما الجبال فإنها بلونها الأزرق الغامق قد بدت رائعة ومتمايزة عن زرقة السماء .

وعند الساعة السادسة مساء ألقينا رحالنا ، والليل هـــابط ، في (وادي المالحة) ، وكانت الليلة جميلة . وقد أخذت أنصب خيمتي بمفردي متمهلاً ، ولم يساعدني أي من خادميّ في ذلك ،فإنهما لا مثيل لهما في التنبلة والبلاهة والكسل ، على خلاف ترجماني الجزائري . وهما لا يفكران سوى في الأكل والنوم ويكثران من الشكوى كلما منعتهما من فعل ما يحلو لهما . وكلاهمـــا ينتمي الى الطريقة (العيساوية) الصوفية ويحمل درجة (شاوش) وهي إحدى رتب هذه الطريقة . وهما يعتبران أن رتبهما الدينية هذه تجعل لهما هيبة وحظوة خاصة : فأولهما ، واسمه (التوهامي) ، من مهامه في الزاوية العيساوية ، التابع لها ، أكل المسامير الحديدية في « الحضاري » . أما الآخر ، واسمه (بو بكر) فمهمته فيهـــا أكل العقارب ، مثلما يدّعيان . وكنت أعتقد أن هذه الهواية الغريبة ستدفع بهما الى الاقتصاد في المأكل فيوفران عليّ بعضاً من مؤنتهما. لكنهما على العكس مما توقعت لا يقنعان بمجرد وجبة « الكسكسي » او حتى بأكلة « الشمنكه » [؟] ، بل إنهما يطالبان أيضاً بأكلة « الشكشوكه » . زد على ذلـــك أنني مضطر الى

جمس يوسف الموتي

استضافتهما في الليل في خيمتي لأن الجو بارد ، والمصيبة أنهما يشخران أثناء النوم كالفيلة .

ووصلنا الى بلدة (الجوش) يوم ٢١ يناير في الصباح ، وذلك بعد سفر ثلاث ساعات . وعندما اخترقناها وجدناها عبارة عن واحة صغيرة قذرة ، تحيط بها أشجار النخيل ، ومكونة من حوالي ستين او ثمانين من البيوت الخالية التي تهدم معظمها . ويتوسطها قصر قديم به برجان محصنان آيلان للسقوط . وكان مفتي البلدة وإمامها جالسين يتجاذبان أطراف الحديث عند عتبة أحد المنـــازل . وبالرغم من أنني كنت في صحبة عرب وأتراك إلا ان هذين الشيخين قد تحاشيا ان يردا على تحيتي لهما بمثلها . لقد كانا بدينين ، أشقري الشعر ، كبيري البطن ، تتدلى من ذقنيهما لحيتان كثتان. وكانت بشرتهما نقية وتقاطيعهما عليها مسحة من الصرامة والجد . ولقد كان هذان الشيخان المهيبان يلبسان تحت برانسهما البيضاء ثياباً مبطنة مصنوعة من نسيج الألحفة الغليظة الشبيهة بالثياب التركية التي لبستها بعض شخصيات الكاتب المسرحي (موليير) في مسرحيتيه : « المريض بالوهم » و « البورجوازي النبيل » .

ثم مررنا ببعض أعيان البلدة الذين استقبلوني استقبالاً حسناً ، على خـلاف الشيخين السابقي الذكر ؛ إذ ان مرافقيّ قد أخبروهم بهويتي وبالغرض من قدومي الى بلادهم . وكان من بين أولئك الأعيان اثنان من مشايخ البادية ، وموظف حكومي من أصل « قريتلي » كانت تبدو عليه علامات مرض السل ، فقد كان نحيلاً للغاية ووجهه مربدّ من شدة المرض ، كما كان من بينهم أيضاً نقيب في الجيش التركي .

وأخـذوا يحدثونني عن الحرب الدائرة بين الليبيين والايطاليين ، بالرغم من أنهم لم يذهبوا لخوضها بأنفسهم . فرووا لي طرفاً من بطولات الليبيين ، الذين وصفوهم — على حد تعبيرهم — بأنهم يسحقون الغزاة الايطاليين سحقاً ؛ متنبئين باندحار هؤلاء في وقت قريب .

وانفرد أحدهم يقول :

– « إن عدد الشهداء من الجانب الليبي لا يكاد يذكر ، لأن الايطاليين لا يجسرون على مغادرة سفنهم الحربية ، او الخروج من الخنادق التي اختفوا فيها .. أما رصاصهم وقذائف مدافعهم فإنها لا تصيب أهدافها . وهكذا فإن الفلاح في هذه الواحة ما يزال مستمراً بكل طمأنينة في تسلق نخلاته ، يجني رطبها ، او يجمع مشروب « اللاقبى » المنسكب منها .. وإن حدث وأن مر به ، في أثناء ذلك ، أزيز الرصاص ، فإن كل ما يفعله هو أن يتقيها بمعطفه او ثوبه قائلاً : مطر ! مطر !.. ما شاء الله .. هذه نعمة من عند الباري على الطرابلسيين فله الحمد وله الشكر ! » .

ثم ينبري آخر فيروي لي أحداثاً بطولية مبالغاً فيها ، قائلاً :

– « لقد ظل أحد رجال مدفعيتنا مرة مدة ثمانية وأربعين ساعة يوجه طلقاته للأعداء بدون توقف ، رافضاً أن يأخذ نصيبه من الراحة ، مكتفياً بمضغ بضع تمرات جافة او أكل بضع « شريحات »[1] يلتهمها على عجل من يد أحد رفقائه ، ثم يواصل إعمال مدفعه .. إن حماسة قومنا وحميتهم في كفاحهم وصدهم للعدو قد بلغت أشدها في كل مكان ، حتى في القرى والقصور النائية ، ورجالنا وشبابنا يستعدون للذهاب الى ساحة المعركة من كل بقعة . وكل ما تخشاه رئاسة أركان الجيش هو ازدحام المجاهدين أكثر من اللازم ، إذ أن لديها من الرجال أكثر مما هي في حاجة اليه ، ولذا فإنها تفضل أن يبقى جزء من الليبيين في حقولهم لجني محاصيلها ، متأهبين لأول إشارة يتلقونها من رؤسائهم إن هم احتاجوا اليهم في ساحة القتال . هذا هو حالنا في جميع أطراف بلادنا ، حتى في فزان القاصية ، او في واحة (الكفرة) النائية ، او في موطن « الطوارق » .. فهنالك في كل مكان معين لا ينضب من المجاهدين البواسل

(١) « الشريح » يعني في اللهجة الليبية : التين المجفف . المترجم

الذين ، حتى وإن انسحب الأتراك من هذه الحرب ، فإنهم سيواصلونها بمفردهم . ولن تنجح إيطاليا في كسر شجاعتهم » .

وقد لمست هنـا ان الليبيين والأتراك يحرصون أشد الحرص على ألا يتهمهم الأجانب بأنهم قوم متوحشون او قتلة ذبّاحون ، ويحاولون بإخلاص الإبانة عما يتمتعون به من عواطف إنسانية . زد على ذلك ان شعارات : الإنسانية ، وحب البشر ، والتقدم ، تعد على رأس الشعارات التي تتردد في هذه الفترة كثيراً لدى أنصار ثورة تركيا الفتاة . ولذا فإن كثيراً من الليبيين الذين استهوتهم مبادؤها قد أخذوا يرددون من جانبهم هذه المفاهيم والشعارات ، حتى وإن لم يفهم بعضهم أحياناً مدلولها الحقيقي ، ولكن : هل يهم فهم الشعارات ونفس المسلم تهتز للأفكار والمفاهيم المجردة الغامضة !.. فإن بعض الكلمات تتخذ لديها نغمة محببة . ولا يمكنكم أن تتصوروا مدى الضجة التي أثارتها هنا إجابـة (بيير لوتّي)[1] ، عضو الاكاديمية الفرنسية ، على أسئلة صحيفة ايطالية طلبت اليه أن يدلي لها برأيه في الحرب الايطالية – التركية . فكلمة «أكاديمية» الغامضة ، والتي يصعب على الناس البسطاء هنا فهم مدلولها بالتحديد ، قـد أحدثت في النفوس مفعولاً خاصاً وصبغت على (بيير لوتّي) إجلالاً غطى على شهرته في حد ذاتها ، وهي شهرة لا تهم أحداً هنا في شيء . وقد تناقشت في ظاهرة حب وإجلال العبارات الرنانة والمجردة عند الشرقيين مع أحد الأتراك الحاضرين ، والذي بدا لي أنه إنسان مثقف ثقافة عالية ، فروى لي ، مصداقاً على ذلك ، أنه حينما قامت الثورة الايرانية كان هو موجوداً في إيران ، وقد لاحظ أثنـاء مناقشات الثوار فيما بينهم ان كلمة « دستور » كانت تتردد كثيراً في كلامهم ؛

---

(١) بيير لوتّي : (ولد سنة ١٨٥٠ وتوفي سنة ١٩٢٣) ، هو أديب فرنسي وضابط سابق في البحرية وعضو في الاكاديمية الفرنسية . زار الشرق عدة مرات، وله كتابات عن مصر. وهو روائي انطباعي ، ومن أشهر مؤلفاته : « صياد ايسلندا » و « زواج لوتّي » و « رحلة الى الشرق » و « السيدة كريزانتيم » . المترجم

فـــكانوا يقولون : « نريد دستوراً .. نريد دستوراً ! » ، ثم يستدرك بعضهم قائلاً : « ولكن بربّكم : ماذا تعني كلمة دستور على وجــه التحديد ؟! » .. ويستمر محدثي التركي في روايته قائلاً : وحيث أن أياً منهم لا يفقه مفهوم كلمة « دستور » ، فإنه لم يجد من يجيبه على تساؤله ، وهكذا فإنهم سرعان مـــا استقدموا أحد القواميس اللغوية ونقبوا فيه عن مدلول الكلمة .. وما أن فهموه حتى هرعوا يصدرون البنود والمواد الدستورية الواحدة تلو الأخرى !!

.. هذا فيما يتعلق بالإيرانيين وثورتهم والمفاهيم التي كانت تشغل بالهم، ولنعد الى الناس هنا ، لنرى ما هي الكلمات والمدلولات التي تتردد في أفواههم : لقد لاحظت ان تلك الكلمات التي تتردد هنا كل ثانية تقريباً هي كلمات مثـــل : « إنسانية » ، « مدنية » ، « تمدُّن » .. الخ . وكان الليبيون يقولون لي :

– «لسوف ترى حين تصل الى (غريان) كيف نعامل أسرانا من الايطاليين: إننا بالتأكيد نعاملهم أفضل من معاملتنا لجرحانا ؛ بل إنك قد لاحظت بنفسك منذ أن غادرت (نالوت) أننا قد خصصنا أحد جمالنا لنقل هدايا ذويهم اليهم .. فاعلم ان العربي يعتبر إيذاء الأسير عملاً يفوق في نذالته ضرب المرأة ؛ فالأسير الأعزل الذي ليس لديه ما يدافع به عن نفسه شبيه بفتاة عذراء لا حول لهـــا ولا قوة » .

إنني أروي لقرائي هنا ما يقوله لي هؤلاء القوم عن أنفسهم ، وأنا لم أشهد بعد بعيني ما يؤيده او يدحضه . وعلى أية حال ، فليس لي إلا ان امتدح هذه العواطف الانسانية النبيلة التي عبر بهـــا أصحابها عن الأخلاق التي يرتضونها لأنفسهم .

ثم أطلعتهم على أحد أعداد مجلة « المصور »[١] الأسبوعية التي أعمل مراسلاً لهـــا ، وفرجتهم على صور (نشأت بك) والدكتور (كريم صاباتي)[٢] التي

(١) اسم المجلة بالفرنسية : L'ILLUSTRATION (انظر المقدمة) .
(٢) كان الدكتور كريم صاباتي أستاذاً بكلية الطب بالقسطنطينية قبل مجيئه الى ليبيا .
المترجم

نشرت بذلك العدد ، فبدا على بعضهم الاستحسان . لكنني لاحظت أن رؤساءهم قد حاولوا أن يظهروا لي ان مثل هذه الأمور لا تهمهم ، فهم فيما يبدو لا يريدون ان يظهروا أمامي امتنانهم او ان بالهم ينشغل بمثل هذه الصور والمقالات ، التي ليس لها في نهاية المطاف من هدف سوى الترفيه عن « الكفار » الذين يقضون وقتهم في مطالعة الصحف والمجلات .

ثم أطلعتهم كذلك على تلك الصور التي أحدثت وقت نشرها المرة الأولى في فرنسا ضجة كبيرة ، وهي التي التقطتها أثناء إحدى رحلاتي السابقة الى اسطنبول ؛ فأعجب بها البعض أكثر من إعجابهم بما سبق من اللقطات . بيد ان الحاضرين من أعيان البلدة أبدوا لي مع ذلك اشمئزازهم منها قائلين :

— « إنها لا تعدو ان تكون ضرباً من ضروب الاختراعات الكاذبة التي لا حاجة لنا بمشاهدتها » ، مرددين بأنهم لا يرغبون سوى تصوير الحقائق عارية كما هي . وقال لي أحد الضباط الطرابلسيين :

— « عليك ان تحرر مقالاتك بمداد من الذهب ، وألا تحبّر بذلك المداد سوى صفحات تصور الحقائق بدون أي مبالغة او زخرفة لفظية » .

إنني لا أريد التعجل بالحكم برأيي عن هذا الشعب ؛ وفي رأيي ان مثل هذا الحكم لن يتيسر لي إلا بعد ان أرحل عنهم وان أتفكر بروية وتأنٍّ في سلوكهم وطبائعهم وعقلياتهم بكل تجرد : إذ ان لهم نفوساً معقدة وساذجة في آن واحد ، وكذلك متباينة فيما بينها . وهي في الحقيقة نفوس أناس يجتازون في هذه الظروف العصيبة فترة قاسية للغاية . وإنني لأكتفي الآن بالتساؤل بيني وبين نفسي : ما هو رأي الليبيين في أعضاء حزب تركيا الفتاة الذين أطاحوا بالسلطان ، وثاروا عليه ، معلنين إيمانهم بالمساواة بين البشر وبين الأديان ؟.. وما هي طبيعة العلاقات القائمة حالياً بين أنصار تركيا الفتاة من الأتراك أنفسهم ، من ناحية ، وبين هؤلاء الطرابلسيين الذين ظلوا أبعد الناس عن التعرف على

حضارة أوربا التي نادت جماعة تركيا الفتاة بالأخذ بقيمها ومبادئها ؟.. فهل استطاع التلويح أمامهم بالمبادىء والشعارات الأوربية ان يخفف لديهم من تأصل المبادىء والقيم الاسلامية والإيمان بعقيدتهم الدينية التي تعدهم بنصر قريب على شعوب أوربا النصرانية ؟.. أم على العكس من ذلك، فإن هؤلاء الثوار الأتراك قد أدخلوا في نفس الليبي ، او على الأقل في نفوس وعقول رؤسائه ، عاطفة الانتماء الى وطن خاص به ، بحيث صار يميز بين فكرة المواطنة وبين الفكرة الدينية ؟.. أم ان الكراهية التقليدية بين الليبيين والأتراك ما تزال قائمة ، وأنهم ما زالوا غرباء عن بعضهم البعض ، لا تجمع بينهما مؤقتاً سوى الرغبة في رد العدوان الايطالي الذي يتهددهم جميعاً ؟.. وفي هذه الحالة : الى أي مدى ، يا ترى ، سيستمر هذا التآلف بين الفريقين ؟

ومن وجهة نظر مادية بحتة، فإنه من المؤكد ان الأتراك ليست لديهم مصالح كبيرة في طرابلس الغرب ؛ لأنه يكفي المراقب الأجنبي ان يتجول في هذه الصحراء الشاسعة ، وان يزور هذه القرى التي تهدمت وأُهملت تماماً ، وتلك الواحات التي تعبث بها الحميات والأمراض ، وتلك الصخور التي يلتجىء اليها البدو الرحل احتماء من الغزوات القبلية التقليدية . فليبيا بلاد شمسها حارقة ورياحها عاتية وبردها في ليالي الشتاء قارص ، والماء فيها نادر . فكيف يحب الناس بلداً بائساً مثل هذا ويضحوا من أجله بأرواحهم ؟.. ولكن هل يحق لي ان أتساءل مثل هذه التساؤلات ، وأنا أعرف ان الانسان في كل مكان ، وليس في هذا البلد وحده ، لا تقوده المصالح المادية وحدها، بل تقوده كذلك عواطفه ومبادئه وأفكاره التي يؤمن بها . وايطاليا نفسها ، ما الذي دعاها الى غزو هذا البلد المسالم ؟.. أليست هي مجرد فكرة إعادة الأمجاد الرومانية الزائلة فوق أرض ليبيا ؟.. ان هذا وحده لقمين بأن يثير ثائرة الليبيين والأتراك على السواء ويدعوهم الى الدفاع عن هذه الأرض . وهذه هي الأخرى فكرة تصارع الفكرة التي سيرت جيوش الايطاليين الى هنا . فليبيا عندهم أرض إسلامية لا يمكنهم التفريط فيها .

المهم أنهم استضافونا في البرج الذي يقع تحت إمرة ملازم يقطنه مع بضعة عساكر . وتقدم النقيب شكيب الذي ما يزال في صحبتنا منذ أن غادرنا (نالوت) ، فطبخ لنا صحنين أحدهما من المرق والآخر من طحال الغزلان . وقد كان طعامه في الحقيقة لذيذاً للغاية ، وإن كان حاذقاً لكثرة ما أودعه فيه من الفلفل الحارق ، الأمر الذي جعلني أشعر بالتهاب شديد في شفتي ولساني ؛ فأدمعت عيناي وصرت أعطس في صحني . وقد لاحظت ان أهل هذا البلد قادرون على تحمل الجوع طيلة النهار ، لكنهم ان هم قرروا الأكل فإنهم قادرون على الأكل طيلة النهار أيضاً ، إذ أنهم لا يعرفون التوسط في الأمور .

وكان هذا يحمل الينا حليباً ، والآخر لبناً رائباً ، وثالث يأتي بـ « اللاقبي » (او حليب النخيل المسكّر) ، ورابع يحمل بيضاً مقلياً في زيت الزيتون المر . ثم يعقب هذا وذاك صحن من الحلويات ، ثم يأتونك بالتين المجفف وبالتمر. وبعد ذلك قهوة او شاي يقدمونه أربع مرات متتالية . وقد كان معنا بعض الأعيان الليبيين الشديدي التدين ، ولكنهم غادرونا بعد الطعام النوم بعد الظهيرة برهة ، وهنا سقانا القوم بعض المشروبات الكحولية من مثل مشروب (العرق) ومشروب آخر مصنوع من نبات النعناع المقطر .

وفي المساء خرجنا للتجول في صحبة ضابط حامية البرج . وكانت الظلال تخيم على الصحراء، فبدت لي هامات النخيل في الليل مثل عناكب سوداء هائلة .

(فساطو) و (جادو) في ٢٤ يناير ١٩١٢

رحلنا عن (الجوش) ، وبعد مسيرة ثلاث ساعات مررنا بنبع يسمى نبع (عين الغزال) ، حيث عسكرنا . وقد بدأ خدمي يتعودون شيئاً فشيئاً على

نصب خيمتي ، كما تعلموا طبخ الطعام بعض الشيء ، وكذلك إعداد سريري الخشبي . كما قلّ ميلهم إلى تحطيم كل ما يمسونه بأيديهم .

ولقد كنت شديد الامتنان من ترجماني (العلمي عليش) ، فهو شاب درس في المدرسة التجارية بمدينة الجزائر ، وأبوه « قائد »[1] جزائري ، وقد كان شاباً نشطاً وذكياً ومخلصاً ، وقد أدى لي الكثير من الخدمات ، ولست أعتقد أنني واجد أفضل منه ، لا كترجمان فحسب ، بل وكرفيق طريق أيضاً .

وفي الهزيع الأخير من الليل صحا أحد أصحاب الجمال الليبيين المرافقين لي وأخذ يؤدي الصلاة .. أمـــا خادماي ، فبالرغم من أنهما من إخوان الطريقة العيساوية – أي أنهما أولى بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها – إلا أنهما استمرا في النوم والتشخير كعادتهم .

ووصلنا ظهر يوم ٢٣ يناير إلى بلدة (شكشوك) ، وهي عبارة عن واحة صغيرة خصبة ، بها بضعة أكواخ وضريح مرابط ، يحيط بها النخيل المتراص الصفوف فبدا كأنه يحميها بخضرته من رمال الصحراء الصفراء المحيطة بها ؛ كما كان بها نبع مـــاء صافي . وبعد أن غادرناها بدأنا نصعّد عبر أرض عالية مليئة بالحصى . وعن بعد بدت لنـــا قمم جبال (فساطو) بارزة وسط الصحراء . ومررنا ببضع نخلات جرداء أخذت تتمايل سعفاتها القليلة مع الريح كأنها مكانس قديمة . وواصلنا اجتياز الوادي عبر الصخور والحصى الذي صقلته السنون والمياه ، فبدا في قعر الوادي مرصوفاً ومتراصاً بإحكام كأنه شارع من شوارع مدينة توسكانية . وقد لاحظت أن الفلاحين الليبيين قد قاموا بجهد كبير في حفر

---

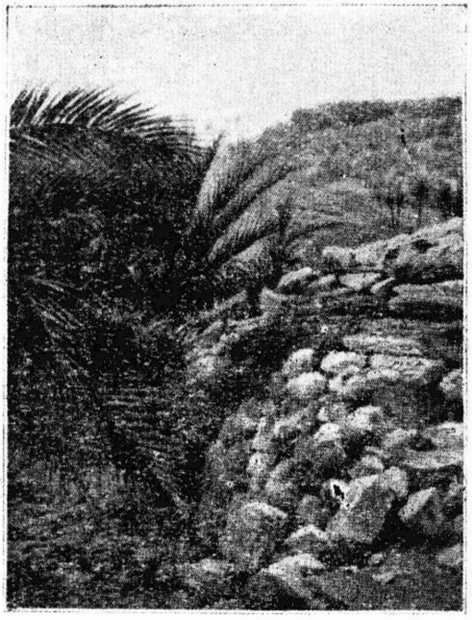
(١) درجة « قائد » . أيام الاحتلال الفرنسي للجزائر ، هي وظيفة ابتدعتهـــا السلطة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ، وكان يشغلها بعض المسلمين المقربـين من المستعمر . فالقائد بحسب هذا المعنى هو مأمور قضائي له سلطات محلية بوليسية وإدارية ، كما أنـــه منوط بجمع الضرائب في دائرته . المترجم

قنوات يحتفظون فيها بمياه الأمطار ؛ كما أنهم قد استقدموا أتربة وأقاموا مزارع وبساتين ازدهرت بالخضرة والحبوب . وهكذا ، فقد كنت ألمح هنا أو هناك بين الجبال والراوابي ، مشاتل خضرة ومزارع أحيطت بأسيجة من الأحجار . ثم أخذت الأرض تنحدر أمامنا . وشاهدت على يساري وادياً أخضر انعقدت على أرضه جذوع الأشجار واختلطت ، وقد دعم أحدها الآخر في بطن ذلك الوادي الذي عششت على جانبيه القرى . ولست أدري كيف يمكن الوصول إلى تلك القرى والواحات عبر هذه الصخور والأحجار العالية . وعلى أية حال فقد كانت تلك الواحات والقرى رائعة المنظر ، تصعد إليهـا دروب ملتوية ، وتتفجر فيها ينابيع مـاء تنساب بين أشجار النخيل والزيتون التي بدت قديمة العهد طاعنة في السن ، إذ أن فروعها قد دعمت بأحجار كبيرة ، وهكذا فقد غاصت القرى وراء أسيجة من السعف والأغصان الخضراء .

واجتزنا إحدى تلك الواحات الصغيرة التي تركناها على يسارنا ، تفصلنـــا عنها الصخور . وها نحن من جديد بين الصخور العارية ، حيث اتخذت الطبيعة لنفسها ذلك المظهر الذي رأيتها عليه يوم وصولي إلى (نالوت) ؛ إذ اختلطت الخضرة عن بعد مع لون الصحراء الكبريتي الأصفر عبر مساحات شاسعة . أما الدرب الضيق الذي أخذنا نعبره فقد بدا لي درباً أسطورياً ، فخيل إليّ أن جمالنا وخيولنا لن تنجح في اجتيازه ، فهو قد شُق وسط صخور ضخمة على حافة هوة سحيقة كنت أتوقع أن تجرفنا بين لحظة وأخرى .

ثم بدت أمامنا بلدة (جادو) شامخة ، وما أن لمحنا أهلها حتى خرجوا أمام بيوتهم ، وقد اندهشوا على الخصوص لمرأى قبعتي الأوربية التي نسيت حتى الآن أن أستبدلها بغطاء رأس محلي. وصعدنا في البلدة حتى وصلنا إلى البرج فدخلناه ، حيث كان في استقبالنا قائد عسكري وضباطه رحبوا بنا كل الترحيب .

وقائم مقام (فساطو) ، أي حاكمها ، هو شيخ ليبي . وقد ذهب البعض إلى مكتبه لإبلاغه بوصولنـــا . وما لبث أن أقبل علينا وقد علت وجهه



وادي طموغرث



بلدة جادو — فساطو

علامات التكبر والتأفف ، حيث رفض أن يحييني بالرغم من أن الضابط التركي آمر الحامية قد نبهه إلى وجودي ثلاث مرات . ولكنه اتخذ له مجلساً غير آبه بي ، وقد سرحت نظراته المتجاهلة في الفضاء . ثم قدمت إلينا القهوة . وبعد ذلك اصطحبنـــا ضابط طرابلسي برتبة نقيب يدعى (العرْبي بي) إلى بيت خصص لاستضافتنا ، وصلناه بعدما اخترقنا طريقاً ملتوية . وفي هذه اللحظة لحق بنا أحد الليبيين قال لنـــا إنه قادم إلينا من طرف القائم مقام الذي قرر فجأة أن ننزل ضيوفاً عليه في بيته الخاص . فتبعناه حيث تسلقنا وراءه درجات سلم يفضي إلى مقصورة عالية من البرج حيث وجدنا القائم مقـــام في انتظارنا ، فاستقبلني في هذه المرة بكل ترحاب . وأُجلست على مقعد وثير ، حيث جاء بعض أعيان البلدة لتحيتي . وخلافاً للإستقبال الأول ، فإنني قد لاحظت أن الحاضرين كانوا كثيري التودد إليّ والتبسط معي . وكلف القائم مقام ابنه ، وهو جندي ، بالسهر على راحتنا ، كما كلف جندياً آخر بأن يلازمنا آناء الليل وأطراف النهار ، وألا يتركنا إلا إذا طلبنا منه نحن ذلك. أما النقيب (العرْبي بي) فقد أوكل إليه تدبير أمور أكلنا والبقاء في صحبتنا .

وبعد فراغنا من تناول العشاء توارد الضباط الآخرون علينـــا في جماعات للتحية والتعرف بنا . وكانوا يبقون معنا وقتاً طويلاً ، يتجاذبون معنا أطراف الحديث ، يروون لنا ذكرياتهم عندما كانوا مجندين في حروب تركيـا في اليمن وفي ألبانيا ، قائلين إنها كانت حروباً طاحنة جرت أحداثها تحت شدة البرد او تحت وهج الشمس ، عبر جبال يبلغ ارتفاعها ما بين ألفين وثلاثة آلاف مـتر ، وليس بها طرق . وحكوا لي كيف أنهم قد أصيبوا بالإسهالات المعوية وغيرها من الأمراض ، في وقت كانوا يواجهون فيه أعدى الأعداء . والواقع أنهم قـــد بدوا لي في منتهى الطيبة ، في صلابة وبساطة ، وكانت لهم مشية عسكرية حقة . وليس لي إلا أن أُعجب برجال مثلهم ، قضوا حيـــاتهم في الخدمة العسكرية بمعسكرات وثكنات نائية ، راضين برواتب زهيدة وملابس رديئة ، يحيون حياة خالية من كل ترفيه ، باذلين شبابهم وحياتهم لخدمة وطنهم .

وأثناء الليل شعرت باهتزاز جدران الغرفة التي ننام فيها ، من شدة هبوب الرياح العاتية التي كانت تصفر في جنبات تلك الوديان العارية وجدران البيوت ، حيث تجوب أطرافها فتزلزل المنازل المتواضعة وتفري الصخور العالية التي تحول الكثير منها إلى رقائق وألسنة ناتئة من كثرة ما تعرضت لهبوب تلك الرياح .

ثم أقبلت قافلة مكونة من أربعين جملاً محملة بإمدادات ومؤن قاصدة بها الى أماكن متعددة من طرابلس الغرب لتزويدها . وحطت جميعها في ساحة البرج في جلبة وحركة ، باحثة عن مواضع لقضاء الليل في تلك الساحة ، حيث علت صيحات حداتها وأصحابها واختلطت في هدأة الليل .

وبقينا في بلدة (جادو) طيلة يوم الرابع والعشرين من يناير . وقد كان الطقس مكفهراً والسماء ملبدة بالغيوم والريح عاتية . وطيلة الوقت كان ضباط الحامية التركية يعبرون لنا عن توددهم ، وظلوا في صحبتنا متجولين بنا في وادي (طموغوث) .

وسرعان ما توثقت عرى الصداقة والمودة بيني وبين قائممقام (فساطو) الليبي . وكان الفضل في ذلك يعود الى ترجماني الجزائري الذي خطرت ببـــاله فكرة جهنمية لتملـُّق كبرياء ذلك الرجل ؛ إذ قال له إن مجـــلة « المصور » الفرنسية ، التي أعمل مراسلاً لها ، قد سبق لها وأن نشرت صورة القائممقام في أحد أعدادها السابقة ، وان ذلك العدد من المجلة حينما وصلت بعض نسخه الى الجزائر بادر الجزائريون الى انتزاع صورته منها وعلقوها على جدران المساجد والمقاهي تكريماً له في كفاحه ضد الايطاليين ، وأنهم بالرغم من عدم معرفتهم الشخصية بـــه ، إلا أنهم قد أجلـُّوه ودعوا له بالبركة بسبب ذوده عن حمى الإسلام . وللحق فإن الصورة التي عرضت عليه في المجلة لم تكن صورته هو ، بل صورة أحد المجاهدين الليبيين الآخرين ، إلا ان الضباط الحاضرين اعتقدوا أنها صورته . وقـد فطنت أنا للأمر بمجرد أن نظرت الى الصورة المنشورة في

المجلة ، وخشيت أن يفطن للأمر فتكون الطـــامة الكبرى ، لكنه لم ينتبه للخدعة لحسن الحظ ، وانطلت عليه الحيلة بعض الشيء ، وإن كان قد بدا لي وهو يتفرّسها أنه يداخله بعض الشك وخيبة الأمل .

وتضم منطقة (فساطو — جادو) حوالى خمس وعشرين قرية يسكنها قرابة عشرين ألف نسمة ، معظمهم من البدو الرحل الذين يغادرون قراهم خلال فترة من السنة حيث يذهبون للفلاحة في الوديان المجـــاورة او عند أطراف الصحراء ، حيث تهطل بعض الأمطار في فصل الشتاء ، مما يمنح الأرض بعض الرطوبة التي تجعلها صالحة للزراعة .

ويبلغ عدد أولاد القائممقام خمسة عشر ابناً ، معظمهم يعملون كضباط في الجيش التركي او موظفين حكوميين . وقد لاحظت ان الناس هنـــا على أتم الاستعداد للدفاع عن ديارهم ضد الغزاة الايطاليين . وقد غادر عدد كبير من السكان فعلاً قراهم وانضموا الى بقية المجاهدين في معسكر (العزيزية)، في حين ظل الآخرون مستعدين لتلقي أول إشارة باستدعائهم .

وقد علمت ان أفراد بعثة الحفريات الأثرية الايطالية المسماة بعثة (سان فيليبّو) ، التي فاجأتها بداية الحرب وهي تباشر تنقيبها في طرابلس الغرب . وهي البعثة التي أشاعت إيطاليا ان الليبيين قد ذبّحوا أفرادها . غير أنهـا في الحقيقة ما تزال موجودة لم ينلها أي أذى . وقد اختلف الناس في تحديد المكان الذي توجد به تلك البعثة حالياً. فالبعض يقول أنها في بلدة (سوكنة)، والبعض الآخر يقول انها في مكان ما بين (طرابلس) و (مرزق) ، وآخرون يدّعون أنها بمنطقة (الشاطىء) في فزان ، أي على مسيرة ثمانية أيام شمالي (مرزق) .

يفرن — في ٢٧ يناير ١٩١٢

لقد رحلنا عن (فساطو — جادو) أول أمس عند الظهر ، مزمعين قضاء

الليلة التالية في بلدة (الزنتان) التي تبعد عنها مسيرة خمس ساعات . وعندما دنت ساعة رحيلنا تجمع أعيان البلدة في ساحة البرج لوداعنا . وكان المشهد رائعاً وخارقاً للعادة ، ونحن نودع الناس في تلك الساحـة التي كنستها الرياح وتجمعت فيها قافلة الأربعين جملاً المحملة بالعتاد والمؤن ، والتي كانت على أهبة الاستعداد لنقلها الى المجاهدين الليبيين . ورحلت أمامي جمالنـــا نحن يسوقها جمّالوها الذين التحفوا ببرانسهم فـــلم تعد تبدو منهم سوى أعينهم . وأجلت النظّر حولي وأنا أتحرك فوق صهوة جوادي ، فرأيت حول القصر القديم بيوتاً عربية متناثرة . وقد بنيت حول القصر غرف عالية لها شرفات ، ويصعد اليها عن طريق درجات حجرية . وقد شاهدت الناس يهرعون منهـا ومن القرى المجاورة ، ثم يتجمعون حول قافلتنا وهي تحاول أن تجد لها منفذاً تخرج منه . ثم لمحت القائممقام آتياً نحونا وقد ارتدى قميصاً أبيض طويلاً لبس فوقه جبـة زرقاء داكنة ، وكان يعرج من جرّاء جرح في أحد فخذيه ، ولذا فإنه كان يستعين في مشيه بعصى يتكىء عليها . وكان أولاده وخدمه يتبعونه . واستمر الناس يتجمعون حولنا ، وهرع الكثيرون منهم الى ساحة القصر ، في حين أطلّ علينا الآخرون من فوق الجدران والأسوار ،وكانوا يلوّحون لنا محيّين او يكتفون بالتحديق فينا وقد تلحفوا بأرديتهم او ببرانسهم . وكنت ألمح بينهم الجنود والشيوخ والأعيان والأطفـال ؛ ومنهم النقي البشرة ومنهم الشديد السمرة . والحقيقة ان الصورة الفوتوغرافية لا تكفي في إعطاء فكرة وافية عن جمهرتهم ، إذ يتحتم ان يرقبهم المرء من جميع الزوايا حتى يتمكن من الإلمـــام الكامل بمنظرهم .

وتوقفنا فوق ظهور دوابنا وسط مشايخهم ، فتقدم مني القائممقام — واسمه (عمر العربي بي) — وتوجه إلي بكلام ترجمه لي مترجمي ، وهذا نصه :

— « يؤسفنا أننا لا نعرف لغتك الفرنسية كي نخاطبك بها مباشرة لنعبر لك عن خالص امتناننا لحكومة بلدك وعن صداقتنا لشخصك . وآمل ألا تنقطع

روابط الصداقة بيني وبينك بعد اليوم ، وإذا احتجت أثناء تنقلك في بلادنا الى أي مطلب يكون في مستطاعنا تلبيته ، فاكتب الينا ، فإن طلباتـــك فوق رؤوسنا وأعيننا » .

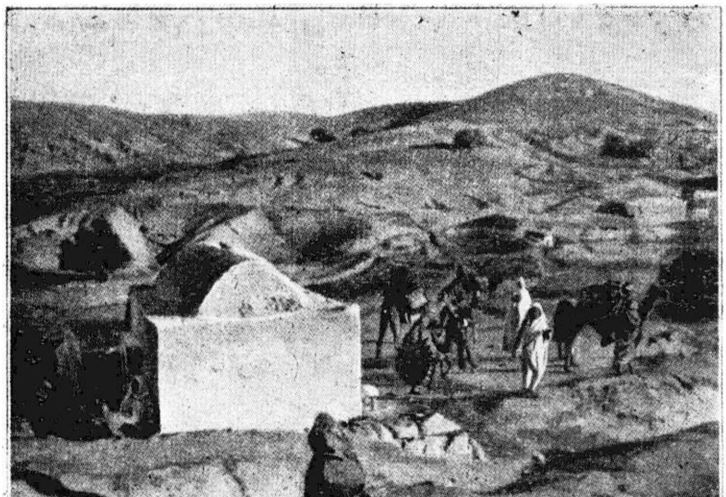
ثم انطلقنا الى وجهتنا ، وحولنا جماهير غفيرة ، إذ ان أصول الضيافة عند الليبيين تقتضي منهم أن يخرجوا خلف ضيفهم لوداعه الى أقصى نقطة ممكنة ، بينما يبذل ضيفهم أثناء ذلك كل ما في وسعه كي يقنعهم بالرجوع الى ديارهم تخفيفاً لتعبهم. وهكذا فإنني لم أتمكن من إقناعهم بالتوقف إلا بعد لأي ورجاء متكرر. ولا تعتقدوا ان المشهد كان مشهداً مصطنعاً ؛ فإن مودعيّ كانوا يفعلون ذلك من أعماق أنفسهم وبشكل صادق ، وليس لمجرد إظهار مودة كاذبة لي ، وهكذا فإنني قد وجدته أنا نفسي أمراً طبيعياً .

والحقيقة أنه مهما بدا لنا العرب أناساً متكلفين في خصالهم وطبائعهم ، إلا أن هذا لا يمنع من أنهم سادة عظام يحتفظون دائماً بمظهر مليء بالأنفة والاستعلاء الطبيعي . وهم لا يلتصقون بنا نحن الغربيين فيظلون بذلك متميزين عنا كجنس آخر تجري في عروقه دماء أخرى غير دمائنا ولهم دين غير ديننا . هـذا ، في حين أن الأتراك ، على العكس منهم ، منفتحو الشخصية ، بسطاء طيبون ، تعلو وجوههم صرامة العسكريين الذين خاضوا حروباً كثيرة . ومع ذلك فإن العرب والأتراك يشتركون في أمر واحـــد ، وهو التودد إلى محدثهم والاهتمام الشديد به .

وقد سبق للنقيب (شكيب بَيْ)، المصاحب لنا ، أن خاض عدة حروب. وهو – كما سبق وذكرت – يعيش منذ عدة سنوات بين طوارق ليبيا في أقاصي الصحراء ، وهو عائد الآن من بلدة (غات) . ولم يعد هذا الضابط التركي ينتعل سوى صندل غدامسي ، كما أنه لم يعد يرتدي سوى خرق بالية ؛ فقد حرقت الشمس كتفيه وأتلفت لباسه . وقد ظل خلال اليومين الأولين اللذين أعقبـــا



جادو – فساطو : رحيل قافلة تموين



منظر عام لبلدة الزنتان وبيوتها الكهفية

انضمامه إلى قافلتنا في (نالوت) صامتاً لا ينبس ببنت شفة ، وكان يتناول طعامه جالساً بعيداً عنا. غير أن تلك الليلة العاصفة التي قضيناها في (وادي غيله) قد قربت بيننا وبينه بعض الشيء ، فنحن الآن أصدقـــاء ، بالرغم من أنه ليس ثرثاراً ، ومع ذلك فإنه قد صار يثق فيَّ ويفضي إلي بدخيلة نفسه إلى درجة أنه أصبح قادراً على سرد تاريخ حياته وانطباعاته عن الصحراء لي بكلمات متعثرة بعضها فرنسي وبعضها عربي أو تركي . وهو لا يعشق سوى الصحراء ، لأنهـا – فيما يقول – « تـُشعر الإنسان براحة البال » . وقد أسرَّ لي بعد أن نشأت الألفة بيني وبينه أنه كان يخشى من الأيام الأولى لصحبته لنا أن أحتقره بسبب من أقدامه شبه الحافية ، ولباسه الرث الممزق ؛ بل وكان يخشى أكثر أن ألتقط له صورة أبعث بها إلى مجلتي لتنشرها كمثل سيء للضابط التركي البائس الحافي . وقد حزَّ في نفسه على الخصوص أنه لم يكن في وسعه أن يوفر لنا خيمة إضافية يدعونا تحتها لتناول وجبة شهية . وعلى أية حـــال فإن فرصة إتحافنا بمثل تلك الوجبة قد سنحت له فعلاً في بلدة (الجوش) عندما اصطاد لنا زملاؤه الأتراك غزالة قام هو بطبخ لحمها وطحالها وإعداد مرقها الحاذق لنا ، كما سبق وذكرت.

وخلافاً لما يشاع عنـدنا عن الأتراك ، فقد بدوا لي أناساً مستقيمين مخلصين وليس في طبعهم أي مكر أو خداع . فعندما كنا في بلدة (نالوت) ، حيث وقـِّعت عقد تأجير الجمال في حضور (شكيب) هذا ، وبالرغم من جفاء مظهره نحونا في تلك اللحظة ، إلا أنه في الحقيقة هو الذي أقنع أصحـــاب تلك الجمال بتأجيرها لي بثمن معقول ، بعدما أصروا هم على كِراء مرتفع جداً . وعندمـا قال له نائب قائم مقام (نالوت) الليبي محتجاً :

– « وما شأنك أنت بهذا ، والأمر يتعلق بتأجير الجمال لشخص أجنبي ؟ » فقد زعل منه (شكيب بيْ) أشد الزعل ، وأصر على تخفيض قيمة الكراء ، بالرغم من أنه قد أبدى بعد ذلك ، وخلال الأيام الأولى للرحلة ، جفوة تجاهنا. والحقيقة أنه في بلاد الشرق قاطبة ، وليس في هذا البلد وحده ، فإنه من النادر

أن تقابل شخصاً يقف الى جانبك في أمر من الأمور ضد بني جلدته ، وخصوصاً لدى الأتراك .

انطلقنا في رحلتنا وسط منطقة شبه خالية ، إذ أن الناس إما انتقلوا إلى الوديان التي هطلت بهـــا الأمطار لحرثها ، أو ذهبوا للجهاد ضد الإيطاليين في منطقة طرابلس . وقلة منهم هي التي مررنا بها تعمل في الحقول المجاورة . وقد بدا هؤلاء في حالة يرثى لهـــا من سوء التغذية والنحافة ، فقد كانت وجوههم شاحبة وأجسامهم لا تعدو أن تكون مجرد هيا كل عظمية متحركة. وقد مررنا بأطفال يلعبون ، فانطلق أحدهم خلفنا حيث أخذ ينقب من روث دوابنا عن حبات الشعير المختلطة بها ، مما يدلل على أن المجاعة تضرب أطنابهـــا بعنف في هذه المنطقة . وقد أخبرني أحد الأطباء مرة أن وباء التيفوس منتشر هنا نتيجة لشرب الناس للمياه الملوثة بالعدوى ، كما أنبأني بأنه قد حدثت كذلك بعض الإصابات بوباء الكوليرا ، كما أن معظم الناس مصابون بالرمد الحبيبي .

وانتظمت الطريق أمامنا بعد (جادو) بمحاذاة الجبال ، وأخذت الطبيعة تفقد شيئاً فشيئاً بعضاً من وحشتها وكآبتها . وبدأنا نمر خـــلال أودية صغيرة متعاقبة ، نامت في أحضانها بساتين التين والزيتون ، وكثر العشب الأخضر الموشى بأزهار النرجس والبنفسج البري .

ثم وصلنا الى بلدة (الزنتان) ، وهي قرية كبيرة يقطن بعض سكانهـــا في الكهوف التي كانت فتحاتها فاغرة بين الصخور ، وكانت لتلك الكهوف شرفات مصطبية تمتد أمام كل واحد منها . وكانت قد شيدت عند مداخل بعضها أعمدة وأقواس حجرية . وأخذنا نمر بين تلك الكهوف المسكونة التي تبعثرت بينها هنا وهناك المزارع وآجام النخيل التي نمت في تربة أرجوانية تخللتها بين آن وآخر أحجار وصخور صفراء في لون الكبريت . وقد أضفت أشعة الشمس الغاربة على هذه المنطقة ، وعلى قافلتنا التي تخترقها ، جواً خيالياً غريباً ذكرني بالجو الذي توحي به زخارف فنّاني الشرق الأقصى .

واستُقبلنا اليوم بالترحاب ، حيث قضينا الليل في مبنى شبيه بالقبر . وهو مبنى مستطيـل يبلغ طوله حوالي ستة أمتار واتساعه ثلاثة أمتار ، وله سقف شبيه بالقبة المستديرة . وكانت توجد بداخل كل طرف من أطراف ذلك المبنى مصطبة تستعمل كسرير للنوم والاضطجاع . أمـا القبة فقد كانت ترتكز على جدران بها نوافذ صغيرة كالثقوب تشابكت بها القضبان الحديدية . وكان السقف المقعّر مدعوماً كذلك بثلاثة أقواس داخلية مرتكزة على عرصـات ملتصقة بالجدران . وتقدم أحدهم فوضع فوق كل مصطبة سجادة حمراء ، ثم أشعـل شمعتين ووضع كلا منهما في إحدى النوافذ . ثم تـلاه آخر يحمل موقداً به نار ووضعه في وسط الحجرة ، فقد كان البرد قارصاً للغاية . ثم تقدم مني أحـد الطرابلسيين كان يلتحف برداء أبيض وتبدو عليه سيماء الكآبة ، كأنه غسّال موتى ، فدعاني بترحاب للدخول ؛ فخيل إليّ أنه يستدرجني الى العالم الآخر ، بحيث أنني ما أن استلقيت على إحدى المصاطب حتى اعتقدت أنني قد تمددت فعلاً فوق فراش الموت !

وبعد ذلك أقبل علينا بعض المجاهدين الليبيين الذين عادوا لتوهم من جبهة القتال ، فأخذوا يروون لي عنها قصصاً رائعة . وقد لاحظت أن الليبيين قوم شجعان وكثيرو التبجّح والمبالغة في آن واحد ، زد على ذلك أن لهم خيـالاً واسعاً ، إذ أنني قد سمعت في تلك الليلة روايات ذكرتني بخرافات وأساطير ألف ليلة وليلة[١] . ومن بينها مثلاً : أن الفرسان الليبيين كانوا يرمون بأنفسهم وبخيولهم في لجّة البحر مفرغين بارود بنادقهم مبـاشرة على سفن الإيطاليين الراسية عند ميناء طرابلس ، أو يجذبونها خلفهم حتى تنغرس مقدماتها في رمال

---

(١) إن الكاتب وهو يتهم الليبيين بالمبالغة والتبجح هنا ، لن يلبث فيغير رأيه فيهم تماماً ، عندما سيشهد مواقفهم البطولية الحقة في (العزيزية) و (الكويفية) وفي ضواحي (درنه) ، ولسوف يدهش لما يتمتعون به من شجاعة تفوق الوصف ، كما سيرد ذكره في الصفحات التالية .

المترجم

الشاطىء فتعجز عن الاقلاع من جديد . ان مثل هذه الروايات المبالغ فيها عن بطولاتهم ستتناولها حتماً أفواه السُّهار المتحلـّقين في المخـيات وفي القرى وفي الأنجع حول مواقد النار ، ولسوف ينظمها الشعراء الشعبيون أشعاراً يتغنى بها المغنون فتتردد أصداؤها في أفريقيا الشمالية برمّتها كرمز لشجاعـة المجاهدين المسلمين .

وفي الصباح واصلنا رحلتنا ، حيث اخترقنا وادياً غطاه الصقيـع وتناثرت فيه أزهار البنفسج والنرجس . وكانت براعم أزهار شجرات اللوز قد تفتحت قبل أوانها ، وكان هنالك بعض الضباب الصباحي . أمـــا السماء فقد كانت تكدرها بعض الغيوم البيضاء ؛ فخيل إليّ أنني أخترق الريف الفرنسي في أحد أيام الربيع ؛ غير انني صحوت من حلمي حين تحققت من ان من كانوا حولي هم من الليبيين ذوي الأنوف الشماء الملتحفين بأرديتهم البيضاء التي ذكرتني بتلك الأردية التي كان يلبسها الناس في العهود الإنجيلية الغابرة . وقد امتطوا جمالهم الغزيرة الوبر حاملين بنادقهم القديمة التي بلغ طول الواحدة منهـا حوالي مترين وقد ُحلـّيت برسومات من الصدف . وبدون انقطاع كنا نلحظ على جـــانبي الطريق أشجار التين والزيتون ، بل وحتى كرمات العنب ؛ فإن هذه الأرض ، إن هي أُحسنت زراعتها ، كفيلة بأن تعطي محاصيل طيبة .

وبعد مضي ساعتين على مغادرتنا لبلدة (الزنتان) ، أخذنا نجتاز منطقة (المنصورة) ، حيث مررنا بآثار رومانية وبقايا قبور قديمة وساحات مبان مهدمة غطت الرمال والأتربة معظمها . كما شاهدت كذلك عموداً مرمرياً محطماً وأحجاراً مخروطة من الجرانيت الصلد .

وفي المساء توقفنا أمام بستان به نخيل وأشجـــار لوز وزيتون ، اختلطت تحتها الزهور المختلفة ، وجرى بجانبها نبع ماء صاف ، فتمنيت ان نقضي الليلة هناك . غير ان قافلة جمالنا التي تركناها خلفنا على بعد مسافة كبيرة منا ، قد

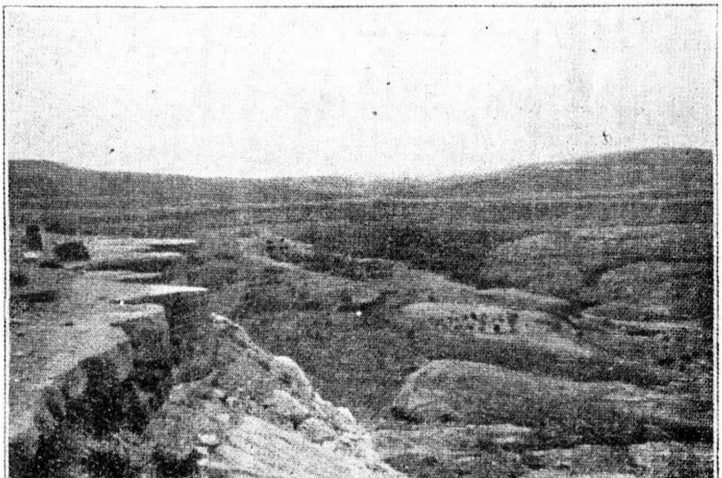
ضلت الطريق . فانتظرنا زهاء الساعتين دون ان تلحق القافلة بنا ، فاضطررنا الى مواصلة سيرنا حيث تطوع طفل صغير ، التقينا به ، بصاحبتنا ليدلنا على الطريق المؤدية الى (يفرن) ، بدلاً من ان نقضي الليل في الخلاء .

كان القمر يبدد الظلمات ، وبدت في الأفق بوادر عاصفة ، وكنا نمضي فوق صهوات جيادنا قابضين على ألجمتها بكل حرص ، فقد كنا نخترق وديانـاً مليئة بالصخور الخطرة، فنحن نتفادى الوقوع بينها. وكان الطفل الليبي ينطلق أمامنا على قدميه ، قافزاً بين الصخور ، وقد تلحّف برداء قديم من الصوف ، فبـدا وهو ينطّ هنا وهناك ، وقد شد الرداء حول جسمه ، كدُمية ذات سيقان طويلة . وقد لاحظت ان لليبيين تفنّناً في مشيتهم يعجز الناس عندنا عن مثله ، خصوصاً ان كانوا حفاة الأقدام . وعثر جوادي فجأة فوقعتُ على الأرض . كما وقع الطفل هو الآخر ثلاث او أربع مرات ، برغم براعة أرجـله في القفز ، وخشيت ان تجرحه الصخور الناتئة في جنبيه . وكنا نمر عن بعد على المزيد من القرى التي لا يختلف لون مبانيها عن لون الصخور الداكنة ، ولذا فإننا لم نكن نتبينها إلا بعد سماع نباح كلابها . وواصلنا رحلتنا بين مطبات الصخور ، حيث كنا نلمح من آن لآخر لمعان البرق في الأفق الذي أخذ ينذر بالعاصفـة ، وكان الطفل يؤكد لنا ان ما نراه ليس برقاً بل هو لهيب قذائف الايطاليين المنصبة على مدينة (زوارة) . لكن الطفل كان مخطئاً ، فإن اللمعان الذي كنا نراه في الأفق لم يكن يصدر من جهة (زوارة) .

وأخيراً ، وعندما كانت الساعة حوالى العاشرة ليلاً ، لمحنا جدران مدينة ، وشاهدنا أمام أحد البيوت عساكر الشرطة التركية واقفين . ولحسن الحظ فإن قافلة جمالنا كانت قد سبقتنا الى هناك قادمة عبر طريق آخر . وسرعان مـا أقبل نحونا آمر الحامية التركية المقدم (يوسف جمال) ، فرحب بي باللغـة الفرنسية التي بدا لي انه يتقنها اتقاناً تاماً ، وأصدر أوامره بأن تُعد لنا حجرة مناسبة ، أقمت فيها سريري الخشبي . ثم دُعينا ، بعد تلك الرحلة الشاقة التي



مسجد « يفرن » وثكنة جنودها



يفرن : وادي الرومية

واصلنا السفر أثناءها خلال اثنتي عشرة ساعة متواصلة ، الى تناول طعام العشاء المكون من مرق على الطريقة التركية ومن طبيخ لحم الخراف .

۲۸ يناير ۱۹۱۲

ألقينا رحالنا ببلدة (يفرن) ، حيث انتهزت الفرصة للتجول بصحبة المقدم (يوسف جمال) في القرى المجاورة التي بدت بين أشجار الزيتون العتيدة كأنها معلقة على قمم الجبال . ثم واصلنا جولتنا حتى (وادي الرومية) الذي سبق لنـــا وعبرناه في الليلة الماضية . وهو واد منحدر يبلغ طوله حوالي ثلاثــة كيلومترات ، واتساعه حوالي كيلومتر ونصف ، ويتراوح عمقه ما بين ثلاثمائة وأربعمائة متر . وتتوسطه آثار ساحة ومدرج روماني رصفت أرضيته بمدرجات متتالية ، نمت فوقها الأعشاب أحياناً وتخللتها أشجار الزيتون ، فغطت هنـــا وهناك أرضيتها الكبريتية اللون ذات التصدعات الكثيرة .

وتطل ساحة المدرج الروماني تلك، من جهتها الشمالية، على سهل (بوغيلان) الخصيب الذي يمد مدينة طرابلس بما تحتاجه من الغلال والحبوب ، والذي يمتد حتى ساحل البحر .

وقد أخبرني المقدم (يوسف جمال) أنه كان موجوداً بمدينة طرابلس حينما تعرضت لأول قصف بحري ايطالي ، فقال :

— « لقد ظل وضع الأتراك صعباً للغاية مدة أسبوعين ؛ فالليبيون كانوا يتهموننا بأننا قد بعنـــا طرابلس الغرب للايطاليين ، وكانوا يرفضون الوقوف بجانبنا او تزويدنا بالمؤن والجمال . ولكن ما ان نجح الضباط العثمانيون في تنظيم أولى المناوشات مع العدو الايطالي حتى تغير رأي الليبيين فينا وأدركوا أننا لم نخن قضيتهم . وأسرع الزعيم الليبي (سليمان الباروني) وبعض رجال الدين الى

جمع المجاهدين ، والى الدعوة الى المقاومة والجهاد ضد العدو المغتصب . فما لبثت مدينة طرابلس ان حققت عـــدداً من الانتصارات الحربية التي شلت قدرة الايطاليين على الحركة ، فلم يتمكنوا من توسيع رقعة تقدمهم خـارج حدود المدينة . بل وتمكن الأتراك من إقامة مراكزهم المتقدمة داخل مدينة طرابلس نفسها ؛ في حين اختيرت منطقة (سوق الجمعة) ، التي تبعد عن المدينة مسافة أربعة كيلومترات ، مركزاً لقيادة الجيش . وظللنا نقاوم دون ان نتزحزح عن مواقعنا طيلة أربعين يوماً . لكننا اضطررنا في النهاية الى التقهقر الى بـــلدة (العزيزية) نتيجة لحصول عدونا عن طريق الامدادات البحرية على المزيد من العتاد والرجال ، حيث خشينا من ان يتجه الى ضرب الحصار حول مواقعنا . بيد ان التحالف بين الليبيين والأتراك كان قد أصبح أمراً مفروغـــاً منه . ثم اجتاحت حمأة الدفاع عن الديار في هذه الحرب المقدسة كل الناس ، حتى قبائل البادية البعيدة التي انضمت الينا من كل فج بعيد ، قادمة من الجبـــال ومن السهول ؛ ومن أقاصي فزان ، بل وحتى من السودان . هذا في حين ان الايطاليين الغزاة كانوا قد أعدوا لكل شيء عدته كي يتمكنوا من الانتهاء من فعلتهم الغادرة في أقصر وقت ممكن . وكان للايطاليين في مدينة طرابلس اثنا عشر من الأعوان والجواسيس والخونة هم[١]: (حسونه باشا...)، (أمين...)،

١ القرمانلي

(١) في الواقع ان الالتزام بالأمانة الكاملة في الترجمة ، وواجب ذكر الحقائق التاريخية كما هي ، تحتم عليّ ان أنقل للقارىء العربي هنا أسماء هؤلاء الخونة كاملة للعفة وللتاريخ ، فالتشهير بالخائن أمر مستحب . لكنني بالنظر الى ان المؤلف أجنبي عابر لا يعرف أهل البلد ولا يتقن لغتهم ؛ وبالنظر الى ان المقدم (يوسف جمال) ، الذي ينقل روايته بنصها هنا ، ضابط تركي وليس ليبياً ، ومن ثم فإنه ربما يرمي الى تشويه أسماء بعض العائلات الليبية باتهام أفراد منهـــا بالخيانة لأمر في نفسه ، والله أعلم . فإنني قد رأيت أنه من الخير الاكتفاء بذكر أسماء هؤلاء الخونة دون ذكر ألقاب عائلاتهم كما وردت ، مستعيضاً عنها في كل حالة بثلاثة نقط . فإنه في ذكر أسماء هـــذه العائلات ، التي ما يزال أكثرها معروفاً حتى يومنـــا هذا ، تشهير مقيت بسمعتها لا موجب له اليوم . فجرم الخيانة تجاه الوطن يقع على الأفراد الذين خانوا وحدهم ولا تجر وراءهم في الذنب عائلاتهم . المترجم

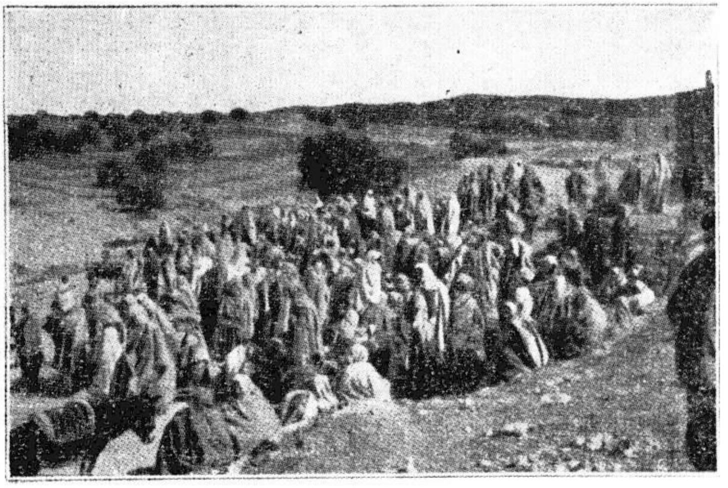
(محمد ...) ، وهؤلاء كلهم من رجال الدين ؛ و (عبد الرحمن ...) ، و (أحمد بي ...) ، والذي كان موجوداً في روما عندما بدأ قصف المدينة ، و(عمر...) ، و(الشريف ...) ، و (السوداني ...) ، و (الشريف ...) الذي كان في رفقة البعثة العلمية الايطالية التي كانت تنقب عن الآثار في فزان ، و (أحمد ...) ، و (أديب ...) ، و (محمود ...) ، و (يوسف ...) .

« كل هؤلاء كانوا قد قبضوا أموالاً طائلة نظير تعاونهم وبثهم للدعايات ضد الأتراك . ولقد أبدى القنصل الإيطالي (بيستالوتزا) نشاطاً لا يكل ولا يفتر؛ فقد سهّل لعديد من الضباط السريين الإيطاليين ولعدد من البعثات العلمية المريبة الدخول والتوغل إلى أقاصي ليبيا للتجسس على أحوالها وإعداد خرائط حربية لها ، وتوزيع النقود على من يبدي استعداده للتعاون معهم من ذوي النفوس الخسيسة . زد على هذا وذاك أن الوضع في أوربا عموماً ، وفي تركيا على وجه الخصوص ، كان مشجعاً لإيطاليا على القيام بهذا الغزو . يضاف إلى ذلك أن أحوال الطرابلسيين كانت سيئة ، والمجاعات تتوالى على بلادهم . ولذا فإن الجميع ، حتى الأتراك والليبيون أنفسهم ، كانوا مدركين في البداية أن مقاومة المعتدي شبه مستحيلة من الناحيه المادية » .

ثم أضاف المقدم (يوسف جمال) يقول :

— « زد على ذلك أن الجيش والأسطول الإيطاليين كانا في حالة مثلى من التنظيم والإعداد » .

فكيف إذن تمت معجزة المقاومة وسط جميع هذه العقبات ، واعتماداً على القليل من العدد والعتاد ؟ .. وكيف نجحت هذه المقاومة منذ البداية من تحقيق بعض الانتصارات ، بحيث ما لبثت أن أصبحت خطراً هائلاً ما زال يتهدد الإيطاليين ؟.. هذا هو ما لا يكاد يصدقه حتى المجاهدون أنفسهم ، محققو هذه الانتصارات ، وهذا هو ما سأحاول أن أبحث له عن تفسير في رحلتي هذه عبر ليبيا .



يفرن : سوق الأحد



أعيان يفرن

ولأعدْ الى الحديث عن بلدة (يفرن) وأهلها ، الذين قيل لي أن أسلافهم القدماء قد جاءوا أصلاً من سوريا أيام الفتح الإسلامي لليبيا . وهم ينتمون إلى قبائل عرفت بالشجاعة واتقان فنون الحرب ، واشتُهر عنهم أنهم قد تصدوا ببسالة لمقاومة السلطات التركية عندما عُين (مراد آغا) في سنة ١٨٢٦ والياً على طرابلس الغرب ؛ الأمر الذي اضطر الأتراك إلى قتالهم مدة ثلاث سنوات كاملة ، قبل أن يتمكنوا من إخضاعهم .

ويعود الفضل في حسم النزاعات التي كانت قائمة بين تلك القبائل وتوجيه طاقات رجالها لمقاومة الإيطاليين ، إلى مجهودات الزعيم (سليمان الباروني) ، نائب الجبل وزعيم طائفة النفوسيين .

ومدينة (يفرن) هي مركز لسنجق يضم : (ككله) و (خوديس) و (نالوت) و (غدامس) و (فساطو) وقد ضمت إليها مؤخراً كل من (زواره) و (الجوش) . وحاكمها الحالي هو السيد (موسى قراده بَي) ، الذي تلعب عائلته في هذه المنطقة دوراً كبيراً منذ أجيال طويلة . ويصل تعداد سكان هذا السنجق إلى حوالي ستين ألف نسمة ينتمون إلى طائفتي أهل السنة والخوارج النفوسيين ، وهما طائفتان معروفتان حتى في بقية شمال إفريقيا .

دروب جبل نفّوسه وأنجعه

غريان في ٢ فبراير ١٩١٢

ودعنا الضباط الأتراك والأعيان الليبيون حتى خارج مدينة (يفرن) حوالي الساعة الثانية بعد ظهر التاسع والعشرين من يناير . واستمر ترحالنا طيلة أربع ساعات كنا نخترق خلالها مناطق امتلأت بشجيرات الزيتون التي كانت تظلل حقولاً من الشعير بدا وكأنه سجادة من الخضرة اللامتناهية . ثم لحنا من خلال فتحة أحد الوديان قرية بدت وكأنها معلقة على سفح جبل في قبالة هاوية شديدة الانحدار ، كما مررنا بعدد من القرى الأخرى القائمة على قمم الجبال ، وكانت جميعها خالية تقريباً من سكانها : فالرجال القادرون على حمل السلاح قد غادروها الى جبهة القتال ، ولم يبق بها سوى النسوة وبعض الشيوخ والأطفال .

إن الجمال الذي يكسو هذه الطبيعة ، كلما منّ الله عليها بالمطر ، لكفيل بإلهام قرائح الشعراء ؛ وأعتقد أنها لو لم تُمتحن بخمس سنوات عجاف تتالى عليها فيها القحط والجفاف ، لحقّ لي أن أشبه أهلها ، وأنا أمر بهم اليوم بأولئك الرعاة الذين حدثنا عنهم الشاعر اللاتيني (ڤرجيل) في ملحمته الشهيرة المسماة « أغاني الرعاة » ! .. فلقد كنت أسأل كل من نلاقيه في طريقنا منهم :

— « هل لديك شيء نبتاعه منك : شعير لخيولي ، أو لحم أو خبز أو خضروات لنا ؟ » .

وكانت الإجابة التقليدية دائماً :

— « لا شيء ! لا شيء ! » .

فالحرب والمجاعات قد أتت على كل شيء .

وتوقفنا في منطقة (القصبات) ، حيث أقمت خيمتي وسط بضعة مساكن مهجورة ، ولج إلى داخلها النقيب التركي (شكيب بي) الذي مـا يزال في رفقتنا ، فقررنا أن نقضي ليلتنا فيها . وكان المسكن الذي اختاره شبيهاً بالعرين ، لا يستطيع المرء الدخول إليه إلا زاحفاً على يديه وركبتيه . ففرشنا أرضيته ببعض الأبسطة وجلود الغزلان ووسائد الجلد المجلوبة من (غدامس) و (غات) ، ثم أشعل رفقائي ناراً وطفقوا يُعدّون الشاي . وهكذا فقد تحول ذلك المسكن الشبيه بالكهف او بجحر حيوان متوحش ، فجأة ، إلى مأوى مريح ودافىء ، ومليىء بالحركة ، يشعر المرء داخله أنه قد صـار في مأمن من الرياح العاتية والبرد القارص اللذين يتعرض لهما كل من قرر البقاء في العراء في تلك الليلة . .

وكنا نجلس القرفصاء ، حانين ظهورنا تحت صخرة ناتئة في سقف الكهف ، وضعت فوقها سروج مهوزنا (الطوارقية) فبدت مماسكها الصلبانية الشكل ، بقرابيسها المقوسة كأنعش قدّيسين ، خيّل إليّ أننا كنا راكعين تحتهـا على ذلك النحو .

وتقدم (شكيب بي) فأعد لنا كعادته طبيخاً مفلفلاً يحرق مذاقه الشفـاه واللسان والحلقوم والأمعاء ، وهو الطبيخ الذي يدفع عليه آكلهُ الضريبة مرتين : مرة عند اكله ومرة عند التخلص من فضلاته في المرحاض ! .. وعندما لاحظ (شكيب بي) ، صانع ذلك الطبيخ ، مدى ما كنت أُقاسيه وأنا اتناوله ، قال لي :

— « يقول المثل الليبي : اسأل مُجرّب ولا تسأل طبيب ، فصدّقني أن الفلفل في هذا البلد يعد الدواء الشافي لكل الأمراض ! » .

فتذكرت ما قاله (فينيلون)[1] في كتابه « تربية الفتيات » بصدد هـذا الصنف من الطعام المفلفل الحاذق، ومدى ما يتأتى عنه، في رأي ذلك الكاتب، من أخطار وأضرار ، خصوصاً بالنسبة للفتيات العذارى ، حيث يهيج شهوتهن الجنسية مما قد يتسبب في زلل أقدامهن الى الخطيئة ونحو ما لا يستحب لأمثالهن من الفضيلة والعفة . ولكن حيث أن بلدة (القصبات) خالية الآن من اهلها ، فلا أثر إذن هنا لعذراوات محصنات يكون تذوق هذا الطبيخ خطراً على عفتهن ، إذ أنني لم ألمح في هذه البقعة الخالية أثراً لأنثى ، اللهم إلا تلك العجوز الطاعنة في السن التي أكاد اسمع وقع خطاها .. وأعني بهـا الحرب ! ولقد أعجبتُ بالنقيب (شكيب بي) ، وهو غارق في إعداد طبيخه ؛ فهو يقوم مرة بتحريك مغرفة في القِدْر ، واخرى بإضرام النار تحته نافخاً لهبها بفمه .. وهو يفعل كل ذلك بتفنن لا يضاهيه فيه احد من الحاضرين .

وكان الجمّالان المرافقان لنا في حركة دائبة : يدخلان الكهف ثم يخرجان منه ، ثم يدخلانه من جديد ، ويجلسان القرفصاء، وهكذا، وبرنساهما الابيضان ناتئان فوق رأسيهما ، في حين امتزجت وجوههم السوداء بظلمة الكهف فلم يعد يلمع منها سوى عيونهم المتحركة ببطء . اما ايديهم فلا تُرى إلا لأن لهب النار يلمع بين اصابعها المتباعدة . اما اثوابهم فإنها مسدلة فوق ركبهم ، مما ذكرني بتمثال (الكاتب) الفرعوني الجالس القرفصاء . وكانا يرفعان ثيابهم احياناً كي تمر من تحتها لفحة من حرارة النار ، ثم يسدلانها بإحكام من جديد حتى لا يتبدّد ما بها من هواء ساخن . وما ان انتهوا من الأكل وشرب الشاي حتى

---

(١) فينيلون هو أسقف وكاتب فرنسي (ولد سنة ١٦٥١ وتوفي سنة ١٧١٥) . وقد اشتهر على الخصوص بمؤلفه البيداغوجي (تربية الفتيات) . وله مؤلفات أخرى ، من بينها « مسامرات الموتى » و « مغامرات تيليماك » ، وهو الكتاب الذي تضمن نقداً غير مباشر ضد لويس الرابع عشر ، فغضب هذا منه ثم تبنّت الكنيسة المسيحية فخلعته من منصبه كرئيس أساقفة . وكانت كتاباته إرهاصاً بتفتح القرن ١٨ الفكري . المترجم

طفقوا يتحدثون : انهم ينتمون الى قبيلة من قبائل (الطوارق) القـاطنة في أقصى الجنوب الجزائري ، وهي القبيلة التي اتهمت باغتيال الكولونيل الفرنسي (پول فلاتير) في سنة ١٨٨١ ، عندما كان يمر بمنطقتهم اثناء رحلته الاستكشافية الثانية عبر افريقيا ، حيث ارادت السلطات الفرنسية في الجزائر ان تقتص من تلك القبيلة ، فاضطرت هذه الى الهجرة الى طرابلس الغرب حيث استوطنت من ثم قرب (غات) . وكان حديث هؤلاء الجمَّالين (الطوارق) يدور في تلك الجلسة حول ما قاموا به من رحلات سابقة ، وكيف كانوا يعبرون دائماً طرقاً ودروباً وعرة كتلك التي سلكناها اليوم، حيث تتعرض جمالهم للتعب والارهاق ويتعرضون هم للـبرد الشديد . وكان اسم (جبال تاسيلي) يتردد في حديثهم باستمرار ، قائلين بسذاجة :

— « إن تلك الجبال لا بد وأن تكون في الأصل صخوراً عصت طاعة الله ، إذ لا يتصور ان تكون من خلقه ، بل من خلق الجن والعفاريت » .

وقد ذكـَّرتهم بأن القرآن ، على العكس من ذلك ، يوجه نظر النـاس الى أمثال تلك الجبال الرواسي والى الإبل لكي يتأملوها كدليل طبيعي على خلق الله للعالم[1] . فلم يجدوا ما يردون به عليَّ .

وكانت نارنا الموقدة أمام الكهف قد عكست ضوءها في تلك اللحظة على شبح أحد جمالنا الراقدة في العراء ، فأمعنت النظر اليه متمدداً كالثعبان الهائل الذي له رأس امرأة عجوز ، وقـد اكتست نظرته الحزينة مسحة من التسليم بإرادة الله الذي كتب عليه أن يقضي حياته هائماً في الصحراء ؛ فآمنت حقاً بأن ذلك الحيوان إنما هو آية تجسد عظمة الله الخالقة . ثم تقدمت فمررت بذلك

---

(١) لعل المؤلف يلمّح الى الآيات الكريمة التالية في سورة الغاشية ، وهي : « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبـال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت ، فذكـّر إنما أنت مذكر .. » — صدق الله العظيم . المترجم

الجمل بعد انتهاء سمرنا ، فخيل إلي أنه قد شم رائحتي وعرف أنني « كافر » إذ أنه نخر بشفره في اتجاهي بشدة تعبيراً عن تقززه مني.،

ولست أدري ما إذا كانت هذه الأحداث وهذه الخواطر التي أرويهـــا ، وهذه الأوصاف التي أتناول بها ما يدور حولي ستسلـّي قرائي . إذ ان الكتب الغربية التي تناولت الشرق مليئة كلها بأمثال هذه الطرائف التي أرويها ، ولربما يكون في تكراري لها ما يبعث الضجر في نفوس البعض ؛ ومع ذلك فإنني ، وأنا أحررهـــا ، تبدو لي وقد احتوت على تشويق وجدّة خالدتين . إذ ان بها نفحة من شاعرية الصحراء التي حدثني عنها (شكيب بي) الذي أمضى في الصحراء اثنتي عشرة سنة . وبالرغم من أنني لا أتفاهم معه إلا بصعوبة، حيث نستعين في تخاطبنا بكلمات مبعثرة ، وغالباً بالاشارات ؛ إلا أنني قـد كنت أفهم من أحاديثه ، على الأقل ، أنه قد تشرّب حب الصحراء في أعمـــاقه . وتذكرت مطالعاتي الكثيرة في الأدب وفي الشعر العربيين ، خصوصاً مطالعتي للمعلـّقات السبع ، المليئة بالصور البيانية والتشبيهات الرائعـة عن الصحراء . وتذكرت أيضـــاً تلك التأملات الأخلاقية والعاطفية التي استلهمها الشعراء الفارسيون وهم يسرحون الطرف في الطبيعة الصحراوية العارية التي تملأ النفس بتأملات باطنية عميقة ، وتجعل الروح تحلـّق هائمة في حلم صوفي فتفعمها بضرب من الرضى والحبور النفسي الذي يعجز الغربيون بطبيعتهم عادة عن التلذذ به او الاستغراق في التأملات التي يولدها في نفس الشرقي . وبلاد الشرق لا تسحر النفس فحسب ، بل وتسحر النظر والسمع أيضاً . إذ ان للزخارف الهندسية الجميلة التي تحلي خيام البـادية سحرها الخاص ، وأغاني البدو الجافة جفاف صحرائهم لها وقعها المتميز .

ما ان يتجاوز المسافر بلدة (القصبات) حتى يلحظ اختفاء أشجـــار الزيتون ، وتتحول الأرض الى سلسلة من المرتفعات والهضاب العارية إلا من الصخور التي ينمو بينها نبات (الدّيس) الذي تتغذى عليه الجمال ، ونبـات

(الزعتر) الذي يحبه حصاني. وطفقت أثناء ترحالنا أتجاذب أطراف الحديث مع مرشد قافلتنا المدعو (عمر) ؛ فسألته عمـا إذا كان على استعداد لمرافقتي والعمل في خدمتي حتى بعد ان نصل الى بلدة (العزيزية) ؟ فقال لي بأنه يتمنى ذلك ، ولكن والده الذي ينتظره هناك يريد ان يعود به الى (نالوت) . وقال له ترجماني (العلمي عليش) متفكهاً :

— « اسمع يا عمر !.. إن أنت قبلت مواصلة العمل في خدمتنا فإننا عندمـا ننتهي من مهمتنا في ليبيا سنعود بك إلى مدينة تونس . وسوف نشتري لك بدلة إفرنجية وطاقية حمراء محلاة بـ« شنوارة » حرير جميلة. وستتخلص من ملابسك الرثة التي لا تكاد تستر عورتك ، وسوف لن تعود نحيفاً مثلما أنت الآن ، إذ ستتناول باستمرار طعام (الكسكسي) و (البـــازين) و (الشكشوكه) التونسية ، وغيرها من الأكلات الدسمة حتى يُطلق عليك اسم (عمر أبو كرش) ، من شدة البدانة وكبر البطن ! » .

فأعجبه هذا الكلام كثيراً وطفق يضحك ، ثم رد قائلاً :

— « ولكن ما الذي سيقوله عني الناس في قبيلتي ، عندما أعود إليهم ، وقد أصبحت بملابسي الغريبة كالقرد ! » .

فرد عليه المترجم قائلاً :

— « إذن أنت تعتبرنا بلباسنا الإفرنجي كالقرود في نظرك ؟ »

فأجاب :

« طبعاً ! » .

وذكرتني هذه الحادثة بقصة الفتاة البدوية التي زوّجُوها للسلطان (هارون الرشيد) ، فكانت تتباكى على أيامهـا الغابرة ، عندما كانت تعيش تحت خيمة سوداء ، وتردد كلما انفردت بنفسها كلمات أغنية تقول إن فارساً بدوياً نحيفاً

ورشيقاً خير من سلطان بدين ، وأن أكل خبز الشعير من نجعها لألذُّ طعماً من ولائم قصر السلطان ، وأنها تفضل على موسيقى جوقات بغداد ومطربيها نباح كلب صغير يصدح بنباحه تحت ضوء القمر لطرد اللصوص . فأشفق السلطان على حالها في النهاية وأخلى سبيلها ، فعادت إلى نجـــع أهلها في الصحراء كما كانت تتمنى[1] .

وكنا ونحن نمر ببعض الوديان نلمح بعض الزهور التي بدأت تنمو في قيعانها ، وكان حادي قافلتنا يتغنى في إحدى أهازيجه بالربيع ، في حين كان أحد الأتراك المرافقين لنا يردد من جانبه كلمات إحدى أناشيد جماعة تركيا الفتاة قائلاً بتنغيم : « تحيا الحرية .. تحيا المساواة .. تحيا الأخوة ! » .

والتقينا في طريقنا بقافلة من مائتين وخمسين جملاً ، استولت عليها شرطة (غريان) وساقتها في اتجاه (يفرن) لاستجلاب الشعير والدقيق الى (غريان) . وكان يسوقها جماعة من الليبيين المسلحين ببنادق طويلة ، ألقوا إلينا التحية ثم مضوا في سبيلهم .

ثم مررنا بشجرة بطُّوم نمت في سفح الجبـــل وحيدة بين الصخور وقد انسدلت فروعها وأغصانها على قبر أحـــد المرابطين الذي نصبت فوقه بعض الأعلام والرايات . وسألت مرافقيَّ عن هذا الولي الصالح الذي دفن هنــــاك بعيداً عن كل عمران ؟.. قائلاً في نفسي من هو يا تُرى ذلك الـ « شاتوبريان »[2] الطرابلسي الذي خطرت له فكرة إقـامة هذا الضريح وسط الصحراء المقفرة .

---

(١) إشارة الى ميسون الكلبية ، أم يزيد ، زوج معاوية بن أبي سفيان . والمؤلف يخلط ذلك بهارون الرشيد ، وأبياتها معروفة .

(٢) فرانسوا رينيه شاتوبريان : (ولد سنـــة ١٧٦٨ وتوفي سنة ١٨٤٨) كاتب فرنسي شهير وسياسي ، عمل كسفير لفرنسا في لندن ثم كوزير للخارجية ما بين سنتي ١٨٢٢ و١٨٢٤. له إنتاج أدبي غزير ، وأشهر كتبه مذكرات حياته التي أسماها : « مذكرات ما وراء القبر » .

المترجم

وردوا عليّ قائلين : « إنه بني آدم ، وحين يموت البني آدم فإننا ندفنه في البقعة التي مات بها». وبدا عليهم أنهم يتساءلون في دخيلة أنفسهم متعجبين من استفهامي ولسان حالهم يقول : وما شأن هذا «الرومي» الغبي بمعرفة اسم أحد المرابطين !

ولحقت بنا في طريقنا امرأة طاعنة في السن ترتدي ثيابـــاً حمراء مهلهلة وتحمل فوق ظهرها كل ما تمتلكه من متاع الدنيا ، ويبدو أنهـــا قررت اللحاق بقافلتنا خوفاً من السفر وحدها عبر تلك الأقفار . وظلت تسير خلفنا بـأقدام حافية مدة عشر ساعات دون أن تتناول شيئاً . وحين توقفنا للراحـة استلقت على الأرض بجانب عفشها . ومـا أن استأنفنا سفرنا حتى نهضت وظلت تعدو وراءنا. وقد تفضلنا عليها بعد ذلك ببعض الأكل رغم قلّته لدينا .

وعندما أقبل المساء توقفنا لقضاء الليل ، حيث بدت في الأفق بوادر عاصفة مقبلة . وعنـد منتصف الليـل اشتد هبوب الرياح التي كادت أن تقتلع خيمتي . ثم أخذت الأمطار تهطل ، وأخذ رفاقي يرتعشون من شدة البرد الذي جعل أسنانهم تطقطق . وفي اليوم التالي ، ٣١ يناير ، لم نتمكن من الرحيل إلا حوالي الساعة العاشرة صباحاً ، حيث رثيت لحال العجوز المتعبة فأذنت لها بالصعود فوق ظهر أحد جمالي .

وكان البرد قارصاً يوم الأول من فبراير . ومررنا بجانب آثار قصور مهدمة قيل لي إنها تسمى قصور (سبيعة) وقصور (عمر) . وشيئاً فشيئاً أخذت الوديان تبدو أمامنا خضراء مليئة بأشجار الزيتون الضخمة وبالزرع ، فذكرني ذلك بمنظر بعض الأرياف الأوروبيـــة . وظلت الرياح تعصف فبدت الأشجار محدودبة .

ثم أخذنا نخترق منطقة بها عـــدة قرى كانت مبانيها من الكهوف التي نما فوقها العشب . وهي كهوف فغرت فوهاتهـا في الأرض ، والتي يمكن لمن ينظر خلال فتحاتها أن يرى حجراتهـا التي تشبه الآبار العميقة ذات الجدران الدائرية أو المربعة المفضية إلى ساحـــة تطل عليها فتحات عدد من تلك المساكن

الكهفية . ولكل منها من الخارج باب كبير مرتكز على قنطرتين ويفضي إلى ممر مقدس يوصل بين الحجرات والمخازن والاصطبل الخـــاص بالبهائم . وشاهدنا بعض الجمـال تجتاز فتحات تلك الكهوف إلى الخـارج كأن الأرض تنشق عنها .

وهكذا فإن القادم إلى (غريان) التي يبلغ تعداد سكانها حوالي عشرين ألف نسمة ، لا يرى عن بعد أية منازل ، فيما عـدا بضعة أكواخ مبعثرة حول سوق المدينة وقصرها العالي المطل على ذلك المشهد الكئيب . وفيما عـدا ذلك لم أشهد سوى الرمال وصفائح الصخور المسطحة التي امتـدت على شبه أمواج متحجرة لامتناهية . وكانت الجبال السوداء تلقي بظلالها عليها ، والرياح تكسوها بحبات الحصى الدقيقة وبالرمال والغبار الذي عفّر الجو وملأ السماء والمشهد كله بلون أصفر كلون الكبريت .

الفصل الثالث

غريـــان

استقبلني عند وصولي إلى (غريان) المقدم (فتحي بَيْ) الذي كان في السابق يشغل منصب الملحق العسكري للسفارة العثمانية في باريس، والذي برهن، منذ بداية هذه الحرب، على ما يتمتع به من دور تنظيمي حربي ومن شجاعة في الجهاد . وقد أحاطني برعايته وضيافته، كما يفعل الصديق الودود، إلى درجة خُيل إليَّ معها أنني قد استغلَّيت تلك الصداقة أكثر مما يجب .

والحقيقة أن الضباط الأتراك كانوا يقابلونني بمثل هذا الترحاب والاستقبال الحسن منذ أن وطئت قدمي أرض طرابلس الغرب . ولكن كان هنا لضيافتهم في (غريان) طابع خاص .

وفي المساء جلسنا، بعد تناول طعـــام العشاء، نتذوق الحلويات وصنوف « الملبَّس » التي كان قد حمَّلني إياها إليه أصدقاؤه الذين كنت قد اجتمعت بهم في القسطنطينية قبـل مجيئي إلى ليبيا . واستغرقنا الحديث وسرد الذكريات والتدخين، فنسيت تماماً أننـــا كنا نتسامر في تلك الليلة في قصر (غريان) الموحش. فخُيل إلي أن (فتحي بَيْ) قد دعاني في مسكنه بباريس، كعادته، أيام أن كان ملحقاً عسكرياً لبلاده بها . لكنني عندما حانت ساعة ذهابي إلى الحجرة التي سأنام بها، والتي تشبه الزنزانة، وعبرت ساحة القصر إليهـــا — وكنت ما أزال مستغرقاً في وهمي بأنني في باريس — دهشت وأنا أتخطى عتبة الباب لأنني لم أجد نفسي في أحد شوارع باريس الواسعة ؛ إذ أنه بدلاً من أن تستقبلني أضواؤها وصخب سياراتها وعرباتهـــا، استقبلتني الرياح التي كانت تكنس ساحة القصر بعنف وتهز جدرانه المتداعية .

ولقد سبق لي وذكرت أن قافلتنـــا قد عُهد إليها منذ دخولنـــا إلى الحدود

الليبية بنقل حملين ضخمين يحويان ملابسَ ومؤناً مرسلة الى الأسرى الإيطاليين في مدينة (غريان) . وكان العقيد (نشأت بَيْ) ، القائد العام للقوات العثمانية في طرابلس الغرب ، والذي اشتهر بشجاعته وطيبته المتناهية ، قد أصدر الأوامر بنفسه بأن تصل تلك الطرود إلى الأسرى الإيطاليين سالمة ، كما أمر أيضاً بتأجير جمل على نفقة الحكومة التركية لنقلها إليهم. وكان الملازم الفرنسي (بوڤيه) ، رئيس نقطة حدود (ذهيبة) التونسية قد تكلف من جانبه بتأمين إدخال تلك الطرود من تونس الى أول نقطة حدود طرابلسية . وعلى ذكر الملازم (بوڤيه) ومعاونه (پيليه) ، فإنه لا يسعني إلا أن أعبر لهما عن بالغ امتناني واعترافي لهما بالجميل لما تجشماه من متاعب في تدبير إمدادي في رحلتي هذه بالمؤن وإيصال ما يرد إليَّ من مراسلات وأنا داخل ليبيا . وكان النقيب التركي (شكيب بي) الذي سيظل في رفقتي حتى بلدة (العزيزية) ، هو الذي أجَّر الجمل الذي يحمل طرود الأسرى ، وهو الجمل الذي أطلقنا عليه أثناء رحلتنا اسم « جمل الطليان » ، وها نحن قد أوصلنا ذلك الجمل الى (غريان) .

وهكذا فقد كنا كأصحاب البريد نحمل معنا تلك الهدايا مخترقين بها دروب الجبال الوعرة متحملين هبوب الرياح والمطر التي كانت تكتسحنا كلما صعدنا الجبال والمرتفعات، وحرارة الشمس المحرقة التي كانت تنالنا كلما اخترقنا عراءً صحراوياً . ولذا فإن القمصان والفانلات وعلب الشكلاته والسجائر التي أرسلت معنا قد وصلت إلى (غريان) سالمة . فأثلج صدري أن أسهم في هذا العمل من أجل أسرى حرب .

وحين ذهبت بعد ذلك لمقابلة أولئك الأسرى الإيطاليين ، سُمح لي بالتحدث معهم بالإيطالية بكل حرية ، فكان أول أسئلتي إليهم :

ـ « هل تعامَلون معاملة حسنة ؟ » .

فردوا قائلين :



المقدّم فتحي بك رئيس أركان الجيش
يتنزه في صحبة بعض أعيان غريان



غريان : ساحة قصرها التركي

– « نعم .. بل إن الأطباء هنا مستمرون في علاجنا بكل همة وإخلاص . وبالرغم من أننـــا حين وقعنا في الأسر خفنا خوفاً شديداً ، ولكن الضباط والأطباء الأتراك ، بل وحتى الليبيين أنفسهم ، عاملونا منذ البداية معـــاملة حسنة وإنسانية وبشهامة نادرة » .

والقراء يعرفون أن العقيد (نشأت بَيْ) ، الذي يعرف مدى استبسال البادية الليبيون في القتال ، كان قد وعد كل من يأتي إليه بأسير إيطالي أن يمنحه خمس ليرات تركية . وفي أثنـــاء حديثي مع بعض الأسرى ، كان ترجمـــاني الجزائري يتحدث من جانبه مع الآخرين فهو يتقن الإيطاليـة أيضاً . وأخذت أتفرس في وجوه الايطاليين وأمتحن نبرات أصواتهم لمعرفة ما إذا كان مـــا يروونه عن حسن معاملة الليبيين والأتراك لهم حقيقي وغير مبالغ فيه ، أم أنهم يخفون عني حقيقة أخرى اضطراراً وخوفاً من سجّانيهم الحاضرين . لكنني ما لبثت أن اقتنعت بأنهم لم يشهدوا أمامي سوى بالحقيقة ، وبأنه لا وجود لأي ضغط عليهم أو تهديد مسبق لهم يدفعهم إلى الكذب والمبـــالغة . والواقع أنه كان يكفيني النظر الى وجوه أطبائهم الحاضرين والتي كانت تنم عن الطيبة ، وهما طبيبان تركيان اسم أولهما (الدكتور يوسف زيّا) واسم الثاني (الدكتور رفعت) ، وقد أخبراني بأنهما كانا قـــد أمضيا فترة تدريب تطبيقية ، بعد تخرجهما من كلية الطب ، بباريس قضاها أولهما بمستشفى (كوشان) وثانيهما بمستشفى (ڤال – دي – غراس)[1] .

وحدثني هؤلاء الأسرى أنهم قـــد تعودوا الآن على أكل « الزّميطة » الطرابلسية و« البازين » المفلفل ، وطلبوا مني ان أنقل الى أُسَرهم في ايطاليا ، عن طريق ما سأكتبه عنهم في مجلتي ، تحياتهم وان أذكر انهم يعاملون معاملة

---

(١) هما من مستشفيات باريس المعروفة إلى يومنا هـــذا ، وهما يقعان في الطرف الجنوبي للحي اللاتيني .
المترجم



غريان : أطباء الهلال الأحمر الأتراك يعالجون طفلاً جريحاً .
الجالس على اليمين هو الصحفي الفرنسي « بول ترستان »
مراسل جريدة « المرسيلي الصغير »



وادي بو غيلان

حسنة وان أذكر ان الليبيين والأتراك لا يتعرضون لأسراهم بأي أذى. فودعتهم متمنياً لهم ان يرجعوا الى بلادهم وان يعود السلام الى هذه الأرض من جديد بأسرع وقت .

ولكن هل للسلام ان يفرد جناحيه فوق ليبيا ببساطة ، وقد فرضت عليها الحرب ؟.. وهي البلد الذي يوم قررت المجيء اليه في هذه الظروف ، لم أكن أسمع سوى من يقول لي :

— « إنك لن تتمكن من التحدث مع أحد من المسئولين ، فالجميع قد ذهبوا للاسهام في الحرب ضد عدوهم .. ولن تجد في المدن والقرى التي ستعبرها سوى النساء والشيوخ والأطفال .. بل حتى هؤلاء القُصَّر لقادرون على حمل السلاح والجهاد ضد ايطاليا إن هي تقدمت لغزو الدواخل » .

وما زلت أذكر ما قاله لي قائممقام (فساطو) السيد (عمر العربي بي) ، والذي جرح في فخذه بضربة سيف :

— « نحن الليبيين كلنا أهل حرب ، وأنا نفسي قد خضت المعارك أكثر من عشرين مرة ، وما أزال أتأهب للعودة اليها مرة أخرى للجهاد في (العزيزية) ضد أعدائنا .. وهل ترى ذلك الجندي الذي كلفته بحراستك ؟.. انه ابني ، وعندي غيره خمسة عشر ولداً آخرين انخرط كبارهم في الجيش كضباط او كجنود ، والصغار أخذوا يتدربون على حمل السلاح منذ الآن » .

كنا قبل وصولنا الى (غريان) قد اخترقنا وادياً خصباً هطلت فيه الأمطار مؤخراً ، فنمي فيه الزرع وكسته أشجار الزيتون التي عمّرت عشرات السنين وظلت جاثمة في الوادي وقورة خالدة لا تتزحزح . وتأملت هاماتها التي بدت

عليها سيماء الصمود والصبور على معاناة عواتي الدهور ، فأدركت مدى ما بذلته تلك الأشجار من جهد لكي تنمو في هذه الأرض شبه القاحلة ، وقبل ان تونع أغصانها الخضراء المحملة بحبات الزيتون .. حبات الحكمة والسلام !

ويتحول امتداد (جبل غريان) فجأة الى منضدة صخرية ، حيث مرقنا بدوابنا عبر أحد ثلماتها وبدأنا نسير خلال درب اجتزناه وقد قبضنا على ألجمة خيولنا قافزين بها من صخرة الى صخرة. فبدونا كشياطين كانت تغادر قماقمها تارة وتعود اليها تارة أخرى . وها نحن نخترق (وادي بو غيلان) الذي أحرقت الشمس سهوله التي بدت وكأنها قد امتزجت بالبحر والسماء ، وقد ترامت في بطنها أنجع ومعسكرات المجاهدين الليبيين وخيام العسكر الأتراك .

وقد كان من المعتقد في البداية ان فلول المقاومة الليبية لن تتمكن من الانتظام إلا فيما وراء هذه المضائق الملائمة لحرب العصابات. ولكن نظراً لفشل الايطاليين في التقدم الى الدواخل ، فإن الجيوش الليبية والتركية قد ظلت معسكرة قرب مدينة طرابلس نفسها ، وأبت ان تتخلى عن حماية مرابض القبائل الموجودة في السهل .

إننا الآن على بعد سبعين كيلومتراً عن البحر . وكان الناس هنا يلمحون أحياناً أسراب بعض الطائرات الايطالية التي جازفت بالتحليق فوق هذه المناطق الوعرة . فظن بعضهم من بسطاء الناس الذين لم يروا في حياتهم طائرة واحدة انها طيور سوداء أرسلها (سيدي عبد السلام الأسمر) لزيارتهم في تلك الأيام العصيبة التي تتعرض لها بلادهم . وقد ذكر لي البدو الذين كانوا يرافقوننا أنه يروى عن هذا الولي الصالح[1] أنه قال مرة :

---

(١) سيروي لنا المؤلف نبذة عن حياة سيدي عبد السلام الأسمر ومكارمه عندما يمر بـ (زليطن) و (مصراته) ، كما سيرد ذكره فيما بعد . المترجم

– « إنني أرى فتيات طرابلس يهرولن حافيات الأقدام للاحتماء في (وادي بو غيلان) » .. وها هي رؤياه قد تحققت ، وستتحقق بقيتها أيضاً ، إذ أنه قد قال ان الطرابلسيين سيهزمون في البداية ثم لن يلبثوا في النهاية ان ينتصروا على أعدائهم في هذا الوادي نفسه ، وان ذلك سيكون إيذاناً بإشراقة فجر الاسلام من جديد على هذه الأرض .

الفصل الرابع

بلدة العزيزية والمعسكرات التركية الليبية

٥ فبراير ١٩١٢

تربض بيوت بلدة (العزيزية) في السهل بين رمال الصحراء التي انتفت عنها في هذا الفصل من السنة كل كآبة ووحشة إذ نمت بها آكام نبات « البَروَق » التي كانت زهورها العالية تمس صدور خيولنا من شدة طول سيقانها، فقد كانت الأرض كأنها مفروشة بسجادة تناسقت فيها الألوان ، وقد احتفظت كل زهرة وكل باقة أو ساق نبات بلونها وشكلها المتميز عن غيرها . وكانت هنالك بضع خيام تابعة للهلال الأحمر رابضة فوق ربوة قائمة قرب قبـــة ضريح مرابط . وشاهدت في وسط السهل أحد أنجع البادية وسوقاً موسمية مليئة بالحركة . وكانت جماعات الضباط في حركة دائبة في المعسكر . وكان أول الضباط الذين اتصلت بهم هو المقدم (نشأت بَيْ) ، القائد العـام للجيش ، بنفسه ، والذي يطلق عليه الليبيون اسم « العريض » لجسامته وعرض كتفيه . وكان رجلاً واسع الخطى ، مهيب الطلعة ، يرتسم على محياه تعبير ينم على الهدوء واستقامـة الخلق والطيبة في آن واحد .

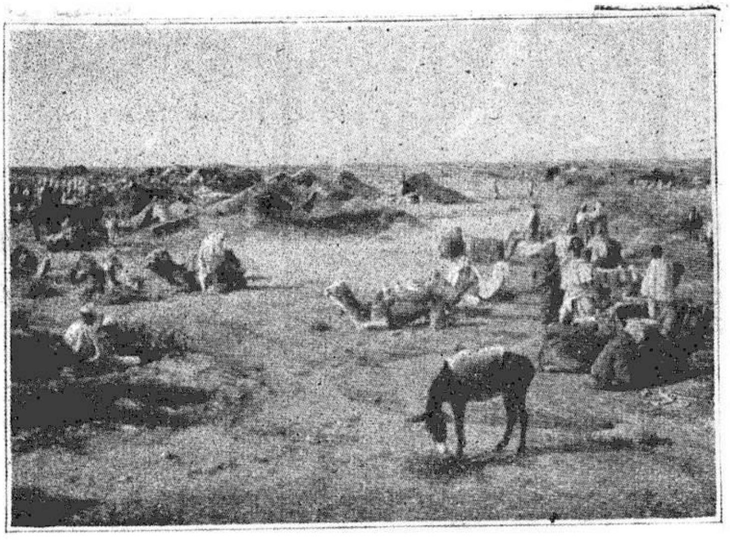
وأجلت النظر من حولي ، فلم أشهد من العساكر النظاميين سوى عدد قليل لا يعتدُّ به ، فلم أرَ مدافع ميدان ، وإنمـــا بعض البدو المسلحين ببنادق « بو صوانة » الرديئة ، أو بالسيوف والطبنجات القديمة ، ولا شيء غير ذلك .. وسألت نفسي منبهراً : يا إلهي ! .. هل هــــذه هي الأسلحة التي يتصدى بها هؤلاء القوم للإيطاليين المدججين بأحـدث الأسلحة حتى أوقفوا تقدمهم ؟ .. نعم ، لقد قيل لي قبل مجيئي إلى هنا : لسوف ترى بأم عينيك ما لن تصدقه ! وها أنذا قد رأيت بنفسي حقيقة هؤلاء المجاهدين .. فآمنت بأن الواقع يفوق كل وصف .

ثم شاهدت قوافل تصل تباعاً ، محملة بالشعير وبالتمر وبالذخيرة ، وقد أخذت في التجمع قرب المعسكر جماهير غفيرة من الناس الفقراء الذين لم يعد يجد الكثير منهم ما يقتات به ، فوقفوا طالبين الصدقة من المارين . ولقد رأيت أناساً لا يستترون سوى بخرق بالية وقد علت أجسامهم الجروح ، وبدا لي أن وجوههم لم يعد فيها من حياة سوى حركة أعينهم في محاجرها وأفواههم الفاغرة من شدة الجوع . وعندما فُتحت أبواب المعسكر لتزويد أولئك البائسين بوجبة أكلهم اليومية ، اندفعت نحوها جموع من الأشباح والهياكل العظمية المتحركة التي يستحيل على قلم أي كاتب مهما كانت قدرته على التعبير والوصف، ويستحيل على ريشة الفنان مهما كانت عبقريتها في الرسم — أن تصف مشهدهم الذي يحز في النفس.

وكل مساء كان يصل المزيد والمزيد من فرق المجاهدين الذين يخترقون في هدوء وصمت سهل (العزيزية) المتوهج الذي أحاط به جدار أزرق من الجبال التي حجبت الأفق ، وكأني بهم في صمتهم وحذرهم يخشون إيقاظ أزهار « الجُنبة » الصفراء ونوّار (البروق) التي استنامت في حضن ذلك السهل الغاص بالمجاهدين. كان اولئك المجاهدون قد جاءوا مروراً بمدينة (غريان) التي كانت آخر مكان استراحوا فيه قبل أن ينحدروا إلى هنا . ثم تنتظم صفوف المجاهدين على بعد بضعة كيلومترات من بلدة (العزيزية) يتوسطهم اثنان من ضاربي طبل الحرب ، يدقانه بالتناوب ، فتتقدم خلفهم الصفوف في موجات متتالية ، مطلقة صيحات الحرب المجلجلة ، رافعة أسلحتها إلى عنان السماء . وكان الخيَّالة يتقدمونهم فوق صهوات جيادهم المطهمة ، ويلحق بها المشاة جرياً أو ركضاً من آن لآخر ، فيحيطون بأولئك الخيَّالة قافزين راقصين حولهم . وخلف هؤلاء وأولئك تتلو صفوف راكبي الجمال . وكانت تلك الصفوف تتقدم متراصة متدافعة ، والشمس خلفها ، فكانت تبدو كجدار أسود متحرك ؛ إذ أن ضوء الشمس لم يكن ينعكس إلا على قمم برانسهم المتاوجة في جذل . وكان المجاهدون أثناء تقدمهم يجتثون الشجيرات الجافة التي يمرون بها في طريقهم للاستفادة بجذوعها اليابسة في إيقاد النار كلما توقفوا للأكل والراحة .. فبدا لي ذلك الجمع الغفير



منظر عام لبلدة : العزيزية



معسكر العزيزية : خيام المجاهدين

عن بعد كغابة متحركة ، وذكرني ذلك بتقدم جيش الخلاص في مسرحيـــة (ماكبث) الشكسبيرية الدرامية الشهيرة .

وصحبني في مساء أحد الأيام الضابط (فرحات بَيْ) لاستقبال من قدم من قبيلة (أولاد بو سيف) من المجاهدين القادمين من جبلهم الواقع في اتجاه فزان . وعندما التقينا بهم وقع حادث غير متوقع : إذ أن (فرحات بَيْ) طلب من (أولاد بوسيف) ، الذين كان عددهم يتراوح ما بين أربعمائة وخمسمائة فارس ، أن ينتظموا في صفوف عرضية يتكون كل صف منها من أربعة أفراد، وذلك قبل الدخول إلى القرية التي بها المعسكر وهكذا فإنه ترّجل من فوق حصانه وأخذ يصفّهم على ذلك النحو . وهنا صاح أحد مشايخهم فجأة :

— « من هو هذا الذي سمح لنفسه بالتطاول لتنظيم صفوفنا وتغيير عاداتنا في السير ؟ » .

وهنا ما كان من أتباعـه إلا أن عصوا فوراً أوامر الضابط ورفضوا إلا أن يسيروا في صف واحد في موجات متتالية كما جاءوا . فغضب (فرحات بَيْ) غضباً شديد وصرح بأنه هو القائد هنا، وأن المجاهدين الجدد إن كانوا يرفضون الالتزام بأوامره ، فما عليهم إلا العودة من حيث أتوا .

وعلا الصخب والجدل . ثم ما لبث سوء التفاهم ان زال فجأة . اذ اكتشفنا ان عصيانهم المبدئي نجم عن أنـه كان قد تناهى الى أسماعهم ، قبيل قدومهم ، ان مراسل جريدة أجنبية يرغب في التقاط صورة جماعية لهم ، ظانين ان (فرحات بَيْ) هو نفسه ذلك المراسل الصحفي الأجنبي — أي أنا — ممـــا أغضبهم فرفضوا والحالة تلك ان يطيعوا أوامره . ولكن مـــا ان زال سوء التفاهم ، حتى اعتذر كل من الطرفين للآخر ودخل جيش (أولاد بو سيف) الى (العزيزية) عند غسق ذلك النهار مكرماً .

في حين ان الأشياء تبدو أثناء النهار وكأن النور الشديد قد ابتلعها ، إلا انه

في ساعة الغسق هذه يعود للألوان تمايزها ، فيصبح للظلال أهميتها الخاصة ، وتتجسد هيئات الأشياء وتتمايز فتبدو جميلة رائعة . غير ان قمة الروعة والجمال تتمثل في وجوه المجاهدين الذين كنت ألمح هاماتهم في تلك اللحظة يتطلعون من فوق الجدران ومن الشرفات ومن بين قباب المسجد ، ناظرين الى الشمس وهي تؤذن بالمغيب ، وقد أضاءت شعاعاتها الأخيرة سماء الشرق . فذكرتني هامات أولئك الرجال ، التي لم أعد أتبين ملامحها بوضوح ، بتلك التماثيل التي يشاهدها المرء رابضة في أطراف واجهات الكنائس التي بنيت في القرن السابع عشر .

وإليكم بعض التفاصيل الجديدة عن الكيفية التي نظمت بها المقاومة الليبية — التركية منذ بداية هذه الحرب :

فعندما نزل الايطاليون الى شواطىء مدينة طرابلس الغرب في يوم الرابع من أكتوبر ، ولم يجدوا أمامهم سوى مقاومة ضعيفة من قبل القوات التركية التي كان قد سبق للقسم الأكبر منها ان رحل الى اليمن ، اعتقدوا ، واعتقد معهم الرأي العام في أوربا كلها ، ان الحرب ستنتهي بعد بضعة أيام . فقد احتل الألف ومائتا بحار ايطالي أطراف المدينة الشمالية ، وتمكنوا في البداية من دحر هجمات الأتراك المتخاذلة .

وقد نُوِّه من بعدُ بشجاعة وروح مبادرة بعض الضباط الأتراك الذين حاولوا التصدي لذلك الهجوم . وبالرغم من عدد جنودهم القليل والصعوبات التموينية التي لاقوها ، وافتقارهم الى المال . وبرغم ارتباك الرأي العام المحلي في البداية ؛ إلا أنهم سرعان ما تمكنوا من سد الطريق أمام فلول الجيش الايطالي المتقدم ، والذي كان مدججاً بأحدث الأسلحة ، والذي ما يزال يقوم بالهجوم تلو الهجوم ، طيلة أربعة أشهر ، دون ان يتمكن من احتلال مواقع حربية هامة . إذ ان (عين زارة) التي تتحصن بها الآن المراكز المتقدمة للجيش الايطالي ، لا تبعد في الحقيقة عن ميناء طرابلس إلا مسافة ثمانية كيلومترات .

ولقد تحدثت الصحف الأوربية عندنا عن إسهـــام الليبيين أنفسهم في صد هجومات الايطاليين عن بلادهم ؛ غير ان تلك الصحف لم تعط الليبيين حقهم كاملاً او تتوسع بتجرُّد في ذكر تفاصيل مقاومتهم تلك ، مكتفية بالقول بأن الليبيين قد قدموا للأتراك منذ البداية ما يحتاجه هؤلاء من شجاعة الرجـــال وكثرة الجند . إلا ان قوة الليبيين – في رأي تلك الصحف – ليست سوى قوة فوضوية ، قد تكون قادرة على دخول المعركة بعنجهية واندفاع أعمى، ولكنها تفتقر مع ذلك الى حسابات تكتيكية مدروسة ورويّة وطول نفس .

وأنا أقول لأصحاب هذا الرأي المتفشّي في صحافتنا الغربية ، انهم مخطئون فيما ذهبوا اليه . فبفضل حمية الرجال وطاقتهم القتالية واجماعهم على الجهاد ، وبفضل النشاط الذي لا يفتر لدى مجاهدين أفذاذ من أمثـــال نائب طرابلس (فرحات بَيْ) ، ونائب جبل (نفوسه) الزعيم (سليمان الباروني) ؛ فقـد صارت قوة هؤلاء الليبيين تتميز رويداً رويداً بالالتزام بالنظام في القتـــال ، وصاروا قادرين على ممارسة حرب تختلف عن حروب القبائـل السجالية التي يعتقد الأجانب أنهم لا يقدرون على خوض حرب تخالف نمطها. زد على ذلك ان الليبيين هم قوم سريعو الحركة ، متعودون على طبيعة بلادهم ، قادرون على التنقل عبرها بسهولة ، أثناء حرارة الصيف ، وعبر التلال الرملية الملتهبة وقسوة المناخ ، ونقص المأكل والمياه . وها هم اليوم قد تلقوا السلاح والعتاد، وارتفعت معنوياتهم القتالية ، التي زاد من أوارها وحمأتهـا المشاعر الدينية والوطنية ، فصاروا قوة لا يمكن تجاهلها في هذه الحرب .

ولم يكن للتفاهم والتآخي ان يتمّا بين الليبيين والأتراك ببساطة ؛ إذ ان الليبيين حينما رأوا ان مدينة طرابلس قد تخـــلى عنها الأتراك سيطرت عليهم الفكرة التالية : « إن الأتراك قد خانوا قضيتنا ، فهم لا يهمهم أمرنا وضياع بلادنا البعيدة جغرافياً عن تركيا ولا تعود عليها بأي نفع ، فما كان منهم إلا ان باعونا للكفار » .

زد على ذلك ان الايطاليين ، كانوا قبل إقدامهم على فعلتهم هذه ، قد بثوا دعاياتهم الكاذبة والمخادعة بين الرأي العام الطرابلسي ، بل وفي الرأي العام الأوربي نفسه . ثم اقتنصوا الفرصة حينما سنحت لهم بالهجوم . والواقع أنني لا أعرف جريمة أعد لها ورتبت تدابيرها ورسمت خطواتها بمثل ما فعلت ايطاليا قبل القيام بعملياتها الحربية في ليبيا . فالايطاليون كانوا قد استمالوا في البلاد نفسها زمرة من الخونة الذين لا يتعدى عددهم الاثني عشر ، والذين انبثوا بأنفسهم بين صفوف المواطنين او أرسلوا الى تجمعاتهم الغاضبة مبعوثيهم الذين أخذوا يمتدحون فضائل الايطاليين وينتقدون الادارة التركية في البلاد ، ويوزعون الأموال لاستمالة النفوس .

وهكذا فإنه عندما وطئت أقدام الغزاة أرض طرابلس خُيِّل إليهم أن الليبيين كانوا قد هيئوا لتقبل استعمارهم الوشيك الوقوع . ولكن برغم الهدوء الخادع الذي ضلل الإيطاليين ؛ فإن الليبيين كانوا قد أعدوا ما كان بين أيديهم من سلاح ما لبثوا أن واجهوا به العدو ، طاوين قلوبهم على أمل ورجاء بأن يمدهم الغير بالسلاح الكافي كي يجاهدوا به ضد العدو الغازي .

وفي هذه الأثناء ، أصبح موقف العسكر التركي شائكاً ، وهم يتخلون عن مدينة طرابلس . كانوا قد هربوا من المدينة وهم يتوجسون خيفة من الليبيين الذين أخذوا يتهددونهم ويرفضون إمدادهم في فرارهم بأية مؤن أو بهائم أو جِمال .

إن هذا في الحقيقة هو الذي أجبر الأتراك على خوض المناوشات الأولى ضد الايطاليين ، لا على أمل أن ينتصروا عليهم بطبيعة الحال ، ولكن فقط لكي يحاولوا أن يثبتوا لليبيين أنهم ليسوا خونة ، وبأنهم خير حماة للوطن وللدين الإسلامي المشترك. وقد سقط منهم بعض الشهداء، وأحرزوا بعض الانتصارات الطفيفة . وهنا أخذ الليبيون يقولون في ذات أنفسهم مندهشين من هذا التبدل

غير المتوقع في مسلك الأتراك : يستحيل أن يكون هؤلاء الناس الذين يبذلون أرواحهم دفاعاً عن وطننا من الخونة الذين ارتضوا ببيع وطننا » .

وقال لي (فرحات بَيْ) نائب طرابلس :

« عندما حضرت الى بلدة (العزيزية) في بداية هذه الحرب ، شاهدت العلم الأبيض يخفق هنا مؤذناً بالتسليم . فما كان مني إلا أن جمعت الأعيان وتحدثت معهم ، فقالوا لي : ماذا بوسعنا أن نفعل ضد أمة قوية كإيطاليا ، وهي أقوى منا في العدد والعدة والسلاح .. وحينما أردتم في العام الماضي أن تفرضوا علينا الخدمة العسكرية ، ألم تقل لنا حكومتك العثمانية أن لا بد من خلق جيش نظامي قادر على التصدي لأي جيش نظامي آخر معتدي ؟.. ولكن أين هو الجيش النظامي الذي وعدتمونا به ؟.. أنظر إلى جنودكم الأتراك !.. فهل مع هؤلاء يمكننا أن نجاهد ضد إيطاليا ؟ »

وعلى حد قول (فرحات بَيْ) فإنه أمام هذه العزيمة المنهارة التي لاقاها عند أولئك الأعيان تقدم – فيما يقول – وخاطبهم بعنف قائلاً لهم إن الذين خانوهم ليسوا هم الأتراك بل إنهم هم أنفسهم الذين باعوا أنفسهم للإيطاليين[1] .

فردوا عليه مغضبين : « إننا أمام إهانتك لنا على هذا النحو لعلى أهبة الاستعداد لبذل نفوسنا دفاعاً عن الوطن إلى أن يموت آخر رجل فينا » .

وهكذا – فيما يقول (فرحات بَيْ) – فقد أُنزلت راية التسليم ورُفع بدلها العلم الأحمر ذو الهلال والنجمة فوق البلدة .

واستمر (فرحات بَيْ) يقول :

---

(١) علينا ألا نأخذ ما يرويه (فرحات بَي) على عواهنه رغم انه مجاهد ليبي، إذ انه قد يريد ان يبرر لهذا الكاتب الأجنبي موقف تركيا . فالأحداث التي تلت قد أثبتت بدلائل قاطعة ان تركيا التي وقعت معاهدة (لوزان) وتخلت عن ليبيا هي التي خانت وتقاعست وسلمت ، أما الليبيون فقد خاضوها حرباً شعبية متواصلة حتى رحات ايطاليا عن أرضهم . المترجم

« وأخذت أتنقل بين القبائل والقرى الليبية ، وعدت ومعي عدد كبير من مجاهدي (زوارة) و (العجيلات) و (الزاوية) . كنا في أخريات شهر أكتوبر ، وأخذ المجاهدون يتوافدون من كل صوب وحدب . وكانوا يقبلون على معسكر الجهاد في حشود هائلة مهترئي الثياب وقد لوحوا بأسلحتهم باعثين من حناجرهم صيحات مزمجرة وتهليلات مجلجلة تقول : « إلى الجهاد في سبيل الله .. إلى الجهاد في سبيل الله » ، ومتغنين بأغان وأهازيج وطنية وحربية ، وكان من بينهم حتى الشيوخ والأطفال الذين كانوا يئنون تحت ثقل بنادقهم . بل كان بينهم كذلك حتى النساء اللاتي خضن غمار الحرب بكل بسالة ، أو كُنَّ على الأقل يقمن بتقريع كل متخاذل ومتقاعس أو متردد قائلات : أيها الجبان !.. إن أنت لم تتقدم لقتال العدو فلسوف نشهِّر بك أمام جميع أفراد القبيلة ، فينبذك حتى أطفالك وزوجتك ، ولسوف يطاردك الناس ويرمونك بالحجارة ككلب ضال .. ولن تجسر على الظهور بين الناس .

« وبينما كنت أنا ألهب حميَّة الناس هنا ، كان الزعيم (سليمان الباروني) يقوم بنشر الثورة في كل الجبل الغربي .

« ولم تكن مهامنا تقتصر على إعلان صيحة الحرب فحسب ، بل كان علينا ، وقد رحل المجاهدون إلى ميدان القتال أن نسهر على استتباب الأمن بين أسرهم وفي قراهم حتى لا يغزو عليها قطـــاع الطرق واللصوص . وهكذا فقد أعيد تنظيم كل من الإدارة والحكومة ، حيث عينا حُكـَّاماً مؤتمنين في كل مكان . وها أنت قد حضرت الى هنا عبر الطريق الطويل الذي يربط بين نقطة (ذهيبة) التونسية وبين (غريان) ، فلعلك قد أخذت فكرة بنفسك ، وشاهدت بأم عينك كيف يستتب الأمن في هـذه البلاد رغم حالة الحرب ، إذ لم يعترضك أحد . لقد كان الناس عندكم في اوربا ، بل إننا قد اعتقدنا نحن أنفسنا برهة من الوقت في البداية ، أنه بعد أن تتمكن إيطاليا من احتلال مدينة طرابلس ، فإن (جبل غريان) الوعر سيكون هو القلعة التي سيحاول الأتراك والطرابلسيون

أن ينفردوا بها ويتحصنوا خلفها هرباً من الإيطاليين الغزاة . ولكن ها نحن لم نرتض أن نتخلى عن السهل قبل أن نلتحم فيه مع العدو ونجاهد ضده قبل أن نسمح له بتدنيسه وتشريد قبائله وإفساد حقوله ومزارعه وقراه .

واليوم يبلغ امتداد قواتنا المتصدية للعدو جبهة طولها ثلاثين كيلومتراً تمتد ما بين (جنزور) ومنطقة (مختار بوقنطشه) ، ولسوف ترى !.. فكل القبائل باقية تترصّد العدو وتكيل له الضربات : فإن (ترهونة) التي يلقب أهلها بالشجعان ، وعلى رأسهم زعيمهم (أحمد مرياد بَي) ، وكذلك الساحل ، ومنشية (الرقيعات) و (العلاونة) و (ختنه) و(علي) — تحت قيادة (علي شلابي بَي) قائم مقام (فندق بن غشيِّر) ، وهو أحد أبطال معركة (بئر طُبراز)[1] و (الجفارة) تحت إمرة (جلّوت أفندي) ، و (التواجير) تحت قيادة (علي محمد كرموس) ، وأهل فزان و (الطوارق) ، وأهل (زليطن) و (تاورغاء) و (نالوت) و (فساطو) و (الزنتان) و (الرجبان) و (مزدة) و (حودز) ، وقد ألهب حميتهم الزعيم (سليمان الباروني) .. كل هؤلاء قد بعثوا بمتطوعيهم ومجاهديهم . وكذلك (غريان) و (رفلـّه) و (مصراته) و (النوايل) ، وأهل (الزاوية) و (جنزور) و (ورشفانة) و (العجيلات) ، و (العلالقة) و (ريرحنا) و (ككله) و (الصيعان) .. كل هؤلاء المجاهدين ليس لهم إلا صوت واحد يقول : وهل للحياة من قيمة ؟.. والجنـّة تنتظرنا مع الموت في خنادق الإيطاليين »[2].

إن عرى التآلف والتفاهم بين الليبيين والأتراك قد أصبحت على افضل ما

---

(١) (بئر طُبراز) مكان في بادية ورشفانة وقعت فيه معركة بين الليبيين والإيطاليين في ١٩ ديسمبر ١٩١١ وهزم فيها الإيطاليون . وتعرف أيضاً بواقعة (سدرة الجلابة) . أنظر معجم البلدان الليبية ص ٢١٦ . المترجم

(٢) لقد حاولت قدر مستطاعي ترجمة أسماء هذه القبائل والمناطق وأسماء الأشخاص على وجهها الصحيح ، بالرغم من خطأ الكاتب نفسه أحياناً في بعضها ، فصححته . كما التزمت بطريقة نطقها في اللهجة الليبية .

يمكنها أن تكون عليه ولن يكون من السهل فصمها . إن الليبيين لن يتأثروا بالسياسة الأوربية القائمة ، وما قد تجر إليه خصوماتها من حروب في القارة الأوربية ، كما أنهم لن يتأثروا بالصعوبات الداخلية في تركيا والتي قد تجرها إلى التسليم والانهزام . إذ أنه قد أصبح في حكم المؤكد الآن أنه ، حتى وإن رضيت تركيا بشروط السلم التي ستفرض عليها لا محالة ، فإن الليبيين سيواصلون الحرب هنا ، وإذا ما استدعت الحكومة التركية جنودها وضباطها من ليبيا ، فإن الليبيين سيمنعونهم من الانسحاب ويرغمونهم على القتال ضد ايطاليا .

وتبعد (العزيزية) مسافة عشرين كيلومتراً عن ضاحية (بن غشير) التي اختيرت كمركز متقدم للقوات الليبية – التركية في مواجهة القوات الايطالية المتمركزة في (عين زاره) . وقد عبرنا هذه المسافة في صحبة (فرحات بَي)[1]

---

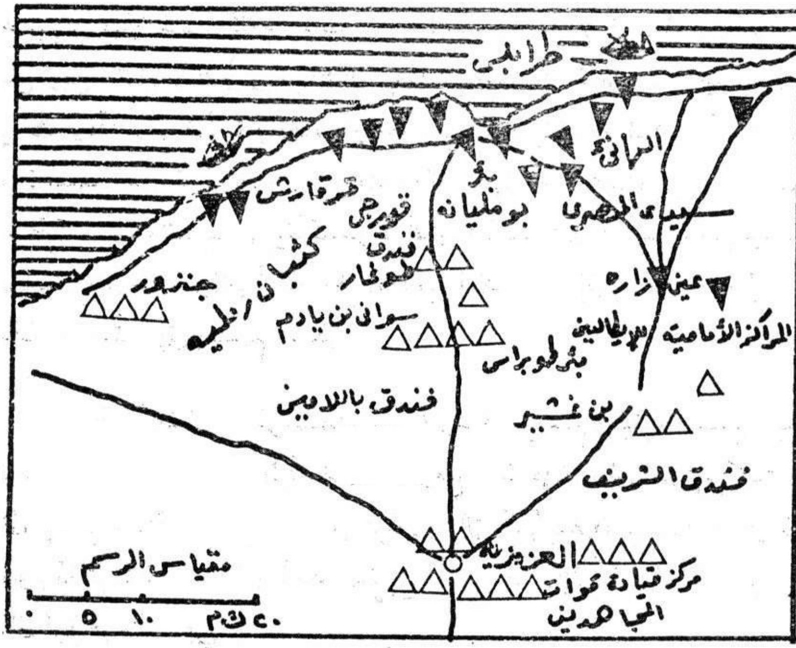
(١) تعريفاً للقارىء الذي يجهل شخصية (فرحات بَي) ، فإنني أنقل اليه هنا ما كتبه عنه الشيخ (الطاهر أحمد الزاوي) مفتي الجمهورية العربية الليبية الحالي في كتابه القيم (أعلام ليبيا) في صفحتي ٢٥١ و ٢٥٢ ، مع بعض الاختصار :

« محمد بك فرحات ، اشتهر بفرحات الزاوي وهو من كول أوغلية الزاوية (الكوارغلية) . ولد ونشأ بالزاوية وأخذ العلم والفقه عن مفتي طرابلس الأكبر محمد كامل بن مصطفى . وذهب إلى فرنسا فتعلم اللغة الفرنسية ودرس علم الحقوق خمس سنوات ثم رجع إلى طرابلس فعينته الحكومة التركية قائمقاماً بالشاطىء في فزان . وانتخب نائباً عن طرابلس في مجلس المبعوثان التركي (مجلس النواب) . ولما احتل الطليان طرابلس سنة ١٩١١ كان في مقدمة الذين نادوا بالجهاد . وجمع المجاهدين والتحق بالفرقة التركية في العزيزية . وظهر من الفرقة التركية التباطؤ في الحرب ، فهدد رئيسها نشأت بك بأنه إذا لم يجدّ في جمع الناس للجهاد ويتقدم صفوف المجاهدين، فسيهاجمه بالطرابلسيين ويستولي على ما عنده من السلاح ، فأذعن نشأت لهذا التهديد وجدّ في أسباب الحرب . وانتخب سنة ١٩٢٠ عضواً في مؤتمر غريان ممثلاً للزاوية وفي الحكومة الوطنية التي انتخبها المؤتمر وسماها (هيئة الإصلاح المركزية) . ثم انتخب رئيساً لوفد مؤتمر غريان للذهاب الى روما لمطالبة حكومتها بتنفيذ قراراته . ولما تغلب الطليان على السواحل سنة ١٩٢٢ هاجر إلى غريان . ثم سافر الى فزان ، وقد قتل في زلّاف في مارس سنة ١٩٢٥ في سن تناهز التسعين » .

وبعض القادة الآخرين . كان الجو شديد الحرارة ، وقد تحول جانب من الصحراء الى جنة ربيعية كستها براعم أزهار (الجُنبَه) الصفراء . ومع ذلك فإن كثبان الرمال قد بدأت في الظهور . وقد أثقلت الحرارة جفوننا بالنوم وأتعبنا خبّ أقدام خيولنا البطيء الرتيب ، فشعرنا بالملل والنعاس . وحاولنا ان نطرد عن أنفسنا هذا الخمول ، فأطلقنا لجيادنا العنان راكضين بها عدة مئات من الأمتار . فأعادت الينا سرعة السباق نشاطنا الذي أفقدتنا إياه حرارة الجو منذ وهلة ، فتحول سباقنا ذاك الى شبه مهرجان عفوي .

وقبل أن نصل الى معسكر (بن غشّير) بزهاء نصف ساعة ، توقفنـــا في مزارع (أرض الشعواط) حيث يربض جانب من أنجع قبائـــل الساحل و (العلاونة) . وتقدم منا المشايخ يحيون النائب (فرحات بَي) الذي قدمني اليهم . وفرشت على الأرض السجاجيد والبسط ، وأحضر القوم الشاي الينا . وتحلـّق البدو الليبيون حولنا جالسين القرفصاء . وقد كانوا في البداية متحفظين قليلي الكلام ، ثم ما لبثوا شيئاً فشيئاً أن انطلقت عقـــدة ألسنتهم ، فطفقوا يتحدثون ، وقد صاحب كلامهم إشارات وإيماءات بأيديهم كأنهم يؤكدون بها ما كانوا يخوضون فيه من مواضيع . وقد لاحظت أنهم شيوخاً كانوا أم شباباً فإن تعابير وجوههم وهيئاتهم كانت تتسم بشخصية قوية متميزة . فالأوربيون – بما فيهم الأتراك – قد أصبحوا اليوم متشابهين جميعاً ، تقريبـاً ؛ من حيث انهم قد صاروا منذ امد بعيد خاضعين للقوالب التي فرضتها عليهم عادات متماثلة متعارف عليها فيما بينهم ، وصار مفهوم الحرية نفسه يخضع عندهم لتقاليد الحياة المتمدينة وصرامتها . اما الفرد العربي البدوي ، غنياً كان ام فقيراً ، محارباً ام راعي غنم ، فإنه يحتفظ دائماً في هيئته ومشيته وتعبير ملامحه وحركاته وسكناته بمميزات الرجل الحر الذي لا يخضع إلا لربه ولما تمليه عليه نفسه ولا يتقيد بغير ذلك من القيود التي يعرفها مجتمعنا نحن .

ثم نهضنا ، بعد فراغنـــا من شرب الشاي ، وحيث أخذنا نخترق مزارع



الموقف العسكرى حول طرابلس فى فبراير ١٩١٢

▼ : التحصينات الإيطاليه — : طراد حربى إيطالى.

△ : معسكرات المجاهدين

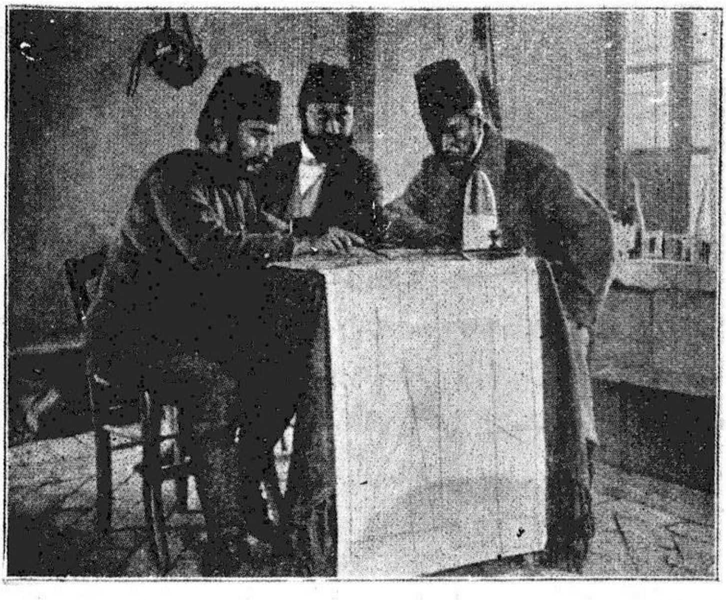
وبساتين (أرض الشعواط) التي ناخت أشجار اللوز فيها بما تفتح فوق غصونها من الزهور البيضاء الفوّاحة . ثم أقبل المساء فكان مساء ربيعياً لذيذاً . ومع ذلك فإن الإطار العربي الساحر شـــاء أن يسوق إلينا مشهداً مثيراً للرثاء والشفقة ، إذ أن أهـل مدينة طرابلس البائسين الذين اضطرهم تنكيل الطليان وظلمهم في نهاية شهر اكتوبر الماضي إلى اللجوء إلى هنا ، كانوا يقضون نهارهم في نبش زبل الخيل والحمير وبعر الجمال بحثاً عن حبـات شعير تائهة ، ينخلونها من الروث ويأكلونها تهدّساً لإطفاء نار جوعهم . وهم يقضون لياليهم تحت خيـام قذرة صنعت من خرق بالية ومن بقايا ملابس مهترئة ، ضمت إلى بعضها البعض وخيطت بسعف النخيل ؛ يتكدسون تحتهـا بالعشرات ، احتماء من برد ليالي الصحراء القارص . ونظراً لانعدام الأغطيـة لديهم ، فإنهم يظلون يبحثون عن الدفء ملتصقين إلى بعضهم البعض .

وعندما مرّ النائب (فرحـات بَيْ) وسط خيامهم استقبلوه مادين أيديهم متوسلين بأعينهم البائسة طلباً للمعونة . ومع ذلك فإن بعض نسوتهم كانت مـا تزال تجد في أعماق حناجرها بعض الزغاريد التي كنّ يعبرن بهـــا عن فرحتهن بقدوم ذلك القائد . وأشار أحد المشايخ المسنين بيده إلى تلك المشاهد البـائسة وقال لـ (فرحات بَيْ) :-

— « بربّك قل لهذا الفرنسي أن يصف ما رآه هنا بعينيه لقرائه [بكل أمانة : ليقل لهم أنه شاهد ، من ناحيـة ، مجاهدين مستعدين لبذل أرواحهم في سبيل وطنهم ، وأنه رأى أيضاً أناساً بائسين ، نساء وأطفالاً وكهولاً لا يجدون من يمد إليهم يد العون والمساعـدة وهم في هذه الحال من القحط والبؤس الذي يفنيهم . وليقل عندما يعود إلى وطنه أنه ليس من حق فرنسا أن تتـــذرع بقوانين الحياد الدولية فترفض مرور المؤن والمساعدة والاسعافات عبر الأراضي التونسية ، الواقعة تحت سيطرتها الاستعمارية ، إلى ضحـــايا الحرب هؤلاء .. فليمعن النظر جيداً فيما يراه ، وليتذكر وليصفه بقلمه » .



محمد فرحات بك الزاوي ، نائب مدينة طرابلس مع مشايخ البادية
عند المواقع الأمامية في فندق بن غشير



طاهر بك ضابط في القيادة العامة يتباحث في الوضع العسكري
على خريطة مع سليمان الباروني (في وسط الصورة)
ومحمد فرحات الزاوي (يمين الصورة)

وها قد فعلت !.. ولكنني رحمة بأعصاب القراء أرى أنه لا داعي للاستطراد في وصف حالة هذا الشعب المكون من الهياكل العظمية المتحركة التي عشّشت فيها أسراب القمل الجائعة التي لعلها هي وحدها التي تجد ما يسدّ رمقها من اللحم والدم ، فتمتصه وتزيد من تعاسة هؤلاء الناس .

ووصلنا الى معسكر (فندق بن غشّير) عند هبوط الليل . كان المؤذن ينادي لصلاة المغرب فيجلجل صوته في أطراف المعسكر . وشاهدت أولئك المجاهدين المسلمين يلبّون نداءه فيهرعون للصلاة ذاكرين اسم الله بقلوبهم وأفواههم . ثم أُشعلت نيران صغيرة في جميع أطراف المعسكر . وأخذت ألمح هامات بيضاء تتجمع او تتفرق حول رجال دوريات الحراسة الذين كانوا يقطعون المعسكر جيئة وذهاباً . ومن وراء المعسكر لمحت على مدى البصر محيطاً متماوجاً من كثبان الرمال التي انطفأ لونها الذهبي في ظلمة الليل المقبلة . أما في الجانب الآخر فقد كانت المروج والحقول ما تزال متميزة ، وقد انعكست عليها آخر خيوط الشمس الغاربة وقد وشيت خضرتها بسيقان آلاف من نباتات (الجنبة) وأزهارها الصفراء .

وأخذت ساعات الليل تمضي بطيئة ، وقد سادتها الجلبة التي تتميز بها عادة مواقع الجيش المتقدمة : طلقات نارية متفرقة يعقبها نباح الكلاب ، او همهمات الخيول وهدير الجمال الجزعة الجافلة يمنة او يسرة ، حيث تتعثر في أوتدة الخيام وحبالها ، فينطلق وراءها أصحابها لإرجاعها الى مرابطها صائحين مزمجرين . ومن حين لآخر كنت أسمع تحت هذه الخيمة او تلك ترتيل صلاة او الترنّم بأغنية خافتة وقد اختلطت بها مناداة العسّاسين لبعضهم البعض . ثم هرعت الى المعسكر فرقة من الجنود كانت قد أرسلت لمباغتة حرّاس المعسكر الايطالي غير ان كلابهم كشفت أمرهم بنباحها .

وأخيراً طلع النهار ، وخرج شيخ مسن من المعسكر الذي كان ما يزال هاجعاً ، فاعتلى أحد الكثبان الرملية القريبة فثبّت به طبله الضخم المكون من

قطعة خشب شُدَّ عليها جلد ثور . كان ذلك الشيخ شخصاً بارز العظام نحيلاً ، شأنه شأن كل الناس هنا ، إلا أنه مع ذلك كان أعجر بارز العضلات ، ذا وجه يتسم بالعنف ، فبدا لي أنه قد استكمل فعلاً صفات الرجل الداعي الى الحرب . وفَرَدَ جسمه ورفع ذراعه التي اخترقت برنسه ولوّح في الهواء بحبل كالسوط وطفق يضرب الطبل الذي أخذ دويّه الأصم المتواصل يتردد متموجاً مخترقاً نسمة الصحراء ذات الأصداء البعيدة . وكان يتوقف برهة ثم يعود الى دق طبل الحرب من جديد .

وما هي إلا برهة حتى صحا من في المعسكر الذي بعثت دقات الطبل فيه حياة يوم جديد . فكان الجند يهرعون خارجين من كل خيمـــة وقد تسلحوا بأسلحتهم ، وأخذت الفرق تتجمع وتنتظم ، في حين كانت أخرى تطلـــق صيحات النداء للمعركة راقصة رقصة الحرب . وكان بين أهل المعسكر مجاهدون من (الطوارق) الذين كانوا يخفون وجوههم ورؤوسهم تحت ألثمتهم ، وآخرون من (فزان) ، أو متطوعون جـاءوا من البلدان الإسلامية الإفريقية البعيدة ، كما كان هنالك من قدموا من جبال طرابلس الغرب القاصية وسهولهـا البعيدة : من (نالوت) ، ومن (غريان) ، ومن (زليطن) ومن (ورفلـّـة) . وكان كل مجاهد يبذل ما في وسعه لإبراز أسلحته أو أصالة حصانه أو روعة لباســه العسكري . ومر من أمامي زنجي هائل القامة وقد عقد فوق رأسه عمامة حمراء فاقعة في لون الدم المُراق ، في حين انسدل على كتفيــه رداء أرجواني طويل وصل حتى إلى ما تحت أفخاذ حصانه . وكان كل واحــد ينفخ صدره ويفرد قامته وهو يمر من أمامي باعتباري نصرانياً من ملـّة أعدائه الطليان ليُريَني ما يتمتع به من قوة وعزّة جديرة بالنصر . ثم أخذ الفرسان ينطلقون فوق صهوات جيادهم ، فيثيرون وراءهم زوبعة من الرمـــال . وكانت الخيول وهي تتلقى وخزات المهامز أو تكبح الألجمة أعنتها فجأة تبدو وقد نفد صبرهـــا ، فتثب جافلة أو تظل تحوقل حول نفسها ، أو تنطلق راكضة في سرعة البرق مخترقة كثبان الرمال .

ثم تحتشد هذه الجموع وتتوحد بسرعة فتسير في استعراض كبير . ويطمئن الجميع قيـادة جيشهم رافعين أسلحتهم ، مطلقين صيحاتهم المليئة بالغضب ضد أعدائهم . ثم تتحرك الجموع، وقد سار الفرسان في مقدمتهم، فما يلبث أن يختلط حابلها بنابلها ، كما لو كانوا قد دخلوا معركة . وترتفع السيوف مهددة متوعدة بضرباتها في الهواء . وينطلق الرصاص في الجو ، وتمضي الجيـــاد تحت الكزات راكبيها ، وتمتلىء البرانس والثياب الفضفاضة الملونة بالريــاح وقد حمي وطيس السباق المتقدم . وكانت هامات الرجال تبدو وكأنها قد انتشت من خمرة فرح فريد وعميق وطغت عليها لذة عنيفة من حب الإقبال على الحرب . ثم يتوقف صولانهم وتسابقهم فجأة ويعودون إلى خيـام معسكرهم ليؤدوا الصلاة ، ثم ترتفع أيديهم إلى السماء متضرعة إلى الله أن يمدهم بنصر من عنده .

وحدث أن كنا بعد ذلك جالسين في بيت القائم مقام (علي شلابي بَيْ) ، وقد امتدت أيدينا جميعاً إلى قصعة كبيرة نتناول ما احتوته من (الكسكس) واللحم ؛ فسمعنا فجأة صيحات تقول :

— « بارود ! بارود ! .. لقد هاجمنا الطليان ! » .

فانطلقنا هارعين إلى الخـارج ، حيث أمرتُ تابعي بوضع السروج على ظهر خيولنا وطيّ خيمتنا . لكننا ما لبثنا أن سمعنا من وراء الكثبان الرملية التي توجّس الصائحون قدوم عسكر الإيطاليين من ورائها ، أصواتاً أخرى مطمئنة تقول :

— « اطمئنوا .. اطمئنوا .. إنهم : ترهونة .. انهم ترهونة » .

وفعلا ، فقد كان القادمون هم مجاهدو قبيلة (ترهونة) المعسكرة في الجناح الأيمن للمعسكر الكبير، إذ أنهم كانوا قد سمعوا جلبة الاستعراض والسباق الذي وصفته للقارىء منذ وهلة، وطلقاتِ البنادق التي كانت تدوي رغم إصدار القادة

أوامرهم بمنعها .. فأسرع أهل (ترهونة) معتقدين أن المعركة مع الإيطاليين قد بدأت .

وكان مجاهدو (ترهونة) هؤلاء منتظمين في صف واحد، والوقت وقت ظهيرة . وكانت الرمال تلمع تحت أقدامهم كمسحوق الذهب ، والشمس الحارقة تنعكس على صفائح سيوفهم وفوهات بنادقهم وعيونهم وتحرق وجوههم بلظاها . وأخذ الضباط الأتراك والمشايخ الليبيون يركضون بخيولهم في اتجاهم ومن خلفهم المعسكر . وصعدت مع نفر من الناس فوق أحد التلال أرقب الموقف . وصدرت الأوامر بالتوقف الى ذلك الصف الطويل من القادمين على هيئة ثعبان هائل متماوج ، فتوقفوا برهة صامتين . وحينما تحققوا من أنه لا وجود لغارة ايطالية ، هرعوا صائحين ، يتقدمهم الفرسان ثم المشاة ، وقد تعالت صيحاتهم قائلين :

— « أوليْد .. أوليْد .. بو يا زيْن ! »[1] .

وأحاطوا بنا ، وقد رفعوا سيوفهم وبنادقهم ، وكانوا من تراص الصفوف ، بحيث خيل إليّ أننا قد أصبحنا محاطين بسور من الحديد لا تسمع من ورائه إلا صيحة الحرب .

« .. كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين »[2] .

إستشهد (فرحات بَي) بهذه الآية ، وهو واقف وسط المشايخ ، ثم أردف قائلاً :

— « هذا ما يقوله الله في كتابه العزيز : فعليك ان تُذكّر الناس في أوربا بمدلول هذه الآية القرآنية ، وقل لهم انك قد رأيت هنا على أرض ليبيا هذه

(١) بالعربية في النص الفرنسي .
(٢) سورة البقرة ، آية ٢٤٩ .
المترجم

الآلاف المؤلفة من المجاهدين المستعدين لسفح آخر قطرة من دمائهم في سبيل دينهم ووطنهم » .

وعند عودتي من تلك المواقع المتقدمة للجيش ، حدث وان سُرقتُ في خيمتي في ظروف غريبة . ففي حوالي منتصف الليل سمعتُ نباح كلاب المعسكر وركض حوافر حصان . وخلافاً لعادتي ، فإنني لم أغادر فراشي مكتفياً بمناداة رجالي طالباً منهم ان يتأكدوا فيما إذا كان كل شيء على ما يرام ، ثم عدت الى الاستغراق في النوم نظراً لشدة تعبي . وعندما صحوت صباح اليوم التـــالي ، اكتشفت ان محفظة نقودي قد سرقت مني وبها ألفا فرنك فرنسي ، وكُتيِّب مذكرات صغير ورزمة مفاتيح وجواب . وأعتقد ان السارق قد أمرَّ ذراعه من تحت رواق الخيمة ، وجذب سترتي فأفرغ ما في جيوبها ، ثم أعادها الى مكانها في خفـّة . وطالبت في الحال بإيقاف خدمي وتفتيشهم هم ومتطوعين جزائريين كانت لدي حولهم بعض الشكوك ، ففُتشوا وضُربوا – خصوصاً أحـــدهم (صالح) كان مسلكه قد بـدا لي مريباً . ولكن بدون فـائدة ، إذ لم يعترف أحدهم باقتراف السرقة . ولذلك فقد طالبت في النهاية بإطلاق سراحهم ، فيما عدا هذا الأخير ، وقررت ان أتناسى الموضوع واعتبرته إحـــدى مغامرات الحرب . ورأيت ألا أكاتب بخصوصه أحداً في فرنسا خشية ان أُتهم بالتـّغفـّل .

ولكن لم تمض على ذلك الحادث ثمانية أيام حتى تلقيت برقية من إدارة مجلتي في باريس ، هذا نصها :

« شرع الصحفي (بيفيوني)[1] ، مراسل جريدة (ستامبا) الايطالية في

---

(١) راجعت بنفسي في المكتبة الوطنية بباريس – قسم الدوريات ، حقيقة نشر الصحف الايطالية للمذكرات المسروقة من المؤلف فوجدت ان جريدة (ستامبا) الصادرة في (تورينو) وكذلك جريدة (الماتينو) الصباحية الصادرة في (نابولي) قد نشرت فعلاً هذه المذكرات التي تحصل عليها مراسلها الصحفي في طرابلس واسمه (بيفيوني) . انظر فيشات المكتبة الوطنية – قسم الدوريات – مجموعة مجلة الـ « اللوستراسيون » عدد رقم (٣٦٠٦) المسجلة بالمكتبة تحت اشارة تصنيفية رقم : (Lc 2 1549) .

طرابلس في نشر محتوى كراسة مذكرات مكتوبة بخطك عثرت عليها دورية ايطالية في ساحة القتال . نحن قلقون عليك . طمئنا عن أحوالك » .

وإذاً فإن سارقي هو جاسوس ايطالي له شركاء متواطئون معه تسرّبوا الى معسكر المجاهدين الليبيين!! وقد يكون أولئك المتواطئون هم خدمي الجزائريين أنفسهم . وأنه ما ان نجحت تلك الفعلة الغادرة حتى أسرع السارق عائداً الى مدينة طرابلس . وقد يكون لهذا علاقة بما تناهى الى سمعي مرة من ان قائمقام بلدة العزيزية السابق (علي الـ ..) ، الذي اشترى الايطاليون ضميره ، ما يزال له في هذا المعسكر علاقات مشبوهة مع أفراد مهمتهم التجسس على أحوال المجاهدين. فلا شك إذن في ان صاحب الفعلة هو أحد أعوانه . وهكذا فإن مذكراتي الأولى التي أودعتها تلك المفكرة المسروقة قد وقعت في أيدي الايطاليين ونشرت بجريدة (ستامبا) الايطالية التي أخذت الآن تشن حملة صحفية شعواء ضد مجلة (المصور) التي أتبعها. أما محفظتي ومفاتيحي المسروقة فلا بد وأن تكون الآن في مكاتب القيادة الايطالية باعتبارها غنيمة حرب !.. فتباً لهذه الأساليب الشاذة وغير النزيهة في فهم الايطاليين للعمل الصحفي ! حيث لا يتوانون عن نشر مذكرات صحفية مسروقة من أحد زملائهم في المهنة. والأكثر شذوذاً من هذا ألا يخجل الضباط الايطاليون من الاستحواذ ومصادرة حاجيات مراسل حربي أجنبي باعتبارها غنيمة حرب .

وأراد قائد الشرطة في المعسكر (محرَّم بَيْ) أن يواسيني ، فقال لي :

— « هوّن عليك ! .. فمن المستحيل أن يعثر المرء على ما سُرق منه .. فالسارق حين يسرق شيئاً فإنه قادر على تدبير غمد يخفي فيه مسروقاته ، حتى وإن كان ما سرقه هو صومعة مسجد ! » .

فقلت مؤمّناً على كلامه :

– « إن « الغمد » الذي أُخفيت فيه حاجياتي المسروقة هو مدينة طرابلس، وبالتحديد مكاتب القيـادة الايطالية فيها .. وعلى أية حـال فإن محفظة نقودي أصغر بكثير من صومعة مسجد واخفاؤها أسهل بكثير من إخفاء صومعة » .

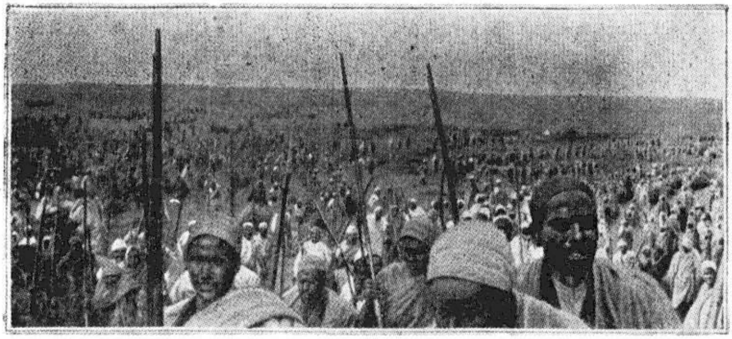
فأضاف (محرم بي) ، وهو الشرطي الحكيم :

– « ادفن مـا فات .. إذ ما جدوى التفكر فيه !.. ألم تسمع بقصة (نستادي هوجا) ، الثري التركي الذي كان يملك عبداً صغيراً ، إذ أمره بأن يذهب لملء إحدى جراره بالماء ، قائلاً له على الخصوص: إياك ثم إياك أن تكسر الجرّة !.. فانطلق الغلام ينفذ أمره . ولكن سيده هذا سرعان ما استدعاه من جديد وأخـذ ينهال عليه ضرباً بدون سبب ظاهر . وأثارت قسوته سخط جيرانه ، فتوجهوا إليه قائلين : هل جننت يا رجل ؟.. لماذا تنهال بالضرب على هذا الغلام بدون سبب وهو الذي لم يفعل ما يستحق أن يعاقب عليه ؟ فرد عليهم السيد قائلاً : الأفضل لي أن أقتص منه قبل أن يكسر الجرّة وليس بعد اقترافه كسرها ! » .

ثم عقّب (محرم بي) على هذه الحكاية قائلاً :

– « هكذا يجب أن نكون .. لكننا نحن الأتراك تنقصنا مثل حكمة هذا الرجل وتحوّطه للأمور مسبقاً .. ويبدو أنك أنت كذلك ، وقـد عاشرتنا وخالطتنا ، فإنه قد انتقلت إليك عدوى عدم التحسّب للأمور ، فلم تحتط بما فيه الكفاية فوقعت فريسة اللصوص كما وقعنا نحن فريسة للغزو الإيطالي لهـذه البلاد التي يفترض فينـا أن نذود عنها وندافع عن حماها ونستعد لذلك قبل أن يقع المحظور » .

وصحب (فرحات بَيْ) الى خيمتي مرةً امرأة من قبيلة (النوايل) تدعى (سليمة بنت مقوس) كي ألتقط لها صورة فوتوغرافية . وقد اشتهرت هـذه المرأة باشتراكها في جميع المعارك التي نشبت مع الإيطاليين عند طرابلس . وقد



جيوش المجاهدين في المواقع المتقدمة عند
منطقة فندق بن غشير



سليمة بنت مقوس احدى مجاهدات
قبيلة النوايل تلوّح بسيفها

أصابتها في صدرها إحدى الرصاصات فنقلت الى مرابض قبيلتها لعلاجها ولقضاء أسبوعين للنقاهة هناك . وها هي قد عادت بعد شفائها لتأخذ مكانها من جديد بين صفوف المجاهدين . وقد أُعجب (پول تريستان) ، مراسل جريدة (المرسيلي الصغير) الصادرة بمدينة (مرسيليا) بهذه المرأة وشجاعتها فأهداها حساماً . وقد التقطت لها صورة وهي تشهر هذا الحسام في الهواء بينما كانت تترنم بإحدى أهازيج الحرب . وسيجد القارىء هذه الصورة ضمن مجموعة الصور التي أنشرها مع هذه المذكرات .

وقد وصلت إلى هنا ، هذا المساء ، اثنتا عشرة امرأة محاربة من فزان .

ومن واجبي أن أصف لكم كل ما يدور حولي وأن أصور لكم جميع مشاهد المعسكر الرائعة ، فإليكم وصفاً لشخصية أحد الشجعان ، وهي شخصية تتمتع بأصالة فريدة ، وأعني بها شخصية ضابط المدفعية التركي ، الملازم (أحمد شكري بابا) ، وهو اسطنبولي يبلغ من العمر خمسين عاماً ، ويبدو بلحيته الكثة الطويلة وطلعته الجليلة كفيلسوف مهيب أكثر منه مجاهداً .

ويعيش هذا الرجل في طرابلس الغرب منذ إحدى وعشرين سنة . ويروى عنه أنه يوم بـــدأ الغزو الإيطالي ، بادر في ذلك اليوم فكمن بصحبة ثلاثين جندياً عند سواحل مدينة طرابلس ، حيث لم يكن بأيديهم من السلاح إلا أربعة مدافع ما لبث أن عطب أحدها واستمروا يتصدون بالثلاثة الباقية للإيطاليين ، بحيث تمكنوا من إعـــاقة وشغل سلاح مدفعيتهم بأكمله وحدهم . ويوم أن بدأ قصف منطقة (بن غشير) كان متواجداً بها ومعه قطع المدفعية المذكورة ، حيث ظل يقـــاوم طيلة ذلك اليوم ، ويرد على نيران مدافع البوارج الحربية الإيطاليـــة ، وهي (توزراتي) و (القبطان) — والتي صار الإيطاليون يطلقون عليها الآن اسم بارجتي « أ » و « ب » — والطرّاد المدرّع (صقلية) ، وكلها كانت راسية عند شواطىء طرابلس . وعندما تمكنت القوات الإيطالية

يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١١ من احتلال تحصينات (الهانيء) و (سيدي المصري) ، كمن (أحمد شكري بابا) وراء ربوة تشرف على جبهـــة العدو على بعـد كيلومترين، خلف مدرسة الزراعة ، من حيث ظل يقذف بنيرانه العدو المتمركز بمدينة طرابلس ، التي تبعـد عنه بنحو ستة كيلومترات . فتساقط العديد من قذائفه عند الشاطيء ، أمام الحديقة العامة ، وعلى سطح بيت يقع قرب الدائرة العسكرية في المرسى ،على بعد عدة أمتار من المكان الذي كانت ترسو فيه الباخرة التي كان الملحقون العسكريون الأجانب المعتمدون في طرابلس قد تجمعوا فوق ظهرها لمراقبة سير المعارك .وسقطت قذيفتان او ثلاث فوق سوق الخبز، واثنتان أخريان فوق المسجد القريب من المدرسة الحربية التي تحولت في هذه الحرب الى معسكر . وقد يقال ان (أحمد شكري بابا) لم يكن ليستطيع ، وهو الكامن في مركز بعيد ، ان يوجه قذائفه الى أهداف محددة ؛ ولكن – كما قـال لي هو بنفسه :

« كان الله يقود قذائفي الى أهدافها فتصيب تجمعات العدو » .

أما في معركة (عين زارة) ، التي وقعت يوم الرابع من ديسمبر سنة ١٩١١ ، فإنه قد تمكن – فيما يقول – من تسمير العدو في مواقعه لا يستطيع فكاكاً ، لمدة عشر ساعات ؛ مُهيئاً الفرصة بذلـك للجيش التركي للتقهقر دون خسائر . ولكنه في النهاية اضطر الى التخلي عن مدافعه الثقيلة التي كان يجرها مع معاونيه بين كثبان الرمال الوعرة .

ولقد كان لبطارية هذا الضابط صيت ذائع في مدينة طرابلس ؛ بحيث أطلق عليها الناس اسم « بطارية العفاريت » . فقد كانت قذائفهـا تتساقط على كل موقع ، على نحو مدهش ، دون ان يعرف أحد من أين تُصوّب . وقـد أثنت قيادة الجيش على (أحمد شكري بابا) ونوّهت من قدرته الخارقة للعـادة على التحرك والتنقل بهذه المدافع بسرعة ، رغم أنها كانت تغوص أحيـــاناً حتى

منتصفها في الرمال لثقلها . ولقد أعجبت أنا نفسي بهذا المدفعي الكهل الذي ظل يدير مدافعه مدة خمسة وأربعين يوماً متواصلة .

كنت منذ وهلة أرقب مجاهدي قبيلة (أولاد بو سيف) ، وهم يتدربون على إطلاق النار ، حيث رأيتهم يحسنون إصابة الأهداف التي كانوا يتدربون عليها ، والتي كانوا يقفون على بعد ثلاثمائة او أربعمائة متر منها ، مصوبين اليها بنادقهم التي تعودوا على حملها – فيما يبدو – منذ ان كانوا صبياناً .

والمؤسف حقاً ان تتمادى صحف أوربا في عدم الاعتراف بالبون الشاسع في العدد والعدة بين جيوش الغزاة الايطاليين الجرارة ، وبين جيوش المجـــاهدين القليلة العدد والسلاح . ولكن المراقب المنصف لا يسعه إلا ان يسخر من سلبية الايطاليين وخور عزائمهم ، وهم الذين بلغ عدد جنودهم هنا ستين ألف جندي مسلح؛فلم يتمكنوا خلال خمسة أشهر بطولها من التقدم سوى ثمانية كيلومترات. وقد بلـــغ من شجاعة الليبيين وجسارتهم أنهم ألصقوا على جدران طرابلس منشورات تتحدى الايطاليين ان يظهروا في شوارع المدينة . ولكن هؤلاء لم يردوا على ذلك التحدي سوى بإلقاء الآلاف من المنشورات من طائراتهم . فهم وقد عجزوا – فيما يبدو – عن دحر الليبيين بالسلاح، فقد اكتفوا بإغراقه بحرب المنشورات المليئة تارة بالتهديد والوعيد الأجوف، وتارة أخرى بالوعود المعسولة المخادعة . فالايطاليون لا يملكون الشجاعة الكافية للمخاطرة بأنفسهم بالتقدم عبر كثبان الرمال التي تفصلهم عن بلدة (العزيزية) القريبة ، ويبدو أنهـــم سيظلون مسمّرين في مواقعهم انتظـــاراً لحدوث تعقيدات سياسية وعسكرية أخرى في أوربا ، تضطر تركيا الى طلب الصلح . ولكن في رأيي أنــه حتى وإن سلـّمت تركيا ورضخت للشروط التي ستفرض عليها ، فإن ذلك لن يغير من سير الأمور على أرض ليبيا نفسها شيئـــاً . فالليبيون سيرغمون الأتراك الموجودين حالياً في بلادهم على البقاء وعدم الفرار ، ولذا فإن الحرب لها في كل الأحوال نتائجها الحميدة بالنسبة لليبيين.فهم يتلقون الأموال من مختلف الجمعيات

الاسلامية في آسيا وأوربا ، وهم يهجمون من وقت لآخر على القوات الايطالية ، او على تلك القلة التي استكانت للغازي ، فيسلبون من أولئك وهؤلاء السلاح والمؤن والأموال . إن هذا النمط من الحيـــاة يعجبهم ، وهم يواصلونه رغم الحرب والمجاعة في جو من الفرحة الغامرة . انهـا لقصة رائعة هذه الحرب ، ولكنـّه لا أحد يدري كيف ستكون نهايتها .

كنت أتسامر في الليالي مع الضباط وأطباء الهلال الأحمر ومراسلي الصحف الأجانب في أحد ديار المعسكر . وعموماً فإن حر النهار القائظ يتلوه ليـــل شديد البرودة ، حيث نجلس جميعاً حول مجمرة نار كبيرة طلباً للدفء ، وقـد فكّ كل واحد منا أزرار معطفه او سترته لتخزين بعض من حرارة النار . وفي تلك الأثناء ، كنا نلمح من النافذة رجال دوريات الحراسة وهم يمرون جيئة وذهاباً ، وقد التفـّوا بمعاطفهم ، حيث كانت هاماتهم السوداء البعيدة تبدو لي ، وسماء الليل صاف ، كأنها أشباح . أما في السهل فقد كنت أرى عن بعد لهب نيران المعسكر ، او أسمع صياح الديكة العربية التي يخيل إليّ ان صياحها وزعيقها أشد حدة من زعيق ديكتنا الأوربية ، او أكثر نفاذاً في الأذن منها بكثير ، وهي تصدح طيلة الليل ، مختلطة بين الفينة والأخرى بأنغام ناي ينفخ فيه أحد الجنود وسط جلجلة ضرب أكف الليبيين المتجمعين حول أحد المطربين الشعبيين .

وهكذا فقد كنا ، نحن مراسلي الصحف ، نتسامر كل ليلة مع الضبـاط والأطباء والجرحى والمرضى ، مرتشفين أكواب الشاي الأخضر او الأحمر التي لا نهاية لها . والأتراك مغرمون بالسهر والسمر حتى أخريات الليـل ، حيث يظلون يثرثرون مرتشفين أكواب الشاي او مستغرقين في تدخين لفائف التبغ . وكان الكثير من سمّارنا من الضباط مصابين بتلك الحمى المزمنة التي لا يكاد يفلت من الإصابة بها أحد هنا ، أما الآخرون فإنهم مصابون بجروح حديثة . ويظل هؤلاء المرضى والجرحى في صحبتنا مستلقين على الأرض وقـــد تلحّفوا

بأغطيتهم . أما رؤوسهم فقد كانت تظـــل مكشوفة لحرصهم على مشاركتنا أحاديث سمرنا . وفي بعض الأحيان نكون سعيدي الحظ بقدوم أحد الضباط الأتراك الجدد ، حيث يخرج الينا من جرابه علبة من « حلقوم حاجّي بكير » او رطباً تونسياً او تمر « دقله » مجلوباً من إحدى واحات الجنوب ، وهو تمر رائق لذيذ شديد الحلاوة كأنه قد احتوى على رحيق حرارة الشمس . وسواء أكان ما يقدمه الينا ذلك القادم الجديد : حلوى أم رطباً أم تمراً ، فإننا كنا نضع حباته او قطعه في أفواهنا ونظل نمتصها في بطء ، كأننا نتلذذ باستنشاق عطر ذكي ، او نتذوق خمرة عتيقة نادرة ، حريصين على الإبقاء على مذاق مـــا نمتصه في ريقنا أطول وقت ممكن .

وغالباً ما كانت أحاديثنا تدور حول الحرب الراهنة. غير أننا كنا نتطرق كذلك الى الحديث عن القسطنطينية وباريس وحركة تركيا الفتـاة . ولقد كانت تلك الصداقة التي عقدت الظروف عراها بيننا في تلك الليالي السامرة ، وذلك التآلف الذي ربط في هذه الحرب بيننا ، وسط تلـك الأخطار التي كانت تتهدد هؤلاء الضباط خصوصاً في ليبيـــا ، التي بدت معزولة عن بقية الدنيا – كل هذا كان يجعل السمر وتجاذب أطراف الحديث أمراً عفوياً وطبيعياً محبباً . ومع ذلك فإنني قد اندهشت لمدى اليسر الذي يستطيع به المرء ان يخوض به الحديث مع هؤلاء الأتراك، فيتطرق الى موضوعات حساسة جارية تخص سياسة بلادهم الداخلية والخارجية . فقد كنت أناقشهم بصراحة حـول الثورة التي قامت بها جماعة تركيا الفتاة التي أبعدت السلطان عن الحكم، او عن المسألة الماسونية او القضية اليهودية في بلادهم ، او عن تلـك الأخطاء الجسيمة التي ارتكبتها حكومتهم في ليبيـا او غيرها من الولايات الاسلامية ، او عن الأخطار التي صارت تتهدد تركيا.. الخ . فلمست لديهم حرصهم على ألا يظهروا أمامي بمظهر المتعصبين المتزمتين فيما يذهبون اليه من آراء .

ووقفنا مرة في نقاشنا عند موضوع التعصب ، يدلي كل منا برأيه حـوله ، فقال لي ضابط منهم برتبة ملازم :

« .. إن ما يشاع عن المسلمين من تعصب ما هو إلا كذب ومبالغة وبهتان ، إذ لا وجود للتعصب لدى المسلمين ، كما أنه ليس لديهم نية شن حرب صليبية ضد أهل الملل الأخرى » .

وتلاه ضابط تركي آخر ، وهو من أوائل من حملوا السلاح في هذه الحرب ضد الايطاليين وجرح فيها ، واشتهر بالشجاعة في معارك طرابلس . كما أنه قد سبق له وأن سافر إلى مراكش ، حيث تعرضت حياته هناك للخطر. إذ أنه قد حاول هناك إثارة الزعماء العرب ضد السيطرة والسياسة الفرنسية . فقال لي :

« إن مثل هذه الدعايات المغرضة ضد المسلمين ، هي في رأيي من الموضوعات التي اعتاد الصحفيون الغربيون على اجترارها ، جرياً وراء مادة صحفية لجرائدهم ومجلاتهم وإرضاء لأحقاد أعدائنا في أوربا ، أو إذكاءً لأحلام بعض الواهمين المخدوعين في بلادنا نفسها » .

فعدت أسأله :

« وإذن ، فما الذي تفعلونه الآن في طرابلس الغرب وسط هؤلاء الليبيين .. بل وما الذي دفعك الى الذهاب الى مراكش ؟ » .

« إن ما نفعله الآن هو نفس ما ستفعلونه أنتم الفرنسيون إذا ما خطر للإيطاليين أن ينزلوا في ميناء الجزائر أو ميناء مدينة تونس أو مدينة صفاقس » [1] .

ثم اعترف بأنه رغم العروة الدينية التي تجمع بين الأتراك والعرب فإن بينهما اختلافات وفوارق عرقية ، وتبايناً في لون البشرة وفي الملبس ، واختلافات جغرافية ولغوية . وخلص الى القول بأن وحدة العالم الاسلامي ، رغم أنها شيء

(١) إن هذه المقارنة التي يعقدها هذا الضابط التركي بين دور فرنسا الاستعماري في المغرب العربي وبين دور تركيا في ليبيا إن هو إلا دلالة على الإقرار من جانبه بأن وضع تركيا في ليبيا ما هو في التحليل الأخير إلا وضع استعماري . المترجم.

طبيعي بين أتباع دين واحد ، إلا أنها تتخذ في أفواه الأوربيين وفي كتاباتهم طابعاً تعصبياً يقصد من ورائه تبرير قيامهم بحرب ، مثل هذه التي تدور رحاها الآن ، درءاً لأخطار وهمية على أوربا من جانب العالم الاسلامي .

والحقيقة أنني ، وقد شاهدت ما شاهدت هنا، فإنني لأتساءل : كيف يمكن للمرء أن ينظر الى العلاقة القائمة بين الليبيين والأتراك إلا على أنها علاقة بين سيد ومسود . وكيف للمرء أن يفترض بين جنسين شديدي الاختلاف والتبـاين في الطبيعة والسلوك ، على هذا النحو ، التقاءً في عاطفة واحدة ؟

فالتركي دائماً ، وحتى في لحظات حيـــاته الأكثر تعرضاً للخطر ، شخص قادر على كبح جماح نفسه والسيطرة عليها ، فهو يتمتع بهدوء وسكينة طبيعية تكاد تشبه البلادة . فهـا أنذا أرقب أحدهم وهو يعد مشروب الشاي .. فهو يصبه في الأكواب بكل حذر ، ثم يعيده الى الابريق ، ثم يضيف اليه النعناع ، وبعد ذلك يرمي فيه قطعة كبيرة من السكر ثلمها من رطل السكر المتصلب كالصخرة بقادوم خاص ، ثم تنـّى فأضاف اليه أوراق نباتات عطرية أخرى . وبعد ذلك رفع الإبريق [البرّاد] الى أعلى حيث تقاطر منه خيط الشاي الرفيع مندلقاً ببطء في أكواب الشاي الصغيرة المرصوفة على صينية من النحـــاس التي حفرت بها النقوش الزخرفية . ثم رفع إحداهـا إلى شفتيه ببطء ورشف منهـا رشفة صغيرة لتذوقها ، وبعد ذلك عاد فصب محتوى الأكواب في الابريق من جديد ، ثم أعاد ملئها ، ثم أفرغها من جديد ، وهكذا عدة مرات . وعندما اقتنع بأن المشروب قد أصبح أهلاً لأن يوزع على الحاضرين، أمرّ الصينية علينا، فتناول كل منا كوبه الصغير[١] .

(١) اطلعت مرة في ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية بمكتبة (الكاي دو رساي) بباريس، على مراسلات القناصل الفرنسيين في بنغازي أثناء النصف الثاني من القرن الماضي . وقد استلفت نظري أن أحدهم قد ذكر في تقرير خطي إلى رؤسائه ما مفاده أن عادة شرب الشاي لم تنتشر بين الليبيين إلا حوالي سنة ١٨٨٠ ، وان واردات ميناء بنغازي من السكر والشاي قد أخذت تتضاعف كل سنة منذ ذلك التاريخ . وكانوا قبـــل ذلك لا يعرفون إلا مشروب القهوة . وقد رأيت أن أطلع القارىء على ذلك للفائدة . المترجم

ولقد كان الكاتب (شاتوبريان) يداوم على تناول الشاي لدى مدام (أولاري) ، كما كانت (كورين) بطلة إحدى قصص (مدام دي ستايل) تتناول هذا المشروب لدى (الليدي أو جيرموند) .. فبحسب طقوس متشابهة ، كان ذلك الكاتب الفرنسي وكانت تلك البطلة الروائية ، يقولان : « عزيزتي ! .. هل تعتقدين أن الماء قد غلى في الإبريق بما فيه الكفاية ، وهل آن لنا أن نضيف اليه الشاي ؟.. فترد الأخرى : لا يا عزيزتي ! إنني أعتقد أنه لم يغل بعد ! » .

أما فيما يخصني أنا ، فإنني قد كنت أعتقد وأنا أرقب بصبر حركات ذلك التركي وأقرأ تعابير وجهه وهو مشغول بإعداد شايه ، أنه لا بد وأنه يتصرف على هذا النحو أيضاً عندما يقبع وراء مدفعه في القتال !

ثم روى لنا أحد الضباط هذه النادرة الطريفة :

« حينما كنت ملازماً صغيراً ، جرى تعييني في نقطة منعزلة في جبال (مقدونيا) ، حيث أنيطت بي مهمة مطاردة العصابات الخارجة على القانون . وحدث أن استلمت في أحد الأيام رسالة من صديق ، كل الحاضرين هنا يعرفونه ، فهو موجود في هذه الساعة بيننا ، وهو من أذكى ومن أشجع رجالنا فهو الذي نظم المقاومة هنا ووضع خططها ، لكنني لا أريد أن أكشف عن اسمه . وكانت رسالته الموجهة إليّ تلك تقول : لقد قبضت متأخرات مرتبي ، فاطلب من رؤسائك إجازة والحق بي في القرية الفلانية ، ومنها سنتجه بالقطار إلى (سالونيك) . وكانت (سالونيك) في تلك السنوات التي كانت تغلي فيها مراحل الاستعداد للثورة ، قبلة لمثقفينا وسياسيينا . فقد كنا نذهب إليها من حين لآخر للتداول والتفكر في أوضاع بلادنا السيئة ، ونقوم فيها باتصالاتنا مع العالم الخارجي ، بعيداً عن الشبهات وعن أعين حكومة السلطان. والمهم أنني ذهبت إلى الموعد حيث وجدت صديقي في انتظاري فاستقبلني فرحاً ومعانقاً. ولكنني ما لبثت أن لاحظت امتقاع وجهه ، فسألته عن الأمر فبادرني بحزن قائلاً : إننا

لن تذهب إلى (سالونيك) هذه المرة ، فقد سُرقت مني كل نقودي ، بل إنني مضطر أن أطلب اليك أن تعطيني سلفة أستطيع بها أن أدفع إيجار حجرة الفندق . وأمضينا بالفندق تلك الأمسية ، ثم جلسنا للعشاء حيث حمل إلينا صاحب النزل قنينة خمرة. ولم أكن في تلك الفترة شديد التدين ولذا فإنني لم أرفض تلك الخمرة . ولكن ، ولشدة دهشتي ، لاحظت أن صديقي قد رفض تذوقها . فنظرت إليه متسائلاً عن السبب ، فصاح بي قائلاً : الخمرة هي سبب كل ما وقع لي ! .. فعندما كنت جالساً بالأمس في هـذا المكان انتظر مقدمك ، شربت قنينة مثل هذه ، وحينما دار مفعولهـا برأسي خُيل إليّ أن هذا النزل قد أصبح جنة من جنات الأرض ، فـأسندت رأسي إلى الخلف لا أحركه خشية أن تطير منه النشوة . ومع ذلك فإنني أحسست أن شخصاً قد مرّ من خلفي وأخذ يجذب بهدوء وخفة مخلاتي ثم اختفى بها . وكان ذلك المشهد قاسياً ، فطلبت من الله أن يمنحني من القوة ما أستطيع أن أقاوم به ما أحسسته من وجوب القبض على اللص ، فقد كنت متأكداً من أن أقل حركة أقوم بها ستطرد عني لذة النشوة التي بعثتها الخمرة في أوصالي ؛ بحيث أن مجرد فكرة مطاردة السارق بدت لي وأنا مخمور خطراً يتهدد نشوتي الحلوة . وأخيراً تمكنت من طرد فكرة مطاردته وبقيت مستغرقاً في نشوتي. وللأسف فإن تلك الرحلة الخادعة في أحلام الخمرة قد كلفتني كما ترى نقودي وحاجياتي كلها .. هذا هو ما يستدعي عودتنا إلى مراكزنا وتأجيل التنعم بإقامتنا في (سالونيك) إلى مرة قادمة » .

ثم أردف محدثنا قائلاً :

« فقلت له : على الأقل ، الآن يمكنك أن تشرب من هذه الخمرة التي أحضرت إلينا ، إذ لم يعد معك ما تخاف على سرقته وقد ضاع منك كل متاعك. وبالفعل ، فإنني لم أحتج إلى طويل إصرار .. إذ ما لبث أن شاركني شربها » .

تتميز شخصية التركي بالجنوح إلى الخيـال وهدوء الأعصاب . فـإنني وسط

هذه الجموع من الليبيين المتميزين بعنف الطبــاع وحب العراك وعدم الرضى عن شيء ، وارتفاع الصوت ؛ لم أسمع أبداً ضابطا تركيا يحتد أو يرفع صوته على الآخرين : فكيف لهؤلاء الأتراك – البيض البشرة ذو العيون الزرقاء والشعر الأشقر ، المكتنزي الأجسام – أن يتحكموا في هؤلاء العرب الغليظي الطبع الدائمي الزعيق وخبط الأيــدي ؟ .. فمع اختلاف الأتراك عن الليبيين في الهيئة والملبس واللغة ، إلا أن طاعة هؤلاء لهم تبدو لي كاملة .

فما هي يا ترى العواطف التي جــذبت الأتراك إلى هذه الأرض وقبول العمل فيها ، وهم الشباب المثقف الذي يضم طائفـــة ممن سبق لهم وعملوا كملحقين لسفارات تركيا في البلدان الأوربية ، أو ممن ينحدرون من عائلات القسطنطينية العريقة ؛ منهم شباب متمدين ومرهف ، داخلته العادات الأوربية ، وقد يكون من بينهم من كان منذ أيام معدودة جالســا في أحد مقاهي مدينة (صفاقس) التونسية وقد ارتدى الملابس والبرنيطة الأوربية وأمامه كأس من الشمبانيا أو « ماء الحياة » المعتق ؟ .. وأيضــا ، أي فكر مشترك يجمع بينهم وبين هؤلاء الليبيين الذين يعتبرونهم شعباً صلفاً جافياً ، وما هو الداعي الذي يــدفعهم إلى الدفاع عن حرية بلد كليبيا التي يبدو لي أن تفوق قوات غزاتهـــا الإيطاليين العددي والتجهيزي يجعل الانتصار عليها أمراً شبه مستحيل ؟

ولا شك في أن معظم هؤلاء الضباط كان بالأمس القريب من بين صناع ومؤسسي ومنفذي ثورة تركيا الفتاة الأخيرة. وهم الذين سبق أن حملوا مسئولية ضياع ولايتين من ولايات الامبراطورية العثمانية ؛ وهــا هم من جديد في وضع سيء آخر ، قد نجم عن غزو إيطاليا لولاية ثالثة هي طرابلس الغرب ، وهو أمر يكاد بدوره أن يذهب بالبقية الباقية من سمعتهم وهيبتهم. أفلا تكفي إذن رغبتهم في الحفاظ على شرفهم العسكري وحدهــا في دفعهم إلى القدوم إلى أرض ليبيا الدفاع عنها ؛ لا من حيث أنها ولاية يهمهم أمرها في حد ذاته ، وإنما من أجل حماية ثورتهم نفسها ، التي قاموا بها ضـــد النظام السابق عليهم ، ولكي يثبتوا لخصومهم أنهم إذا كانوا قد اتهموا بالتفريط في ولايات الإمبراطورية العثمانيـــة

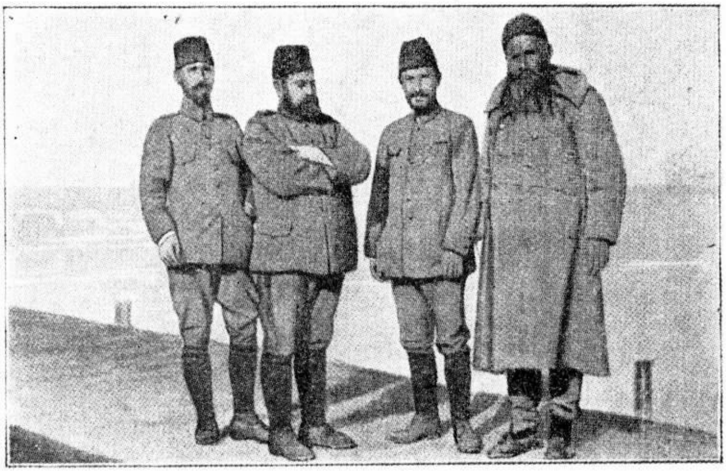
والإسهام بأخطائهم في تقطيع أوصالها ؛ فإنهم الآن لعلى أتم الاستعداد لأن يدفعوا ثمن تلك الأخطاء من أرواحهم ودمائهم على أرض ليبيا ؟

ولكن في هذا الجزء البعيد القاصي من الأمبراطورية العثمانية،الذي يبدو أن معركة الأتراك فيه خاسرة سلفاً ، نظراً لتفوق عدوهم عدداً وعدة ؛ فإن المقاومة والصمود يتطلبان – زيادة على الشجاعة التي أعترف أنا بأن كلا من الأتراك والليبيين يتحلون بها – تأهيلاً وقدرة عسكرية وصبراً وحنكة سياسية.. فما هي وسائلهم ، وما هي دوافعهم إلى إذكاء هذه المقاومة وهذا الجهاد وهذا الصمود إذن ؟

إن الكل هنا يجمع على رد واحد على اسئلتي هذه : إنه الدين الإسلامي .

وبصرف النظر عما يدعمون به قولهم هذا من براهين وحجج ، إلا أنني أعتقد من جانبي أيضاً ، أنه بالنسبة لأزمة كهذه التي تتعرض لها ليبيا الآن ، فإن العاطفة الدينية هي فعلاً وحدها القادرة على إثارة نفوس الرجال وتوحيد الصفوف ضد العدو الإيطالي . فالليبيون والأتراك يجمعهم دين واحد ؛ أفلا يكفي هذا وحده إذن لوقوفهم للجهاد صفاً واحداً ؟ والإيطاليون ينتمون إلى دين آخر : أفلا يكفي هذا أيضاً لملء قلوب هؤلاء المسلمين كراهية وحقداً على أولئك القوم الذين جاءوا لغزو ديارهم ؟ ألم يشهد العالم من قبل أمثلة أخرى هبّت فيها شعوب للكفاح والجهاد ضد أعدائهم في العقيدة الذين أرادوا اغتصاب بلادهم ؟

والليبيون أنفسهم ؟ ما الذي يرغمهم على إطاعة أوامر هؤلاء الأتراك الذين خذلوهم يوم نزول الايطاليين على شواطىء بلادهم ، فاعتقدوا أنهم لن يقفوا إلى جانبهم في جهادهم أبداً ؟ : إنهم يفعلون ذلك لأنهم يرون فيهم إخوة في الدين ولأنهم كذلك مبعوثو السلطان العثماني الذي لا يعد مجرد حاكم زماني وقائد عسكري فحسب،بل وخليفة المسلمين أيضاً،ولأنهم يؤمنون في أعماق نفوسهم بأن



كبار ضباط القيادة التركية في طرابلس الغرب . من اليسار الى اليمين :
المقدم فتحي بك رئيس الأركان ، العقيد نشأت بك القائد العام ،
النقيب طاهر بك ، ونقيب سلاح المدفعية أحمد شكري بابا



فندق بن غشّير : الجيش يحيط بخيمة فرحات الزاوي بك
نائب طرابلس في مجلس المبعوثان

العرب والأتراك يشتركون في أنهم مسلمون ينتمون إلى أمة .. هي خير أمة أخرجت للناس ، في رأيهم .

ولا شك في أن هنالك دوافع عاطفية أخرى تضاف إلى العاطفة الدينية ، وأهمها عاطفة المواطنة والانتماء إلى وطن ليبي هو امتداد للوطن العربي ، هذه عاطفة خاصة يتميز بها العرب تميزاً واضحاً . زد على ذلك ما اقترفه الإيطاليون من تقتيل بين أهل طرابلس يوم بدأت عمليات غزوهم . وأخيراً ، ما يعتقده الليبيون من أن الإيطاليين هم أفقر شعوب الأرض وأنهم ما جاءوا لاحتلالهم إلا لأنهم لم يعودوا يجدون ما يقتاتون به في ايطاليا نفسها ، فقد دفعهم – في رأي الليبيين – القحط والجوع والبؤس في بلادهم إلى الهجوم عليهم لسلب أرزاقهم ولطردهم من حقولهم وديارهم وللاستحواذ على خيرات أرضهم .

ولست أعتقد أنني سأتجنى على الأتراك إذا اعترفت هنا بأنني قد لمست أن عدداً من ضباطهم لم يعودوا يلتزمون بما يأمرهم به دينهم الاسلامي من التقوى والورع . ولكن لا عجب في ذلك ، فإن اطلاعهم على كتبنا وتشربهم لثقافتنا الغربية قد طعمت نفوسهم وعقولهم بمسحة من الشك الفكري الحديث . وعلى العكس من ذلك فإنني لم ألمس لديهم تشبعاً كافياً بالمبادىء الثورية ، كما يفهمها الغرب الأوربي ، وذلك بالرغم من أن الخدمة العسكرية قد فتحت أمامهم باب التنقل والإقامة في جميع أطراف الامبراطورية العثمانية ، مما أتاح لهم التمرس بواقع الحروب وواقع التأخر والبؤس اللذين ما تزال ترزح تحته بلادهم ، وما يبعثه ذلك في نفوس بعض العسكريين عادة من إرادة لتغيير الواقع المتردي الى واقع أفضل عن طريق اعتناق مبادىء ثورية متطرفة .

ولقد سألت أحد أولئك الضباط الذين لعبوا دوراً أساسياً في الثورة التركية ، عن الأسباب التي تجعله ما يزال يعتقد في إمكانية تخليص بلاده من ربقة

للأخطار الكثيرة التي تتهددها بالانهيار وبزوال امبراطوريتها الواسعة ، وعما يراه من حلول لخلاصها ؟ فرد عليّ قائلاً :

— « إن الذي سيهيء لنا الخلاص هو مجيء سلطان عظيم لحكم تركيا العثمانية التي لم تبخل في الماضي بأمثاله ؛ أما في هذه الساعات الحاسمة ، ونحن نجتاز هذه الأزمة الحضارية الحادة ، فإنه لا بد لنا من عدم التعويل سوى على قوة جيشنا وخصال وشيم شعبنا التركي الدينية والعائلية والقتالية ، وما يمكننا أن نستمده منها من معنويات لا ينضب لها معين » .

وانتقلت معه الى موضوع آخر من موضوعات النقاش ، فقلت له :

« إن الثورة التركية قد أعلنت منذ اندلاعها أنها قد استوحت مبادئها من مبادىء الثورة الفرنسية ، وفي رأيي أنها لم تترو في هذا الصدد بما فيه الكفاية ، ولم تتفكر فيما قد تجر إليه مبادىء ثورية من هذا القبيل من إمكانية قيام الحروب وحدوث الغزوات وتقطيع أوصال الامبراطورية العثمانية . فالواقع أنه لو لم تقم الثورة الفرنسية ، فإن نظام الحكم الملكي الفرنسي السابق عليها ما كان له أن يساعد على قيام سياسة القوميات الأوربية — وهي السياسة التي ترتبت فعلاً على قيام الثورة الفرنسية — ومن ثم فإنه ما كان لإيطاليا أن تتوجس أخطار مثل تلك السياسة الفرنسية الجديدة ، حيث اتجهت هي الأخرى الى لمّ شعث قواها ومحاولة الوقوف نداً لفرنسا الثورة ومنافساً وخصماً لدوداً لها على جميع شواطىء البحر الأبيض المتوسط . ومهما يكن الأمر ، فإنني مدين لثورتنا الفرنسية ولثورة تركيا الفتاة بما أتاحتاه لي من فرصة التسامر معك هذه الليلة في معسكر (العزيزية) المواجه للخطوط الأمامية الإيطالية » .

ومن خلال نافذة الحجرة ، كنا نلمح من آن لآخر ، مرور الأنوار الكاشفة التي كان الايطاليون يديرونها من معسكرهم المواجه لنا فتكنس بأضوائها سهل (العزيزية) ، منيرة هامات الخيام وشرفات بيوت البلدة . وسمعنا فجأة صوتاً

مدوياً أصمّ عـــلا حتى غطى على لغط الساهرين في معسكرنا : وكان ذلك الصوت المجلجل صادراً عن مدافع الايطاليين الميدانية في (عين زاره) وعن مدافع سفنهم الحربية الراسية في البحر ما بين منطقتي (قرقارش) و (جنزور) ، حيث كانوا يواصلون إطلاق قـذائفهم على جموع الليبيين العزّل أو على إحدى قوافل البادية المتنقلة بين كثبان الرمال .

وبعد صمت طويل ، بادرني محدثي التركي فجأة ، قائلاً :

« يبدو لي أنك تمقت الثورات » .. ثم أضاف : « .. أما أنا فإنني ثوري ، لأنني قد أسهمت في تغيير إطار المؤسسات الدستورية في بلادي ، واشتركت في عملية الاطاحة بالسلطان ؛ إذ أنني قد قبضت عليه بيدي هاتين وسقته أسيراً بنفسي. ولكن دعني أؤكد لك أننا نحن الضباط لم نقم بثورتنا إلا باسم حقوق وطننا التي تراءت لنا مهددة، وليس انطلاقاً من أفكار طوباوية مثالية غامضة. فنحن وقد تلقينا تربية عسكرية وخلقية راقية ، فإننـــا قد أردنا أن نقيم في وطننا نظاماً قائماً على العدل كما هو الشأن في البلدان المتمدنة . فقد كان كل شيء ينهار ويتهاوى في بلادنا تحت ظلم الطغاة المتسلطين : فهل ترانا قد تأخرنا في القيام بهذه الثورة فتمّت بعد فوات الأوان ؟ .. وهـل كنا جميعاً على مستوى المسئولية التي أردنا تحمل تبعاتها ؟ أم أن الكثيرين منا قد خانوا مبادىء الثورة التي نادينا بها ؟ »

وشرد بخياله حالماً برهة من الوقتَ ، ثم أردف قائلاً :

« وبطبيعة الحال فإن حدوث أزمة كتلك التي صاحبت قيـــام ثورة تركيا الفتاة ، في حقبة حاسمة من تاريخنا ، كان لا بد وأن يترتب عليه انهيار الكثير من الخرائب والأنقاض المتداعية التي كنا قد تسمّرنا فوقها سنينَ طوالاً خاملين : فهل سننجح في إنقاذ هـذه الامبراطورية الواسعة ، أم على العكس من ذلك فنحن لم نقم سوى بالتعجيل بتبديدها وزوالها ؟.. وعلى أية حال ، فإنه ليس

على المخلصين ، إذا هم رأوا الأمور تسوء ، سوى القيام بعمل مـا والاجتهاد في إصلاحها ، متحملين العواقب » .

ولست أدري فيما إذا كان بقية زملاء هذا الضابط التركي يفكرون على شاكلته ؛ لكن الذي لا أشك فيه هو أن الضرورة هي الرحم الذي ينجب الأفكار العظيمة : فإلى أين ستفضي بهؤلاء الجند الأتراك أفكارهم الشكوكية التي تشربوهـا من الثقافة الفرنسية ، وإلى أين ستقودهم فلسفتهم الطوباوية الحالمة ؟.. هل سيتمادون في تلك الأفكار وتلك الفلسفة باحثين فيها عن بلسم لجراح وطنهم ؟ أم أنهم سيطلّقونها راجعين الى فلسفة دينهم الاسلامي الذي لا بد وأنهم قد أحسوا فوق أرض ليبيا ، التي أمدها هذا الدين بروح الجهـاد في هذه الأوقات العصيبة ، بأنه هو المصدر الذي يكمن فيه سرّ قوتهم في الماضي ، فلا يلبثون أن يعودوا الى الأخذ بتعاليمه الأصيلة ؟

وتذكرت عبارة (القديس توما)[1] القائلة : « إن العقل هو الثدي الذي يتغذى من لبنه الايمـان » . ولعـل الأتراك قد أدركوا ذلك فاسترشدوا بنور عقولهم وتبيّنوا أن لا خلاص للمسلمين ولا سبيل لهم للوقوف معاً ضد أعدائهم إلا باسم الاسلام نفسه .

وقلت في نفسي : نعم ! الاسلام هو وحده الكفيل بتوحيـد جهود أولئك البدو الرحل قاطني الخيام ، والبربر قاطني دهاليز الكهوف من ناحية ، وبين هؤلاء الضباط الأتراك الشبان الذين تشبعوا بالثقافة الفرنسية وقرأوا كتابات (ارنست رينان) و (أناتول فرانس) و (ستندال) ، من ناحية أخرى . فإن الانطواء تحت راية هذا الدين لكفيلة بأن تخلق منهم مجاهدين قادرين على أن يخوضوا سوياً حربهم المقدسة ضد ايطاليا .

(١) ويلقب بـ (ديديم) وهو أحد الاحبار الرسوليين المسيحيين الإثني عشر .

المترجم

ولقد قال لي (فرحات بَيْ) مرّة :

« الحرب المقدسة » !.. لا تذكر هذه العبارة في مقالاتك عنا بربك . إذ أن التلفظ بها كفيل بأن يحمل الناس في فرنسا يظنون بنا الظنون . قل عنا ، إن أردت ، اننا مواطنون يرتدون أسمالاً مهترئة ممزقة ويمشون حفاة الأقدام ، تماماً كما كان يفعل جنود الثورة الفرنسية . ولكن لا تقل أننا متعصبون للدين » .

ثم ازداد حماسة فأردف قائلاً :

– « إذا عنّ للحكومة التركية أن تتخلى عنا في هذه الظروف ، فإننا سنعلن من جانبنا أنه لم يعد لها أي حقوق في بلادنا ليبيـــا ، ولسوف نعلن الجمهورية الطرابلسية ، وسترى أننا سنثبت للعالم أجمع أننا بقوتنا وحدها لقادرون على الذود عن حمى أرضنـــا ، كما كانت تفعل بلادك فرنسا كلما تعرضت لغزو خارجي » .

ولقد كان الرجل يقول حقاً وينطق صدقاً ، يدلل عليه اتّقـــاد عينيه وإخلاص عباراته . وهكذا فإن قرائي لعلهم يدركون مدى عمـــق العواطف الوطنية النبيلة التي تغلي بها أفئدة الليبيين هنا كالمراجل .

متعصبون ؟.. العرب قوم متعصبون ؟ – لست أصدق ذلـــك ، واذا عنّ للبعض عندنا ان يصموهم بالتعصب ، فإنني أقول لهم : وهل يقلّ الفرنسيون عن الليبيين تعصباً كلما كان هنالك خطر يتهدد الوطن ؟.. ان كلمة « تعصب » قد أصبحت تستعمل في لغتنا استعمالاً عشوائياً وكثيراً ما قصد بها غير ما تعنيه . فلنفترض ان ميزان القوى في العالم الحاضر قد انقلب ، وأصبح الشرق بدوره هو المتجه بأطماعه نحو الغرب وأخذ يستعمر البلدان الأوروبية ؛ فإن الغرب سيتجه بدون شك الى الدين المسيحي ، الذي هو الدين المشترك بين الشعوب الأوروبية ، يستلهمه وسيلة للدفاع عن أوروبا . ولا شك في ان أداة الدين ستكون أقوى

أسلحته . فهل يحق للشرقيين في تلك الحالة ان يتهمونا بالتعصب الأعمى، كما نتهمهم نحن الآن ؟

لقد شطبت فعلاً من نصوص هذه الانطباعات والمذكرات التي أسجلها عبارة « الحرب المقدسة » عـدة مرات إرضاء لـ (فرحات بَيْ) الذي يكره مني استعمالها ؛ ولكنني أرى الآن في مخيلتي وسأتذكر طيلة حيـاتي صورة هؤلاء المجاهدين الليبيين الذين ما انفكوا يتوافدون حتى مساء هذا اليوم وقد تعالت صيحاتهم بين دقات طبول الحرب مرددين : « وليْد .. وليْد ! »[1] مئـات المرات . كما سأتذكر دائماً صورة ذلك الشيخ العجوز وقد تمزق برنسه ، وقـد حلـّت حزامه طبنجة قديمة وفي يده اليمنى بندقية (بو صوّانة) التي يبلغ طول قصبتها أكثر من متر بحيث تجاوزت مستوى رأسه ، وبيده الأخرى خنجراً ، بينما حمل فوق ظهره حزمة من الحطب والعيدان الجافة جمعها على طول الطريق لكي يوقد بها ناره ، رافعاً وجهه الى السماء وقد سبلت جفونه وانفرجت شفتاه وارتعشت لحيته ، وانسدلت خصلة شعر « شوشة » صغيرة في رأسه المحلوق ، وهو يردد وقد تعب جسمه الواهن من ثقل ما كان يحمله من أسلحة ومتاع :

« الجهاد في سبيل الله .. الجهاد في سبيل الله ! » ، وهي العبارة التي تقابل بالفرنسية ما معناه ضمنياً : « الى الحرب المقدسة لنصرة حق الله » .

نعم ! الى الجهاد والى الحرب المقدسة في سبيل الله ولنصرة حقه !.. تلك هي الصيحة التي تستجيب لها جميع القبائل القاطنة في كل جبل وسهل ، وفي (فزان) وفي مرابض (الطوارق) . تلك هي الصيحة التي تموت وتتوارى في خضم دويها الهائل الضغائن القديمة وتولد معها من جديد العروة الوثقى للجهاد ضد « الكفار » .

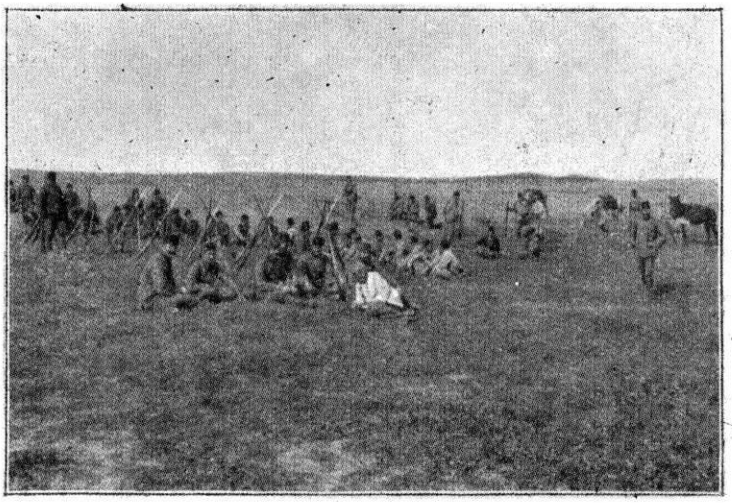
---

(١) بالعربية في النص الفرنسي . المترجم

وظللنا نتحدث على ذلك النحو حتى ساعة متأخرة من الليل . وفي تلك الأثناء كنا نحتسي الشاي بدون انقطاع . وكانت دوائر دخان سجائرنا الكثيفة التي كنا ننفثها في تلك الليلة من الكثافة بحيث كنا لا نكاد نتبين وجوه بعضنا البعض إلا عبر ضبابها الحليبي اللون . ولم أسمع قط من أولئك الحاضرين أحداً يزفر زفرة أسف او يتمتم تمتمة أسى . فتلك الجلسة لم تكن تسيطر عليها المودة المتبادلة فحسب بل والبشاشة والابتهاج أيضاً . ولم يكن هنالك أي أثر للحزن على الوجوه . ومع ذلك فهل سنلتقي هنا غداً ؟.. ان أحداً منا لا يهمه ذلك ، فالحرب ترضي كل ميول الانسان العميقة .

ثم حانت ساعة نومي فقمت وشددت على أيدي الجميع التي امتدت في اتجاهي لتوديعي . وعندما كنت أنزل سلالم الغرفة ، سمعت ضربات عنيفة بمؤخرات البنادق وبالعصي تطرق بشدة باب المعسكر . ثم فُتحت فلقتاه الضخمتين ، فإذ هي قافلة جديدة من قوافل المجاهدين قد وصلت في تلك الساعة المتأخرة من الليل. وشاهدت القادمين وقد أخذت بنادقهم الطويلة التي حُلّيت برسومات نحاسية دقيقة تلمع في ظلمة الليل ، ولمحت رؤوسهم تتحرك بين هامات جمالهم كالأشباح البيضاء ، وسمعت أصواتهم وهي تأمر الجمال بأن تبرك مرددة « زعْ !.. زعْ !.. زعْ ! » ؛ فكانت الإبل عند سماع تلك الكلمة تبادر الى طوي أخفافها باركة وقد علا هديرها واحتجاجاتها المبحوتة . وما لبثت ساحة المعسكر ان امتلأت بالقادمين ودوابهم . واخترقتُ الساحة في صعوبة ، إذ كنت أتحاشى رفسات الإبل التي كانت تنخر بأشفارها في اتجاهي . وأخذت أمرق من تحت بطن جمل واقف تارة او أقفز من فوق ظهر آخر راقد ، تارة أخرى . فلم أبلغ خيمتي إلا بعد جهد جهيد . وكنت قد مررت في الخلاء ببضعة كلاب بيضاء أخذت تشم الأرض في مواقع أقدامي ثم تعود الى الاستلقاء دون ان تثور ثائرتها . وتعثرت رجلي فوقعت في حفرة بين كثبان الرمال .

وعندما وصلت الى خيمتي سمعت صوت خادميَّ (بو بكر) و (التوهامي)



سرية من الجيش التركي النظامي عند خطوط المجاهدين المتقدمة
في « سواني بن يادم »



مجاهدو قبيلة أولاد بو سيف يتدربون على إصابة الهدف

الذين كانا ما يزالان ينتظران أوبتي المتأخرة: «هذا أنت يا مسيو (ريمون)؟.. تمسي على خير ! » . فرددت عليهم : « تصبحون على خير » .

يوجد بالمعسكر في الوقت الحاضر مؤرخ انجليزي خارق للعادة ، هو المستر (أبوت) والذي وصل الى هنا منذ شهرين ، وهو لم يخلـع عنه منذ وصوله « الروب دي شامبر » والشبشب ، حيث يظل جالساً او مستلقياً فوق سريره ، مستغرقاً في تحرير مذكراته و « ملاحظاته » التي لا نهاية لها !.. بيد انه قد حدث مرة واحدة وان غادر برجه العاجي للذهاب لزيارة المواقـع الأمامية للمجاهدين ، ولكن حدث ان سرج الحصان الذي امتطاه قد أحدث أوراماً بعجيزته لصلابته ، فقرر منذ ذلك اليوم ألا يغادر حجرته قـط ، مكتفياً بتخيّل مادة كتاباته . وهو يشكو دوماً من ان أطباء المعسكر لم يهتموا بجروح عجيزته بما فيه الكفاية . ومن المؤسف ان الكاتب (رود يارد كيبلنج)[1] قد فاته التعرف على هذه الشخصية الفـذة الغريبة الأطوار ، فهي تذكرني ببعض شخصياته الروائية .

عثرت في المعسكر على أحد أعـداد جريدة (بريد تونس) ، فاطلعت فيها على أخبار الحملة الصحفية العنيفة التي تشنها الصحافة الإيطالية بخصوص موضوع تهريب الأسلحة من تونس إلى المجاهدين الليبيين على أيـدي التونسيين ، متهمة في ذلك الحكومة التونسية والضباط الفرنسيين العاملين في الجنوب التونسي .

وحيث أنني على اطلاع واف على هذا الموضوع ، استناداً على ما رأيتـه ولمسته بنفسي في تونس وعلى ما لمسته هنا ؛ فإنني أستطيع الجزم بأن الحكومة

(١) (رود يارد كيبلنج) كاتب انجليزي ولد في مدينة بومباي بالهند سنة ١٨٦٥ وتوفي سنة ١٩٣٦ . وقد اشتهرت كتاباته بتمجيد الاستعمار الانجلو – سكسوني . وهو مؤلف رواية (كتاب الادغال) التي حولت الى فلم سينمائي شهير . وقد تحصل كيبلنج على جائزة نوبـل في الآداب سنة ١٩٠٧ . المترجم

التونسية[1] والضباط الفرنسيين العاملين فيها قد حافظوا ، وأرغموا التونسيين دائماً على الحفاظ ، على حياد فرنسا في هذه الحرب وعدم التدخل لمساعدة أي الجانبين فيها . نعم لقد عبر حوالي واحد وستين ضابطاً تركياً إلى طرابلس عن طريق الأراضي التونسية ، ولكن لم يكن من حقنا منعهم من ذلك ، ما داموا قد خلعوا بزاتهم العسكرية ولم يكونوا يحملون أسلحة .

وعلى أية حال ، فإن الحدود الليبية – التونسيه طويلة ، ويترتب على ذلك استحالة حراستها بدقة . زد على ذلك أنها لا تشكل في نظر السكان العرب القاطنين على جانبها سواء في ليبيا أو تونس أي حدود فعلية . فمراقبتها بدقة غير ممكنة ، كما لا يوجد أي قانون دولي يحرّم المتاجرة بين قبائل متجاورة . فالقبائل الليبية والتونسية تربط بينها وشائج الدم وعلاقات العرق وروابط الدين ، وكذلك المصالح المشتركة ، ولذا فإنهم يعقدون فيما بينهم صلات تجارية اتصلت منذ أقدم العصور ، ومن المستحيل ، بل ومن الخطر على فرنسا محاولة الحظر على تلك الصلات التقليدية بين عرب متجاورين .

كما أنه على إيطاليا ألا تنسى أن جيشها قد ابتاع من تونس جمالاً وبغالاً وخيولاً أكثر مما ابتاعه منها الطرابلسيون والأتراك. ومن الحق أن تلك الدواب والبهائم كانت تنقل بحراً إلى مرفأ (قطانيا) في صقلّيه ، ولكن يكفي الإيطاليين أن يفرّجوها على بركان (أطنه) الذي يتصاعد دخانه في سماء صقلية ، فتصبح بقدرة قادر ، وهي البهائم القادمة من أرض المسلمين ، بهائم مسيحية بعد تنصيرها على ذلك النحو ، ثم يقفلون بها راجعين إلى ميناء طرابلس ليستعملوها في حربهم ضد أهلها ! . إنني أتحدث هنا طبعاً بتهكم على طريقة الإيطاليين في التفكير !

---

(١) يقصد حكومة المقيم العام الفرنسي في تونس ، إذا أن تونس كانت في ذلك الوقت بطبيعة الحال واقعة تحت السيطرة الاستعمارية الفرنسية . المترجم

ومع ذلك فإن فرنسا قد حرّمت اجتياز الحدود التونسية على جميع الضباط المسلحين القادمين من والداخلين إلى الأراضي الليبية ، وراقبت بكل مـــا في وسعها جميع قوافل البادية التي تعبر الحدود بين البلدين محتجزة تلك التي تجد في حوزتها أسلحة أو عتاداً، إلى درجة ان الأتراك قد اتهمونا من ناحيتهم بالتحيز ، وأعتقد أن معهم بعض الحق في ذلك .

وعلى أية حـــال ، إذا كانت الحراسة الفرنسية للحدود الليبية التونسية في نظر الإيطاليين غير كافية ، فلماذا لم يتمكنوا حتى الآن من احتلال المنطقة الواقعة بين بلدة (بن قردان) التونسية ومدينة (زوارة) الليبية ؟ .. فليفعلوا ذلـك إن كان أمر ذلك سهلاً ! .

٢٢ فبراير ١٩١٢

استـُقبلت أمس أحسن استقبال عند وصولي إلى المواقع المتقدمة للمجاهدين في منطقة (سواني بن يادم)، حيث رحب بي العقيد (محيي الدين بَيْ) ، والذي قدمني الى أربعة من الضباط الألمان الذين وصلوا الى هنـــاك منذ مدة قصيرة كمتطوعين . وعلى بعد مسافـة كيلومترين اثنـين ، وراء تلك النقطة ، اتجهت الى زيارة النقيب (طلعت بَيْ) ، فوجدته معسكراً وسط بستان أقـــام فيه عدة خيام أُعدت في إحداها صالة أكل ، كان جنوده قـد نهبوا مناضدها وكراسيها من المواقع الايطالية نفسها . وأعدت لنا وجبة ممتـازة مكونة من اللحم المشوي والبيض المقلي الممزوج بالجبنة ثم حلويات وفطائر تركية . ولم يكن ينقص تلك الوليمة شيء ، حتى غطاء المائدة والأكواب والشوكات والصحون الجميلة ، بالرغم من أننا كنا في حالة حرب . وأعترف بأنني لم أجد ترفـاً مثل هذا منذ زمن طويل .

أما الايطاليون فإنهم فيما يبدو لي ما يزالون مصرّين على عدم الظهور للعيان .

ولذا فقد قررتُ ان أواصل سفري الى بلدة (الخمس) ومنها الى مدينة (بنغازي) وإنني لمدرك بأن سفري لن يكون أمراً سهلاً ؛ فالمسافة التي يتحتم عـليّ أن أقطعها طويلة للغاية ، وحرارة الجو يصعب ان يتحملهـا من يزمع عبور صحراء (سرت) في مثل ظروفي . والمصيبة أنه يستحيلُ عـــلي لبس خوذة حديدية فوق رأسي كي أتقي بها حرارة الشمس اللاذعة ، وذلك خشية ان يظن البدو الذين قد ألتقي بهم في طريقي أنني جندي ايطالي ، فتكون الطـــامة الكبرى !.. زد على ذلك مشكلة الماء العويصة ، إذ يتحتم علي ان أحمل معي ما أحتاجه منه للشرب ؛ فقد قيل لي أنني لن أجد في الصحراء آبار مياه طيلة أيام عديدة من الترحال . كما يتحتم علي ان أدبِّر نقل علف بهائمنا ودوابنا . وعلى أية حال فإنني سأحاول القيام بجميع هذه الاستعدادات ، ولعل زميلي الفرنسي الآخر (بول تريستان) ، مراسل صحيفة (المرسيلي الصغير) — الذي سبـق لي ان تحدثت عنه — يقبل مصاحبتي في رحلتي المزمعة !

الفصل الخامس

من العزيزية الى الخمس

٢٤ فبراير ١٩١٢

عندما حانت ساعة رحيلي عن (العزيزية) ، كان في وداعي كل من النائبين (سليمان الباروني) و (فرحات بَيْ). وقد أصرَّا على تعويضي عن كل او بعض النقود التي سُرقت مني في المعسكر منذ بضعة أيام، قائلين ان هذه الفعلة الشنعاء تقع أدبياً على مسئوليتهما لأنهما ربما لم يوفِّرا لي الحراسة الكافية . فبذلت كل ما في وسعي لإقناعهما بأنه لا ضلع لهما فيما حدث ، رافضاً استلام التعويض .

وطلبت منهما إطلاق سراح السجين الجزائري (صالح) ، ما دام لم تتوفر ضده أية أدلة ، ويكفيه أنه كان طيلة مدة توقيفه يتلقى كل يوم عدداً لا بأس به من ضربات العصي وجلدات السياط . فإن كان بريئاً – وهذا لا يُستبعد – فإن له عليَّ ديْناً لا بد ان أسدده يوم القيامة ، وفي هذه الحالة فإن ضميري سيعذِّبني حتى تحل ساعة الحساب التي ترتعش لها فرائصي منذ الآن . ودعوني أصف لكم طريقة قرع السجناء بالعصي في السجون التركية : يُطرح السجين على بطنه ويوثق رباطه بإحكام ، ثم يوضع كيس من الخيش المبلَّل بالماء فوق عجيزته ، ثم يضرب بالعصى على نحو إيقاعي منتظم . ولعلكم تتذكرون ان «محكمة التفتيش» البرتغالية كانت قد أصدرت حكمها بأن يضرب الدكتور (بانجلوس)[1] على عجيزته بنفس هذه الطريقة ، مع فارق واحد وهو أنه كان أثناء تعذيبه يتلقى

(١) الدكتور (بانجلوس) هو أحد شخصيات رواية « كانديد » التي ألَّفها الكاتب الفرنسي (فولتير) سنة ١٧٥٩ ، وبانجلوس هذا هو معلم كانديد بطل الرواية ومهذبه . ولقد صور لنا فولتير هذا المعلم على أنه رجل تقي ومن أتباع الفيلسوف الالماني (ليبنز) ، فكانت شخصيته شخصية تتفاءل حتى في أقسى الشدائد والخطوب . المترجم

لسعات العصي على أنغام موسيقى « الأرغن » الكئيبة الرتيبة التي مـلأت نفسه بعذاب معنوي أخذ يعاني منه الى جانب العذاب الذي ألحقته به قرعات العصي فكاد ان يُجن . فكل ما أتمناه هو ألا أكون قـد أسهمت في حبس الجزائري (صالح) ظلماً، مما سيعرضني يوم القيامة لحساب عسير تقرع فيهعجيزتي بالعصي، إما على أنغام الموسيقى او بدونها !

المهم أننا غادرنا (العزيزية) حيث أخذنا نرتحـل في أرض خضراء توشيها الزهور ، وإن كانت تتخللها من آن لآخر ألسنة من الرمال . وكان الجو شديد الحرارة . ولكي أحمي رأسي من وهج الشمس التي كانت تلسعني بحرارتها رغم الطربوش العثماني الذي كنت ألبسه؛ فقد قررت ان أتلثّم فوقه بلثام «طوارقي»، غطى وجهي كله حتى فمي وانسدل على جسمي حتى لمست أطرافه ظهر حصاني. وأخذنا بين الحين والآخر نرى على جانبي الطريق أدغالاً كثيفة من أشجار التين الشوكي [الهندي] التي كانت رابضة في السهول كالقلاع . ثم أعقبتها بعـض القرى الصغيرة التي كانت في حراستها كلاب بيضاء أخذت تلاحقنا محاولة نهش أقدام جيادنا. وبعد مسيرة ست ساعات من السفر البطيء الذي اقتضته خطوات جمالنا البطيئة ، وصلنا الى أول نقطـــة لتوقّفنا كانت تسمى (بير السايح) ، فوجدنا بها ماء حلواً لكنه محمل بالرمال ، وبضعة بيوت استقبلنا أهلهـا البدو استقبالاً حسناً وأكرموا وفادنا . وقـــد علمت منهم أنهم يدخلون الى مدينة طرابلس ويخرجون منها بكل سهولة، رغم وجود الطليان فيها، حيث يذهبون اليها لابتياع ما يحتاجونه من متاع ثم يعودون . وقد أمدونا بتفاصيل وافية عن استعدادات الايطاليين العسكرية وتنظيماتهم الميدانية ، وكيف ان لديهم عدداً هائلاً من الجمال التي يمتطيها عسكر من الأحباش الأثيوبيين الذين يجهزونهم الآن لكي يكونوا في المقدمة عند قيامهم بهجوماتهم ضد الليبيين .

الأحد ٢٥ فبراير ١٩١٢

قطعنا المسافة بين (بئر السايح) الى (تامّرغة) في ثمان ساعات من الترحال البطيء . وبعد مضي أربع ساعات أخرى أخذنا نصعد جبالاً ، حيث التقينا بجماعة من المجاهدين الليبيين جالسين في ظل صخرة كبيرة وقد أسندوا بنادقهم الطويلة على الأرض . إنهم عائدون من مواقع المجاهدين المتقدمة في (بن غشّير) ، حيث سيقضون بعض الوقت في العمل في حقولهم ، بينما يحل مجاهدون آخرون من سكان قراهم محلهم في ميدان القتال . وانضموا الى قافلتنا حيث واصلنا السفر معاً . واخترقنا شعاب سرير (مُلـَّغة) ولم تعد معنا قطرة واحدة من الماء ، حيث أخذنا نتقدم وسط صخور جيرية تصلوها حرارة الشمس الشديدة . وأخذت أردد في نفسي عبارة (فيدرا) كما وردت بقلم (إيوريبيد) القائلة :

« آه !.. لو استطعت ان أطفىء ظمئي في مياه نبع صاف ، وان أستلقي للراحة فوق مروج خضراء تظللها أشجار الصفصاف !! »[١] .

وهكذا فإنه يبدو ان الشمس واحتقان الدماء في عروقي قد فعلت فعلها في نفسي وأخذت تعيد الى ذاكرتي أطياف مطالعاتي القديمة في الأدب الكلاسيكي

---

(١) (إيوريبيد) الذي يشير اليه المؤلف هو شاعر تراجيدي إغريقي ولد سنة ٤٨٠ وتوفي سنة ٤٠٦ قبل الميلاد . أما (فيدرا) فإنها بطلة مسرحيته المأساوية (هيبوليت) التي ألفها سنة ٤٢٨ قبل الميلاد . وتتلخص هذه المسرحية الأسطورية في ان (فيدرا) هذه قد أصبحت زوجة (ثيزي) الذي كان قد سبق له وان أنجبت له زوجته الأولى ابنه (هيبوليت) الذي أصبح فتى يافعاً جميل الخلقة . وكانت نفس (فيدرا) ميالة الى الإثم ، فوقعت في حب ابن زوجها وحاولت ان تغويه وتجره الى الزنا معها ، ولكنه صدّها رافضاً اقتراف هذه الجريمة . فما كان من تلك المرأة الشريرة إلا ان وشت به لدى والده ظلماً وبهتاناً وادّعت انه رغب في مضاجعتها ، مما أغضب والده فتضرّع الى الإله اليوناني (بوزيدون) ان يصب لعناته على ولده. وبعد ذلك ندمت (فيدرا) على فعلتها ندماً شديداً لم تتخلص منه إلا بشنق نفسها . والعبارة التي استشهد بها المؤلف هنا كانت تلك المرأة قد تفوهت بها حينما كانت تقاسي آلام الندم والحسرة . المترجم

اليوناني . فلقد كان تلهّف (فيدرا) الى الماء الزلال والى الظل الوارف ناجماً عن معاناة نفسها ووخز ضميرها ، أما تلهّفي أنا اليهما الآن فإنه ناجم عن معاناة وعن عطش فعلي وحاجة حقيقية الى ما يطفىء ظمئي . ومع ذلك فاعتقد ان ما كنتُ أعانيه يفوق ما عانته تلك البطلة الأسطورية ، وان اختلفت الأسباب والمواقف بيننا .

ثم التقينا بقافلة مكونة من مائة وخمسين بعيراً ، قادمة من (زليطن) ، وهي مدينة ليبية شهيرة يوجد بهـا ضريح (سيدي عبد السلام الأسمر) أشهر أولياء طرابلس الغرب الصالحين . وبالمناسبة فـــإن أحد أفراد قافلتنا هو من أحفاد هذا المرابط ، فيما يقول .

ووصلنا الى بلدة (ترهونة) يوم السادس والعشرين من فبراير ، عند الساعة الثالثة . ووجدنا قبيل دخولنا اليها عدة آبار مياه ونبع ماء كانت مياهــه الشحيحة تجري بين صخور أحد جبال (وادي مُلـّغة) . ثم تبدّت لنا (ترهونة) راقدة في طيّــة وادٍ واسع . وهي بلدة مربعة الشكل بنيت بيوتهــا البيضاء حول سوق كبيرة . وهي شبيهة ببلدة تونسية صغيرة . وهذه هي المرة الأولى ، منذ دخولي الى طرابلس الغرب ، التي أشعر فيها أنني مقبل على مدينة مأهولة بالبشر وشبيهة بغيرهـــا من المدن . إذ ان جميع المدن الليبية التي سبقت لي زيارتها ، إما كانت مهدمة تماماً او مشققة الجدران الى درجة كانت تبدو لي معها وكأنها قد حلت بها الكوارث الطبيعية أو الزلازل الأرضية ، واما كانت بيوتها عبارة عن كهوف شبيهة بجحور « الخُلـْد »[1] . ووجدت السوق غاصّة بالليبيين الذين كانوا مشغولين ببيع أو شراء الملـــح ، والتمر ، والخرّوب ،

---

(١) حيوان « الخُلد » هو من الحيوانــات القارضة الصغيرة التي تشبه أنثى الفيران في شكلها ، وهو حيوان أعمى تمامــا وله أسنان ومخالب أمامية طويــلة يستعملها في حفر جحوره ، ونطلق عليه باللهجة الليبية عادة اسم « بو عماية » . المترجم

والبطاطس ، والشعير الذي كان ثمنه غاليا جداً ، فكلفنا ما ابتعناه منه لخيولنا أكثر مما أنفقناه على شراء طعامنا نحن . وكانت تُعرض في السوق خرفان كثيرة شديدة السمنة كثة الصوف . وبالمدينة قصر حكومي يطل على مساكنها وهو قصر تركي شامخ .

واستقبلنا أعيان البلدة وقائم مقامها (سيدي محمد الصغيّر) ، وهو رجل جميل المحيا ، يرتدي رداء [أي حولي أو جرد] نظيفاً ، وله طلعة نبيلة تدل على أنه حاكم طيب القلب . واستضافنا هذا الرجل حيث قدم لنا لحم خروف مشوي محشو بالأرز واللوز والزبيب والتوابل من مثل الفلفل والبزار والقرفة . ولقد كانت وليمة شهية حقاً ، أخذنا نلتهمها معاً من قصعة كبيرة ، مستعملين أصابعنا في أكلها ، وخرق الفلفل الحاذق لساني كالعادة . وكنا نجلس حولها القرفصاء وقد طوى كل منا عقبيه تحت عجيزته ، فكنت أشعر بأن ركبتي وساقيّ تكاد تتحطم نتيجة لطويها على ذلك النحو .

٢٧ فبراير ١٩١٢

وكما هي عادة رجالي في بعض الأحيان ، عندما نتوقف يوماً كاملاً في إحدى القرى أو المدن ؛ فإنهم قد سكروا حيث شربوا خمرة من نوع رديء من عند أحد يهود (ترهونة) ، كما تنشّوا فشربوا مشروباً كحولياً مصنوعاً من التين المخمرّ . وعندما دارت الخمرة برؤوسهم أخذوا يتشاجرون مع الجمّالين الليبيين المرافقين لنا ، وانهال بعضهم على بعض بالعصي . فتأكد لي مقدماً أننا عندما سنرحل غداً فإنهم لن يتمكنوا من حزم الأحمال على دوابنا على النحو الصحيح وسيظلون يترنحون في الطريق غير قادرين على سوقها ، مما سيجعلنا نتأخر في

سفرنا . وقد حاولت عدة مرات ان أمنع مرافقيّ من السدور في هـــذه العادة السيئة ، السكر ، مهدداً بتخفيض أجورهم؛ ولكن بدون فائدة ! فهم يكررون نفس الفعلة كلما توقفنا في مدينة أو قرية بها سوق أو مقهى أو يقطنها أحد اليهود ، فهم المتخصصون في بيع الخمور .

وكان قطع الشوط القادم يتطلب منا ترحال سبع ساعات من السير البطيء اللازم لخُطى إبلنا المتأني ، حتى نصل إلى نقطة توقفنا التالية وهي قرية (سيدي مُعمّر) ، وهي من قرى ترهونة . وكنـا نمر على جبال شاهدت عند قممها آثار وبقايا مستعمرات زراعية رومانية . أمـا أرض المنطقة ، فإن تربتها تبدو غنية وكفيلة بإعطاء محاصيل طيبة ، إن هي وجدت عناية كافية ، إذ أن ما حرثـه الناس هنا منها قد أصبح زرعا خصيبا. فلقد كانت هذه الأرض المهجورة المنسية اليوم ، في الزمان الخالي ، مُعمّرة ومسكونة ومُستثمرة .

وأخذت الطريق تلتوي أمامنا بين الجبال والصخور . وطفقت جمالنـــا تجتازها بصعوبـة هادرة مزمجرة ، متقدمة بحذر خشية الإطاحة بأحمالهـا . وهكذا فقد اقتضى منا عبور مضيق طوله كيلومتر واحد مدة ساعة كاملة قضيناها في الزعيق وفي شتم دوابنا التي كانت ترفض التقدم .

وما ان عبرنا ذلك المضيق المنحدر ، حتى وجدنا أنفسنا أمام قرية (سيدي مُعمّر) ، وهي عبارة عن بضعة بيوت وضريح مرابط وأجام شجر وبستانين أو ثلاثة من بساتين الخوخ واللوز التي اخضوضرت أغصانهـــا وبزغت باكورة ثمارها خضراء صغيرة . وكانت تنساب من ذلك المشهد طراوة وألوان جميلة أخّاذة . وكانت الأرض مزركشة بسجادة من الزهور والنوّار الأزرق الدقيق . وكان الليل شديد البرودة ، فاستجرت من برودته بكل ما كان لديّ من الألحفة في خميتي ونمت نوماً مشوّشاً .

(مسلاته) في أول مارس ١٩١٢

منذ أن غادرنا مدينة (ترهونة) الصغيرة ، أخـــذنا نسمع من حين لآخر أصداء طلقات المدافع الإيطالية مدوية في اتجاه (الخمْـس) و (زليطن) . وقد التقينا في طريقنا ببعض البدو فأخبرونا أن معركة رهيبة تدور رحاها في تلك الساعة بين المجاهدين الليبيين والطليان ؛ ثم رفعوا أكفهم إلى السماء متضرعين إلى الله أن يمدهم بالعون والنصر .

وفي صباح يوم ٢٨ فبراير ، ونحن في منتصف المسافة بين قرية (سيدي مُعمّر) وبين بلدة (مسلّاته) ، أخذنا من جديد نسمع هدير المدافع . ثم التقينا بأوائل من تساقط من الجرحى ، حيث حملهم بعض رفاقهم على ظهور الحمير وقـد أحاطوهم بأذرعهم ، ينقلونهم متجهين بهم نحو قراهم لعلاجهم والعنايـة بهم . وسألناهم مستفهمين عن سير المعارك ، فأخذوا يقصُّون علينا أحداثاً وروايات متناقضة ، كما هو في كل الحروب .

فقال أحدهم :

« لقد كان الإيطاليون كثيري العدد ، ولقد هُزمنا ، واحتل الإيطاليون جبل (المرْقب)[1] المطل على بلدة (الخمس) ولقد جـــاهدنا فيهم بكل شراسة ، فاستعدنا منهم ذلك الجبل عـدة مرات ، ولكن ذخيرتنا نفدت في

---

(١) يقول الشيخ (الطاهر الزاوي) في كتـابه (معجم البلدان الليبية) صفحة ٣١١ عن (جبل المرْقب) ما يلي :

« المرقب جبل عال بقرب مدينة الخمس ، وحوله أراض منخفضة إذا ما علاه الإنسان أشرف عليها كلهـا ، ومن أجل ذلك سمي المرقب ، فالتسمية عربية صحيحة . وقعت فيه وقعة كبيرة بين العرب والطليان في ١٢ من يونيه سنـــة ١٩١٢ ، استشهد فيها نحو مائة شهيد من بينهم (علي فائق إمسيك الغرياني) . وهي من المعارك المشهورة » . المترجم

النهاية ، في حين استمروا هم يقصفوننا بمدافعهم التي لا يُحصى لهـا عدد. ولقد اشتد حنق وكَمَدَ قائدنا (خليل بَيْ) فأخذ يبكي ويمزق ثيابه » .

وانبرى أحد رفاقه يصحّح روايته ويدحضها قائلاً :

« لا .. لا ! صحيح أنهم قد احتلوا منا (جبل المرْقبْ) ، ولكننا غنمنا منهم عدداً من المدافع وقتلنا الكثير من جنودهم . وقد حاصرنا خمسة وعشرين من عساكرهم في أحد البيوت ثم هجمنا عليهم فذبحناهم ذبحاً، ولقد كنت واحداً ممن اشتركوا في تذبيحهم.. انظر! هاهي إحدى بنادقهم التي غنمتها. فالإيطاليون محاصرون الآن بين قواتنا فمن يمينهم مجاهدو (سيلين) وعن يسارهم مجاهدو الساحل ، ولسوف ترى ! .. إنهم لن يفلتوا من قبضتنا » .

ومضينا في طريقنا مارّين بالعديد من القرى ، حيث اخترقنا ريفاً أخضر باسماً ، وأشجار زيتون عتيقة تلقي بظلالها فوق حقول الشعير ، وها نحن أخيراً أمام بلدة (مسلّاتة) التي لها مظهر مدينة .

استقبلنا أحد ضباط الشرطة ، وهو برتبة نقيب ، وأسكننا بمبنى البلديـــة نفسه ، وأخبرنا عن سير المعارك قائلاً :

« هنالك الآن معركة مستمرة ، ولكن لم ترجح فيها حتى الآن كفة أي من الفريقين » .

وتمكنّـا بواسطة هذا الضابط أن نُبرق إلى المقدّم (خليل مظفرّ بَيْ) قائد المعارك لنعلمه بوصولي ووصول زميلي (پول تريستان) . وأخبرناه في برقيتنا أننا مراسلون حربيون اخترنا أن نكون إلى جانب المجاهدين على خط النار لاطلاع العـــالم على حقيقة نضالهم ، ورجوناه أن يبعث إلينا من يقودنا إلى معسكره . وفي انتظار استلام إجابته خرجنا في نزهة في البلدة التي بهـا سوق كبيرة ، وأقيمت أمام بيوتها ممرات مسقّفة ذات أقواس استُجلبت أعمدتهـــا وعرصاتها من بين أعمدة الآثار الرومانية القديمة في المنطقة . وتوجد بها ساحة



الخطوط الأمامية لجيش المجاهدين أمام مدينة الخمس



أطفال « مسلاتة » يتطلعون إلى منطاد المراقبة
الإيطالي وهو يطير في سماء « الخمس »

عالية إليها ببعض السلالم الحجرية وتطل على السوق . وكان هنالك مبنى صغير يستخدم كمكتب للقائم مقام يدير منه أعماله اليومية الادارية ، ثم المعسكر ، وأخيراً دار البلدية التي نقيم بها . وتوجد خارج البلدة سراي قديمة رابضة فوق ربوة ولها جدران، وأسوارها هائلة وإن كانت قد عاثت فيها الحفر والثقوب ، وقد انهار بعض أطراف تلك الأسوار . ومن خلفها كنا نرى البحر ، ونشهد من حين لآخر دخان المدافع الايطالية . كما شاهدنا منطاداً مقيداً أطلق في سماء (الخمس) لاستطلاع مواقع المجاهدين فيها . إننا نبعد هنا مسيرة ساعتين عن مركز القيادة العامة للقوات الليبية — التركية التي أقيمت خارج مدينة (الخمس) على بعد مسيرة ثلاثة أرباع أو نصف الساعة . وتحتل القوات العثمانية الساحل ، غير بعيد عن البحر قرب مدينة (لبدة) الأثرية ، أما على الجانب الآخر لمدينة (الخمس)[1] فتوجد قوات عثمانية أخرى على بعد ثلاثة أرباع الساعة ، متمركزة عند (سيلين) .

كنا جالسين في المساء، تحت ضوء القمر ، حول مائدة وأمامنا وجبة تركية شهية أرسلها إلينا نقيب الشرطة ، وهي مكونة من : شربة دجاج و « بوريك» محشي و « كفتة » ، حيث انهمكنا نتناولها في هدوء . وفجأة سمعنا صوت انهار وابل من الرصاص وحدوث صخب شديد ، ورأينا الناس يركضون من ميدان البلدة . فهرعنا بدورنا راكضين . وما هي إلا برهة ، حتى رأينا جمهرة من الناس الذين اختلطت برانسهم ولمعان بنادقهم في ضوء القمر وتحت لهيب طلقات الرصاص المنهمرة . وارتفعت أصوات تلك الجمهرة المضطربة ، ثم أخذ الناس يصعدون السلالم المفضية إلى الساحة العالية التي أقيم فيها المعسكر المواجه لدار البلدية ، وهم يقفزون قفزاً . ولم يكن أولئك القوم سوى مجاهدي (ترهونة)

---

(١) فيما يتعلق باحتلال القوات الإيطالية لبلدة الخمس ، انظر كتاب الأستاذ محمد مصطفى بازامة « العدوان : أو الحرب بين إيطاليا وتركيا في ليبيا » صفحات ١٢٨ وما بعدها .

المترجم

المتهيئين للذهاب للإسهام في المعركة الجارية : فكانوا يشهرون بنادقهم في الهواء ويطلقون صيحات الحرب ، وفي وسطهم رجل يضرب بسوطه الطويل طبلاً كان يحمله أحد رفاقه. لقد كان مشهداً فريداً جرت أحداثه في ضوء قمر تلك الليلة.

ثم ما لبث المفتي أن صعد على شبه منصّة في موقع مواجه للساحة ؛ وتجمع القوم أمامه ، ووقف الأعيان على جانبيه ، حيث أخذتُ مكاني وسطهم . ثم طفق المفتي يلقي خطبته بصوته البطيء الرتيب المنغّم ، الذي كان يخفت تارة ثم يعلو تارة أخرى ، متخذاً نبرة عالية رصينة على نسق جدّي مهيب . وقد بدأ بتلاوة سورة الفاتحة ثم أردف قائلاً في الجمع :

« أتضرع إلى الله أن يملأ نفوسكم بالشجاعة ، وأن يمدّكم بنصر من عنده ، فتتمكنوا من طرد الإيطاليين الكفار عَبَدة الأصنام » .

وكان الجميع رافعين أكفّهم أمامهم ، وقد اتجهت أنظارهم إلى السماء في مواجهة المفتي ، حيث أخذوا يجيبون على دعواته مرددين :

« آمين !.. آمين ! » .

إن هذه الرحلة وهذه الحرب ، تتحفني كل يوم بالمزيد من المشاهد الدينية أو القتالية أو الطبيعية ، التي لا يكاد العقل يصدق روعتها وغرابتها . فإن عقلي وناظري تسعد كل يوم بتأمل مواقف نبيلة ، والاجتماع بقوم وأناس متباينين . والحق أن هذا لم أكن أحلم به .

غير أن الشيء الذي يُنكّد عليّ هذه السعادة ويشوبها هو شعوري في قرارة نفسي بأنني إنسان غريب على مثل هذه المشاهد . فأنا لا أعجب سوى بظواهرها فقط ، بعيوني وبخيالي ، ولكنني لا أسهم فيها كواحد من أبطالها. فما أفعله لا يعدو أن يكون إعجاباً شبيهاً بإعجاب المرء بفن من الفنون التشكيلية : فقد تعجبني الطريقة التي يسدل بها الليبي رداءه [أي جرده أو

حوليه] فوق كتفه ، أو تلذ لي مشاهدته في حركاته وسكناته ، او مظاهر ورعه وإيمانه بربّه ، أو بطولته في دفاعه عن وطنه . ومع ذلك فإنه يظل لديّ انطباع مؤكد بعجزي عن سبر أغوار نفوس هؤلاء الناس التي صيغت في إطار دين غريب عني ، وترعرعت في ظل حضارة ليست حضارتي . وهما دين وحضارة لا يقلان شأناً عن ديننا وحضارتنا ، ولهما على نفوس أصحابهما سيطرة خاصة ، شأننا نحن تجاه ديننا وحضارتنا . وهذا هو السر فيما يفصل بيننا وبين المسلمين من حواجز مطلقة . ولعل هذا هو السر فيما يحسه الفرد منا من رتابة فيما يكتبه عن الشرق ، حتى وإن كان من أعظم الكتّاب . فوصف كُتّابنا للشرق هو في العادة ممل لا يتغير ، لأنهم لا يرون ما يصفونه فيه سوى بعين رومانطيقية لا تتعرض إلا لوصف الظواهر ، لكنها تعجز عن بلوغ باطن حقيقة هذا الشرق الغريب .

في المواقع المتقدمة للمجاهدين ، على بعد كيلومتر من المواقع الايطالية :

ها قد استلمنا ردّ (خليل بَيْ) ؛ فهو يضرب لنا موعداً أمام المواقع الإيطالية ويكلف شرطة لحراستنا . إذ أن تواجد اثنين من الفرنسيين[1] في معسكر ليبي ليس بالأمر السهل ، ولربما ستنجم عنه بعض المشاكل . فبرغم الطرابيش التركية التي كنا نلبسها ، وبرغم لون بشرتنا النحاسي التي أثرت فيها حرارة الشمس المحرقة ، وبرغم ثيابنا الممزقة ، فإن مظهرنا لا يدل مع ذلك على أننا نشبه المسلمين في شيء . ولذا فإن وجودنا بين الليبيين يثير كثيراً من حب الاستطلاع الذي يتطلب في كل مرة تبريرات وتفسيرات لا تنتهي ؛ خوفاً من أن يظن بنا البدو الظنون أو يعتقدوا أننا من الإيطاليين الذين تسربوا إلى صفوفهم

---

(١) لا يفوت القارىء أن المؤلف (جورج ريمون) مصحوب في هذا الجزء من رحلته بمراسل جريدة (المرسيلي الصغير) المسمى (بول تريستان) الذي سبق له وأن دعاه لصحبته من (العزيزية) إلى هنا . المترجم

متخفّين . إذ أنـــه ليس من السهل على المرء أن يشرح للبدوي ماهية المراسل الصحفي ، فهو غالباً لم يسمع بكلمة الصحافة أو الجريدة طيلة حياته .

وانطلقنا ظهر يوم التاسع والعشرين من فبراير في صحبة نقيب الشرطـــة (حسن فهمي) ، فعبرنا منطقة حلّ بها الدمار . وما أن صعّدنا في الجبال حتى تكشف لنا البحر فجأة . كان منطاد التجسُّس الإيطالي ما يزال يحوم في الجو ، وما زال قصف المدافع مستمراً ، وإن كان أقل عنفا من الأيام السابقة .

ووصلنا إلى مركز قيـادة (خليل بَيْ) الذي أقيم وسط وادٍ ضيق بين أشجار الزيتون التي اكتنفته . وكان معه كل من المـلازم (نوري بَيْ – شقيق (إنفر بَيْ) منظّم المقاومة وقائدها حاليـاً في برقة – وقائم مقام مصراته . وقدمت إلينا القهوة وثمار البرتقال ، ثم عرضوا علينا الكلب «برتجانتي» ، الذي نُقش اسمه على الحزام المعدني الذي يحيط رقبته ؛ وهو كلب عهد إليه الإيطاليون بحراسة أحد خنادقهم ، وقد استدرجه بعض المجـــاهدين من خندقه في إحدى الليالي وأتى به !

وأخذ بعض المسئولين والرؤساء يتقاطرون من المواقع الأمـامية فيتحدثون مع القائد (خليل بَيْ) ، ثم يعودون من حيث أتوا . وأحـــاطت بنا جمهرة المجاهدين ، وقد استحوذ عليهم حب الاستطلاع والقلق والريبة تجاهي وتجـاه زميلي الفرنسي الآخر متسائلين :

« من هم هؤلاء « الروميين » ؟

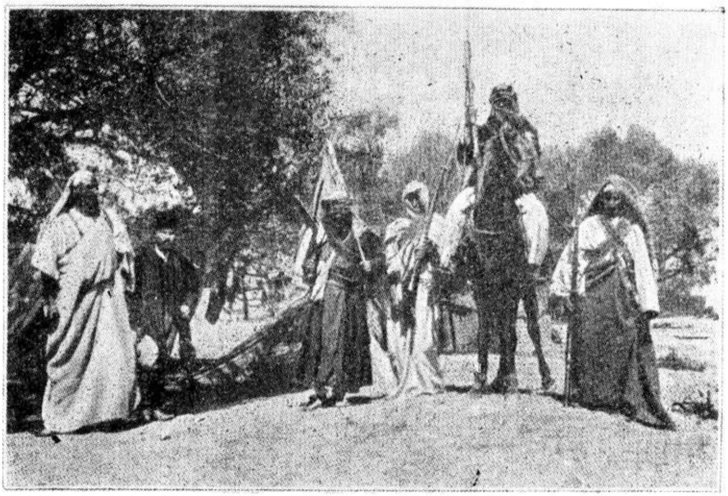
واقترح علينا (خليل بَيْ) أن نذهب معه لتفقد المواقع الأمـــامية ، فصاحبناه حيث زرنا أولاً مركز قيادته السابق الذي أطلق عليه اسم «الجحفة» حيث كان قد بنى هناك كشكاً من الألواح الخشبية وروافد خشب السنديان التي كان الإيطاليون قد استجلبوها معهم من غابات (كارنيثي) – على الحدود النمساوية الإيطالية – حتى مدينة (الخمُس) الليبية ، حيث كانوا قد شحنوها

بالبحر ، ولكن المجـــاهدين استولوا عليها حيث نزعوها ليلاً من خنادقهم وتحصيناتهم عندما كان الإيطاليون يهجرونها أثناء نومهم . وكان هنالك أيضاً رواق خشبي استولى عليــه الليبيون كذلك من مواقع الايطاليين ، ويستعمله الضباط والجنود الآن مَوْثباً لألعابهم الرياضية . وقد اضطر (خليل بَيْ) أن ينقل مركزه إلى المكان الذي زرناه فيه في البداية ، إذ أن قنابل وقـــذائف مدافع الايطاليين كانت قد أخذت تنهمر على موقع مركزه السابق كالمطر. وقد قال لي (خليل بَيْ) :

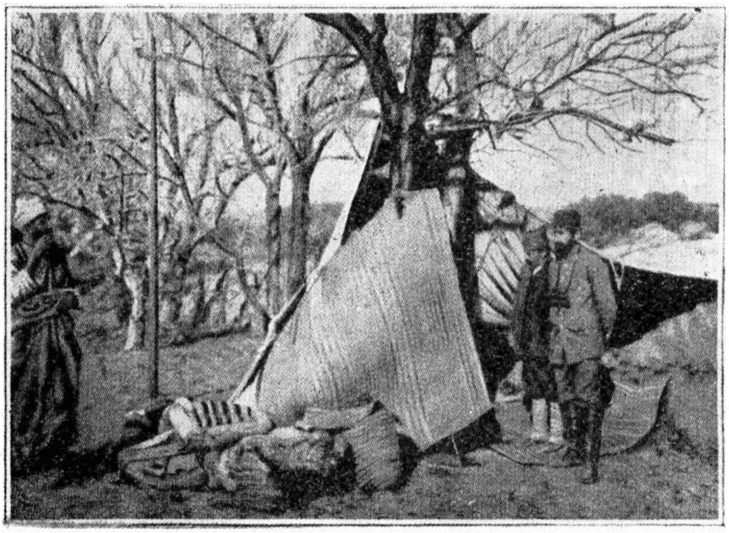
« ولكن كما ترون ، فإننا لم نبتعد عن مركزنا السابق كثيراً ؛ فالليبيون ، بل ونحن كذلك ، لا نلتزم بمقتضيات الاستراتيجية وتحسُّباتها . فكلنا يريد أن يظل مع المعركة وجها لوجه ، نتعرض لها باستمرار ، فالله هو حامينا وحافظنا . . فانظروا إلى هذا الجندي أو ذاك الجندي الآخر ، فلقد جُرح الاثنان جروحاً بليغة ، بل إن أحدهما قد أصيب اثنتي عشرة مرة ؛ ولكن لم تمض بضعة أيام إلا وقد عادوا إلى خوض المعارك من جديد » .

لقد اقتنعت هنا ، أكثر مما في معسكر العزيزية ، بمدى تأثر الضباط الأتراك بشدة إيمان الليبيين وقوة مراسهم . فالأتراك قد اكتشفوا الآن فقط أين تكمن نقطة الصلة بينهم وبين الليبيين : إنها في الجهاد وفي الذود معهم عن هذا الوطن ، فالحرب قد فجّرت في نفوس الليبيين القدرة على القيام ببطولات تضرب بهـــا الأمثال ؛ فلم يجد الأتراك بُداً من محاولة التشبُّه بهم في ذلك .

وفجأة سقطت بضع قذائف على بعد خمسمائة أو ستمائة متر من المكان الذي كنا واقفين فيه ، فأثارت زوبعة من الرمال والغبار والحصى ارتفع دخانها إلى عنان السماء . ثم مضينا نخترق ممراً وعراً يفضي إلى جبل (راس الخيـــلة) . وخلعنا قبعات «الكلبك» من فوق رؤوسنا حتى لا تجعلنا أهدافاً سهلة للقنّاصة الايطاليين ، وأطللنا برؤسنا من بين الصخور ، فشاهدنا على بعد كيلومتر واحد



بعض المشايخ المجاهدين قرب « الخمس »



المقدم خليل بك عند النقطة التلغرافية
قرب جبل المرقب

(جبل المرْقب) الذي رُفع فوقه العلم الايطالي . وهنا كنا نسمع بكل وضوح أنغام موسيقى « المارش الملكي » التي كانت تعزفها فرقة موسيقى فيالق الجيش الايطالي وقد صاحبتها صيحات جنودهم هاتفة بحياة ملك إيطاليا .

وقال لي (خليل بَيْ) :

« لقد احتلوا منا ذلك الجبل ، ولكن سنحتله منهم بدورنا . لقد تخلينا عنه لعدم استطاعتنا توصيل الذخيرة إلى قمته . أما الآن فإننا قد تلقينا إمدادات جديدة ، ولن نتركهم محتفظين بـذلك الجبل طويلاً .. هيَّا ؟ التقط لي صورة فوتوغرافية أمام هذا الجبل ، لعلها أن تكون فألاً حسناً ! » .

ووقف ووراءه الجبل السليب في وضع بان منه للعـدو نصف جسمه ، ولو لمحه أحد القنَّاصة لاستطاع إصابته . والتقطت له ثلاث صور . ولحسن الحظ لم يطلق علينا الطليان ولو طلقة واحدة، فقد كانوا سادرين في فرحتهم فبدا أنهم لا يهتمون لأمرنا .

ورجعنا عند حلول المساء . وقال لي (خليل بَيْ) :

« لم أكن أعرف الليبيين حق المعرفة من قبل ، ولكن كفتني في ذلك بضعة أشهر ، وها قد أصبحت واحداً منهم. لقد رأيت هنا ما أدهشني من الأمثلة على شجاعتهم : فالمجاهدون يأتون إلى هنا وليس لهم من الطعام سوى حفنات من التمر والشعير ، وقد غادروا قراهم وتركوا بيوتهم وزرعهم . وهم يصرون دائماً على التقـدم إلى الصفوف الأولى ، لا مستعدين للقتال فحسب بل ومفعمين برغبة واحدة هي : النصر أو الموت . ولقد بذلت الكثير من الجهد محـــاولاً منعهم من إلقاء أنفسهم في التهلكة،ولكن محاولاتي لا تجدي في كثير من الاحيان؛ فالليبيون ينقلبون إلى التحدي لأقل الأسباب ، فيتهمون الواحد منا إذا حاول مطالبتهم بالتروِّي،بالعمالة للإيطاليين،وهنا تبدأ كراهيتهم لنا.وعندما تحل ساعة استبدال من يقفون منهم في الصفوف الأمامية بغيرهم من المجاهدين ، فإن اولئك

يصرون قبل أن يُخلوا أماكنهم لإخوانهم على تفريجهم على ما غنموه من الإيطاليين من بنادق وألواح وشباك وخوذات وأسلاك تلفونية . وهنا يغار منهم الآخرون فيقولون لهم : وهل تعتقدون يا أهل (الساحل) و (مسلاته) أننـــا نحن (الطوارق) أقل منكم شجاعة وقدرة على سلب الغنائم من العدو ؟ .. انتظروا ؟ ولسوف ترون عندما تنتهي نوبتنا أننا قد غنمنا منهم أكثرَ مما غنمتم. وتصحب المجاهدين نسوتهم ، حيث يقفن فوق قمم التلال والروابي مطلقات ، أثناء التحام رجالهن مع العدو ، زغاريد حادة هي زغاريد الفرح والتشجيع والإعجاب بهم ، فلا يتراجع منهم أحد وقد سلطت عليه النساء أنظارهن . بل إن الكثيرات منهن يقاتلن معهم ، في حين تتطوع أخريات بنقل الماء لسقي الرجال على خط النار الأول ، أو نقل الشهداء حيث يقصينهم عن ميدان المعركة ويتحلّقن حول جثثهم الطاهرة يندبن ويصرخن ، أو يصلّين عليهم صلاة الغـــائب . فتنسلُّ أرواح اولئك الشهداء وسط نحيبهنّ مصعّدة إلى باريها ، حيث ينتظرها الجزاء في جنات عدن » .

وعندما رجعت اليوم إلى (خليل بَيْ) استأذن منــه في الرحيل ، حيث كنت أغادر مركز قيادة الجيش لمواصلة سفري ولزيارة الخطوط الأمامية لمجاهدي الساحل ، قلت له :

« سيدي القائد ! إلى لقاء آخر .. ربما في باريس أو على ضفاف البسفور » .

فردّ عليّ قائلاً :

« لا يا صديقي ! لا تقل إلى لقاء ، قل : الوداع ! .. فـــإنني أفضل هذه الكلمة ، فنحن جميعاً هنا فداء لهذا الوطن ؛ إنني « فدائي »[1] والفدائي لا يضرب مواعيد اللقاء ، فهو لا يأمل في حياة ! » .

---

(١) وردت كلمة « فدائي » بالعربية في النصر الفرنسي . المترجم

الفصل السادس

زيارة آثار لبدة تحت وابل قذائف البطاريات الايطالية

صعدنا إلى سطح بيت الشيخ (عمر النعّاس) ، الموجود وسط نخيل الساحل، وأخذنا نرقب « المنطاد » الذي أطلقه الايطاليون للتجسس على كل مـا يجري بين ثنايا السهل ، مرسلا إشاراته إلى مدفعيي البطّاريات الايطالية الكامنة فوق جبـل (المرْقب) أو في ميناء (الخمْس) أو فوق سطح الطـرّاد الحربي (ڤاريزي) ، حيث توجههم أجهزته إلى موقع كل تجمُّع مريب . فكان رجال البطاريات الايطاليـة لا يلبثون أن يمطروا ذلك التجمع بوابل من قذائفهم . والواقع أن الايطاليين فيما يبدو كانوا يملكون ذخيرة فائضة . فهل ستسمح لنـا نيرانهم تلك بالاقتراب من آثار (لبدة) الممتدة ما بين بساتين النخيل ومشارف مدينة (الخمْس) ؟

وكان أحد الشعراء الشعبيين البدو قد فرغ لتوّه من إنشادنا بعض أهازيجه التي تتحدث عن الحرب : فهل يحق لنا بعد التـلذذ بسماعها أن نرهب مدافع الايطاليين ؟.. ثم إنه ، أليس من المشرف لنـا أن نسقط صرعى رصاصهم أو قنابل مدافعهم بين آثار مدينة رومانية كهذه ، وهم أحفاد اولئك الرومان الذين بنوها ؟

وبادرنـا فسلكنا بعض الدروب بين أشجار التين الشوكي [الهندي] ، وشعرنا أننا كنا في مأمن من القصف . ولكن سياج تلك الأشجار الشوكيـة لم يلبث أن انتهى ، وأخذت أشجار النخيل تصبح نادرة أمامنـا هي الأخرى ؛ بحيث أصبح السهل الذي كنا نعبره مكشوفاً تماماً لمراقبة منطاد التجسس وأيضاً لنيران المدافع . ومررنا بقنابل مدفونة في الرمـال لم تنفجر في حين استقرت شظايا أخرى وتناثرت فوق مرمر الآثار الرومانية وانتشرت جزيئاتها هنـا

وهناك . وقررنا أن نتقدم متفرقين فرادى حتى لا نكون هدفاً سهلاً للقنّاصة الايطاليين .

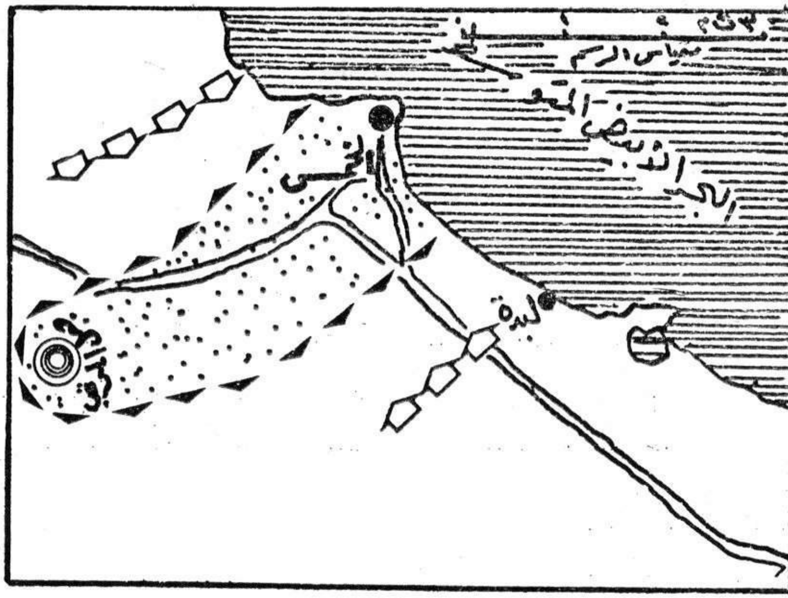
وأخذتُ أتامل الآثار المترامية على الأرض: أعمدة مقلوبة رأساً على عقب، وقواعد مباني ، وقطع مرمرية مهشمة ، وجدران معبد روماني مهدم ظل جزء منه يقاوم الدهور العاتية ، حيث ظل ملتصقاً بقمتـه إفريز وعارضة مرتكزة على عمود .

وكان يصحبني مرشد ليبي، حيث عبرنا سوياً وبسرعة تلك المنطقة المكشوفة حتى وصلنا الى كثبان الرمال التي تحيط بآثار أخرى أكبر حجماً .

ثم لمحَنَا الايطاليون فأخذت مدافعهم تُقنْبِلنا من أعلى جبل (المرقب) ، وقد تساقطت قذائفهم في السهل ولكن بعيداً عنا .

وها هي الآثار الرومانية وقد غاصت ثلاثة أرباعها في الرمال الفضيّة التي كانت حباتها الذارية أشد دقة من حبات الغبار . ومع ذلك فقد برزت من بينها جدران عالية وأبواب ومداخل مرمرية صنع كل منها من قطعة واحدة يبلـغ ارتفاعها عشرة أمتار . وكانت تتبعثر هنا وهناك أكوام من القرميد ، وأقواس عالية لمحت عبرها البحر والسفن الحربية الايطالية التي نقلت فيـالق الجيش الايطالي ، وما زالت تمده بالذخيرة والعتاد .

وأخذت أتنقل بين تلك الآثار ، وقد انساب بينها عرق من المياه الصافية التي انحدرت نحيلةً عبر وادي (لبدة) . وكنت أغوص بأقدامي في الرمـال حيناً ثم أنزعها ، وأقفز فوق أحجار الآثار وقد أحـاط بي بعض مرافقيّ من الليبيين . وهنالك وجدت عموداً ما تزال تظهر على قمته نقوش زخرفية تمثـل أزهاراً وأوراقاً ، وإن كانت قد امّحى بعضها من شدة ما عصفت بها الرياح المحملة بالرمال . وانحنيت على جذع عمود مرمري أخضر ، وأخذت أمرر يدي فوقه متتبّعاً عروق ألوانه المتباينة في درجة تلوينها . ويبدو ان وجودنا بـين



الموقف العسكري في الخمس ولبدة وجبل المرقب في مارس ١٩١٢

▲ : علامة تحيط بالمنطقة التي احتلتها القوات الإيطالية. ⬠ : علامة تبين القوات المتقدمة للمجاهدين ومواقعهم. ◎ : جبل المرقب.

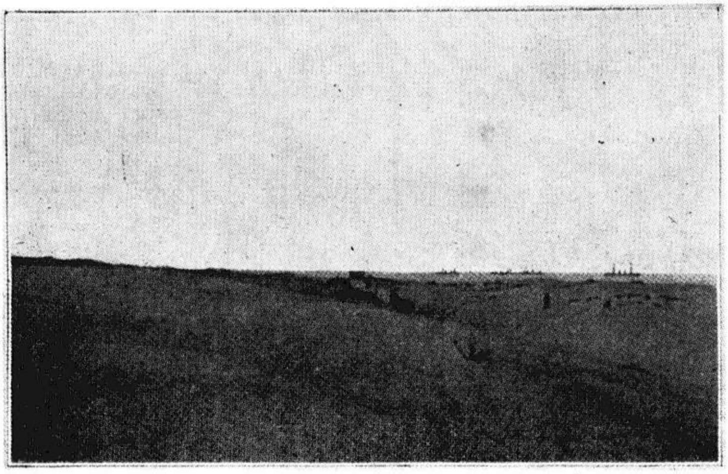
تلك الآثار النادرة قد انطلق على منطاد التجسس الايطالي فلم يلمحنا وبالتالي لم تنبىء أجهزته الايطاليين بمكاننا ؛ إذ أنه سرعان ما اتجه نحو البحر ، حيث جذبه المتحكمون في إطلاقه واختفى عن الأنظار .

والآن أصبح في امكاننا ان نتجول هنا كما يحلو لنا ناعمين بالفرجة على هذه الآثار الرومانية بكل طمأنينة . ولكن هل تكفي بضع ساعات لتفحص آثار هذه المدينة الخالدة الكبيرة ؟

وحل الليل ، وبزغ البدر منذ اللحظة التي توارت فيها الشمس . وهو بدر ذهبي شاحب يحلي سماء بنفسجية ساحرة ، فأضاء تلك الكثبان التي بدا رملها كنِثار الفضّة ؛ وانعكس فوق تلك الآثار فبدا لونها صدئاً لامعاً ، وخُيِّل إليّ أنها هي الحقيقة الوحيدة المجسدة وسط لمعان تلك الرمال السرابية . وفي جهة المشرق بدا آخر خيط من خيوط الغسق الذي استنام فوق قمم الجبال القريبة .

ووصلنا الى الطرف الآخر لخرائب (لبدة) ، حيث يوجد العديد من الصخور الصماء المتماثلة منثورة في العراء . إننا الآن على بعد أقل من كيلومتر واحد من مدينة (الخُمس) التي كانت بيوتها البيضاء ما تزال بادية تنيرها آخر خيوط الغسق . وفي عرض البحر كانت السفن الحربية الايطالية راسية غير بعيد من المدينة .

وأخذنا نعود على أعقابنا ، فأخذت الحياة تدب حولنا شيئاً فشيئاً . ولمحنا عن بعد أطيافاً وهامات تبرز من بين كثبان الرمال ومن الأحجار الأثرية الضخمة ، فسألت نفسي : ترى من هم هؤلاء الذين ارتدوا أردية شبيهة بأردية هذه التماثيل الأثرية القديمة المبعثرة هنا ؛ فلا اختلاف بين هؤلاء البشر وهذه التماثيل سوى ان أولئك كانوا يتحركون ويركضون هنا وهناك او يتوقفون تحت جدران خرائب (لبدة) او أمام مداخل معابدها ، حيث تختلط ظلالهم بظلالها الهائلة ؟.. لا بد وان يكونوا من المجاهدين الذين اختاروا لهم مدينة



الأسطول الحربي الايطالي عند شاطىء مدينة « لبدة » الأثرية



الآثار الرومانية في « لبدة »

الأموات هذه معسكراً لهم وعند اقترابنا منهم وقفوا جميعـــاً واصطفوا . وامتشق رؤساؤهم فجأة سيوفهم من أغمادها ، وتأهَّب الباقون ، واقفين فوق الأعمدة الأثرية الممددة في صف واحد ، فرأيت وجوههم دفعـة واحدة تحت ضوء القمر .

واقترب منهم الملازم (نوري بَيْ) فسألهم :

« من أين أنتم ؟.. من (تاورغاء) ، أم من (مصراتة) ، أم من (ترهونة) ؟

فردوا عليه قائلين :

« نحن جنود السلطان ، أياً كنا ، ومستعدون للجهاد حتى الموت ! » .

والتقط بعضهم حفنات من الرمال فقبَّلوها ثم نفخوا فيها باسطين أكفهم ، فتطايرت حباتها ، وعندئذ صاحوا :

« إننا لن نسمح للايطاليين ان يصبحوا أسياداً لهذه الأرض ما ظللنا أحياء، والى ان نموت ويتبدد رفاتنا غباراً مثل هذه الرمال التي نفخناها ! » .

وتعرَّف (نوري بَيْ) على أحدهم فوصفه لي بإصبعه قائلاً :

« أنظر ! ان هذا الرجل كان قاطع طريق ، ولكنه مـــا ان علم بنزول الطليان على أرض بلاده حتى أسرع الى معسكرنا وطلب مقابلة (خليل بَيْ) حيث قال له : أنت أبو المجاهدين ، فهل تعفو عني وتصفح عمـــا اقترفته في حياتي الماضية وتقبلني كأحد جنودك؟ ورد عليه القائد قائلاً: إنني أصفح عنك. ومنذ ذلك اليوم وهو يقاتل دائماً في صفوف المجاهدين الأولى » .

وأطلعني الكثير من أولئك الرجال على جروحه التي تلقاهـا في المعارك قائلين :

« إن دماءنا فداء للوطن » .

وأردف (نوري بَيْ) قائلاً :

« إن ما يشغل خواطر هؤلاء الناس أثناء اشتباكهم مـع العدو ليست هي أرواحهم بل برانسهم الصوفية التي نسجتها لهم نساؤهم ، فهم يخشون ان يثقبها الرصاص . ولذا فإنهم يخلعونها ولا يرتدون سوى أكياس من الخيش يطوونها فوق رؤوسهم على شكل برانس . ونظراً لشبه لون تلك الأكياس بلون الرمال، فإن أعداءهم يعجزون عن تمييزها عن لون الأرض » .

ومضى وقت طويل ونحن جالسون فوق الأعمدة الأثرية ، حيث كنا نسمع عن بعد أناساً يتغنون بأغان شعبية . إنهم المجاهدون الذاهبون في اتجاه الخطوط الأمامية يرددون أهازيج الحرب التي كانت تنتظم أنغامها مع إيقاع خطاهم . ولا تشبه هذه الأهازيج تلك الأغاني الخافتة التي كنت أسمعها في هزيع الليل في معسكر (العزيزية) والتي كان فحيحها الحزين شبيهاً بأنغام ناي خافت . إن ما أسمعه الآن غناء قوي مجلجل لأنه غناء المتقدم نحو عدوه والاشتباك معـه ، ولعل الغرض منها إلقاء الرهبة في قلب العدو قبل الوصول اليه . وقد قـال لي (نوري بَيْ) :

« إنهم يهجمون على عدوهم وقد ملأت نفوسهم الرغبة في سحقه . وحيـنا يتلقى أحدهم في أثناء ذلك طعنة مميتة ، فإنه يسلم روحه الى باريهـا دون ان يحس بذلك ، من شدة اندفاعه . ثم لا تلبث الملائكة ان تتلقف تلـك الروح وتطير بها الى جنـَّة الخلد . وهذا أفضل سبيل لملاقاة الموت ؛ فالاندفاع نحـو العدو لسحقه يملأ النفس بسعادة لا تُضاهى . فلا بد وان أجنحة عزرائيل وهو يذيقهم الموت تبدو لهم في حماستهم البطولية كالمداعبة الحنونة » .

ثم عدنا الى المعسكر ، حيث التقينا في طريقنـا بالمجاهدين مصطفين وهم يصيحون : « الله ينصر السلطان ! » . وارتفعت من البحر نسمة هواء أخذت تداعب برانسهم فبدت كأنها أعلام النصر خافقة تحرس مجاثم مدينة (لبدة) الأثرية وتذود عنها .

الفصل السابع

زليطن ومصراتة

مصراتة في ١٠ مارس ١٩١٢

لعلكم تلاحظون من اسم المدينـة التي أبعث إليكم منها بهذه الرسالة[١] ، أن رحلتي مستمرة بحسب خطتها المرسومـــة ، برغم المصاعب التي كانت تعترضني أحياناً لقد تخلى عني أحد رفقائي التونسيين في بلدة (العزيزية) ، فقد أخافه عبور الصحراء الليبية. بينما قرر زميله التونسي الآخر ، رغم مرضه ، أن يواصل الرحلة معي ، فأركبته على ظهر جمل مدة ثلاثة أيام حتى وصلنا إلى (ترهونة) حيث أصبح في حالة شديدة من المرض، مما اضطرني إلى تركه هناك بعد أن أعطيته مبلغاً من المال يمكنه من العودة إلى تونس بعـد شفائه . ولقد كان ذلك التونسي فتى شجاعاً ومخلصاً ومن الصعب عليّ أن أجد بديلاً له . فالتعاقد مع الخدم وتنظيم القافلة من الأمور التي تحتل في حياة عابر الصحراء نفس الأهمية التي تنظر بها السيدات الأوربيات إلى خادماتهن وطبّاخاتهن .

ينحدر الطريق من (مسلّاته) إلى (زليطن) من فوق ارتفاع يبلغ مائتين وخمسين متراً ، حتى ينتهي وسط صرائم نخيل الساحل ، قرب البحر ، على بعد اثنين من الكيلومترات من بلدة (الخمْس). وكانت مدافع الإيطاليين المتمركزة في (جبل المرْقب) توجه إلى هذا الطريق وابلا من قذائفها كلما عبرته قافلة من القوافل أو جماعة من المجاهدين أو حتى مجرد مسافرين عاديين . ولذا فقـــد اضطررنا إلى مغادرتهـا واتّباع مسالك ودروب جانبية . والتقينا بجماعة من البادية الذين هربوا من أنجعهم ومراعيهم لتعرضها لقصف مـــدافع الإيطاليين

---

(١) لاحظ أن المؤلف قد حرر جميع فصول هذا الكتاب أصلا في شكل مراسلات كان يبعث بها إلى إدارة مجلته في باريس أولاً بأول . المترجم

مباشرة . وكان منظرهم مؤلماً للنفس وهم يمرون من أمامنا : فلقد شُدت الاحمال فوق ظهور إبلهم على عجل ثم أُجلست عليها النساء والأطفال ، وكان الجميع يرتدون أسمالاً بالية ، ويجذبون وراءهم كلابهم . هذا ، في حين بقي من لا دوابّ له جالساً على الأرض لا يدري أين يلتجيء أو إلى أين يذهب، وليس له من طعام إلا سيقان بعض النباتات يمضغها ثم يمتص عصارتها .

واخترقنا من جديد وادي (لبدة) الذي ينتهي عند تلك المدينـة الأثرية نفسها التي سبق لي وأن زرتها كما حدثتكم . وكان الطريق يخترق أشجار النخيل الباسقة وقد نامت على جانبيها أعمدة رومانية أثرية متشابهة لا نهاية لعددهـــا ، كانت محلاة كلها تقريباً بزخارف بارزة عنـد قواعدها . ثم مررنا ببضعة بيوت بيضاء ذات أبواب مقوسة[1] ثم مررنا بفندق توقفنا لشرب الشاي فيه . وكان مرورنا يثير دهشة الناس وتطلعهم في كل مكان . ولقد تعبت عيوني من شدة الحرارة ومن كثرة استعراض المناظر ، ومع ذلك فـــإن هذا الطريق الذي تكتنفه أشجار النخيل يشد النظر ويغري بمشاهدة ما حوله : فمن نسوة يحملن جرار الماء ، إلى أطفال يرعون قطعان المـــاعز ، إلى أناس فقراء استلقوا على قارعته وقد خارت قواهم من شدة الجوع ولم تعد تغطي أجسامهم سوى أسمال بالية ، إلى مجاهدين تتجه جماعاتهم الكبيرة نحو معسكر (الخُمُس) وقـــد تقدمهم ضارب الطبل وحامل العلم الأحمر الذي كان يخفق في أعلى ساريته الطويلة .

وسألت بعضهم :

— « من أين أنتم قادمون ؟ » .

— « من بلدة (سرت) » .

— « كم من الأيام اقتضت منكم هذه الرحلة ؟ » .

---

(١) يُطلق على هذه الأبواب باللهجة الليبية: « باب بوخوخة » ، وهو باب مقوس وطيء ، يشاهده المرء خصوصاً في الأحياء القديمة في بعض مدننا . المترجم

– « ثمانية أيام سيراً على الأقدام » .

إن المسافة التي تفصلنا عن (سرت) هي ثلاثمائة كيلومتر، ولم أر مع اولئك المسافرين من الزّاد سوى بضع حفنات من التمر والدقيق ؛ إلا أن ذلك لا يمنع من أنهم عند وصولهم إلى منطقة (الخُمس) مساء اليوم فإنهم سيشتبكون مع العدو في نفس هذه الليلة !

وكانت جموع اولئك المجاهدين تضم بعض راكبي الجمال الذين كانوا مسلحين بالبنادق الطويلة المحلاّة بالنقوش النحاسية، وتضم الأولياء والمرابطين والدراويش الذين كانوا يرتدون جبباً خضراء أو حمراء، وقد استرسلت شعورهم، وليس لهم من أسلحة سوى الرماح والحراب . حيث يتحلّقون حول قافلتنا لاغطين بأذكارهم وأدعيتهم التي لا تنتهي، فلا نستطيع الفكاك منهم إلا بعد تدخُّل الشرطة التركية التي تحاول إبعادهم بالإقناع أولا ثم لا تلبث أن تستعمل العصي .

وعند حلول المساء كنا قد بلغنا آخر صرمة النخيل، وأخذنا نمرُّ عبر برٍّ رملي نبتت فيه أحياناً بعض الأعشاب الصغيرة . وكنت ألمح في الظلمة هامات الآثار المتباينة الأشكال والتي قيل لي انها آثار قناة ري رومانية كانت تمد مدينة (لبدة) بالمياه في الزمان القديم . وكان الهواء ثقيلاً مشبعاً بالرطوبة ومحملاً بأسراب البعوض . وأخذ جسدي ينضح بالعرق حتى أصبحت سترتي مبللة تماما . وشعرت أن الحمّى التي أُصبت بها عندما زرت الحبشة ومنطقة النيل الأزرق في الماضي، قد أخذت تعاودني . وكانت المنطقة التي كنا نعبرها هي منطقة (عين كعام)[1] .

---

(١) ينطقها المؤلف (عين كعاب) خطأ، وقد أصلحتها . وهي على مسافة ١٤ كيلومتراً غربي زليطن ؛ وقد وقعت فيها سنة ١٩١٥ معركة بين مجاهدي زليطن والإيطاليين عرفت باسم معركة (عين كعام) . انظر « معجم البلدان الليبية » ، ص ٢٣٥ .

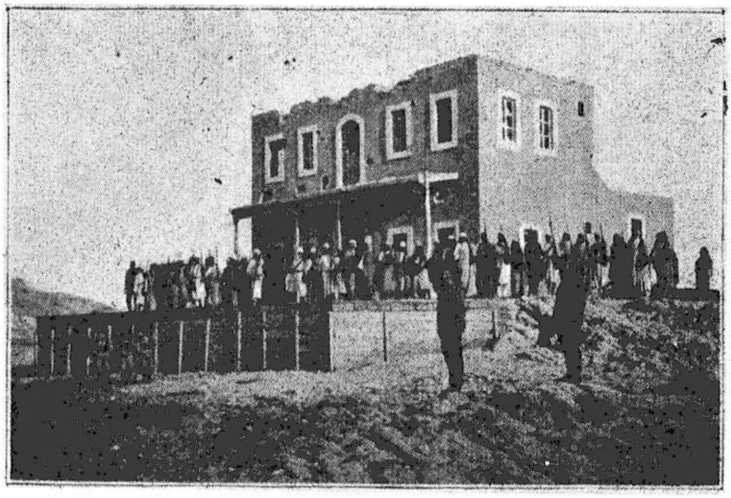
المترجم

ثم عادت أشجار النخيل إلى الظهور في طريقنا . وكنـا نسير بسرعة تفوق تقدم إبلنا ولذا فإننا كنا مضطرين إلى كج جيادنا كل ربع ساعـة انتظاراً لقافلتنا . لقد بدأنا رحلتنا عند الساعة الثامنة صباحاً، والساعة الآن هي الثامنة مساء ، وما زالت تفصلنا عن (زليطن) مسافـة يضطرنا تقدمنا البطيء إلى قطعها في خلال ساعتين أخريين .

وطرقنا باب أحد الفنادق التي وجدناها في طريقنا ، فتردد صاحبه في فتح الباب، ثم حدثت بيننا وبينه مشادّة كلامية دون أن يتبين أي منا وجه صاحبه في ظلمة الليل . وأخذ هدير جمالنا يعلو .. وفي النهايـة رضي أن يبيع رفقائي بعضا من التمر أكلوه ومضينا في طريقنا، حيث أخذنا نقترب من البحر ونتبين هدير أمواجه . واستمر تقدمنا بين كثبان الرمال التي انعكس عليها ضوء القمر فبدت متعاقبة على مدى البصر كأنها أمواج. وعادت صرائم النخيل إلى الظهور من جديد ، حيث سمعنا فجأة نباح الكلاب ، ثم لمحنا أضواء في نوافذ بعض البيوت .

ودخلنا إلى بلدة (زليطن) مخترقين زقاقا اكتنفته المنازل على الجانبين فبدت تحت نور القمر كمكعّبات صغيرة . وكانت في البـلدة بضعة مصابيح مضاءة . ثم ولجنا إلى ميدان إلى جانبه حديقة عامة وتشرف عليه ثلاثة بيوت جميلة المنظر .

وبدت لي بلدة (زليطن) تحت ضوء القمر شبيهة بإحدى مدائن أساطير ألف ليلة وليلة : فهي بلدة متناسقة التخطيط شيدت جميع بيوتها الصغيرة على هيئة مكعبات ذات اسطح بيضاء، وكانت امام أدوارها الأرضية سقائف مقامة على عرصات بدت من ورائها نوافذها الصغيرة . ويخيل إلى النـاظر إلى تلك البيوت انها مكعبات قطع من الحلوى التركية ، فقد كان بياض جدرانهـا في بياض الحليب او القشدة او السكر . وقد احاطت بها أشجار النخيل التي بدت



مبنى جمارك بلدة زليطن بعد قصف المدافع الايطالية له



أحد تجار « زليطن » يمسك في يده قذيفة أطلقتها المدافع الايطالية
على منزله ولكنها لم تنفجر

وكأنها تسبح في ضوء القمر . فبدت لي تلك الخطوط الهندسية وبياض جدران البيوت التي اكتنفها النخيل لوحة من أروع لوحات هذا الشرق الغريب .

ورغم أن الساعة تشير الى العاشرة مساء ، فقد دعينا الى احدى قاعـــات السراي التركي للاجتماع بقاضي (زليطن) وقاضي (مصراته) اللذين استقبلانا بكل ترحاب . وكان الأخير يستعد للرحيل الى (القسطنطينية) . وكان كلاهما من السوريين . وكانت تشع منهما طيبة وجلال يتميز بهما رجال الدين ، وحركاتهم بطيئة . وكانا يلبسان جبّتين بنيّتين وعمّتين محكمتي الطيات فوق رأسيهما . وكانا من العناية بلباسهما ومن النظافة بحيث خجلتُ من شدة قذارة سترتي « الكاكي » ومن طول لحيتي التي لم أحلقها منذ ثمانية أيام . وذلك بالرغم من أن مظهري ذاك كان يبدو بالأمس فقط امراً عادياً ، بل ومحببا حينما كنت وسط المجاهدين الليبيين والعساكر الأتراك .

فها هم أمامي اثنان من عرب المشرق ، تماما كما نتخيلهم في الغرب وتصفهم لنا القصص وتصورهم الصور ، يقفان بلحمهما ودمهما . ولقد كنا بعد ترحال استمر أربع عشرة ساعة متواصلة جائعين متعبين ولا نفكر أو نحـــلم إلا بأكلة دسمة وفراش دافيء . ولكن آداب اللياقة والمجاملة تفرض علينا أن نستمر في الحديث مع هذين الشيخين الجليلين ، حيث طفقنا نتناقش معهم ، بواسطة المترجم ، حول الحرب الدائرة الآن ، وحول السياسات الأوربية تجاه المسلمين . ولم نكن طيلة تلك الجلسة نتناول شيئاً سوى فناجين القهوة التركية الصغيرة التي كنا نحتسيها في رشفة واحدة ثم نتناول منها فناجين أخرى ، وهكذا .

وفي صباح اليوم التالي علمنا أن قوات (خليل بَيْ) عادت فاستولت على (جبل المرْقب) من جديد ؛ غير أنها لم تتمكن من الاحتفاظ به مدة طويلة ، نظراً لشدة قصف المدافع الإيطالية المتمركزة في مرسى (الخـُمس) .

ولبلدة (زليطن) في ليبيا كلهـا شهرة كبيرة ، فهي تضم ضريح (سيدي

عبد السلام الأسمر)، الولي الصالح الشهير الذي لاحظت أن الناس هنا يستغيثون به في كل لحظة ويلفظون اسمه مع كل عبادة .

وقد شاهدت عن بعد ذلك المسجد المهيب الذي به ضريح هـذا المرابط ، وقد بُنيت فوقه عدة قباب صغيرة تبدو شديدة البياض وسط سيقان النخيل الباسقة التي تكتنفها من كل جهة .

وقد ولد سيدي عبد السلام الأسمر في القرن الحـادي عشر[١] الهجري وكان والده من الرقيق ولكنه عتق. ويُروى أيضاً انه من أسرة شريفة تنحدر عن نسل الرسول ﷺ . وقد قضى سيدي عبد السلام طفولته في الرعي ، حيث عُهد اليه برعي الإبل وقطعان الماشية الأخرى في قبيلته . وحدث ان كان في أحد الأيام مع ماشيته التي كانت ترعى الكلأ في أحد الحقول ، فمرّ به رجّالة

---

(١) أخطأ المؤلف في ذكر تاريخ مولد هذا الولي ، إذ جعـله في القرن الحادي عشر ، في حين انه ولد في سنة ٨٨٠ هجرية . وقد نقلت ما رواه عنه هنا دون تحوير . وهو لم يذكر لنا مصادره فيما كتبه عنه ، ولذا فإنه يتحمل صحة او بطلان ما قاله . وقد جاء في كتاب « أعلام ليبيا » للشيخ الطاهر الزاوي مقال عن سيدي عبد السلام الأسمر في صفحة ١٦٩ وما بعدها ، اقتطف منه ما يلي للفائدة والتصحيح :

« هو ابن سليم ، بن محمد ، بن سالم ، بن محمد ، بن حميد ، بن عمران ، بن محيا ، بن سليمان بن سالم ، بن خليفة ، بن نبيل السعيدي المغربي المخزومي القرشي (...) ولد ببلدة زليطن ليـلة الثـاني عشر من ربيع الأول سنة ٨٨٠ . وتوفي والده وهو ابن سنتين وشهرين ، وكفلته أمه وتولى شئونه عمه أحمد بن محمد الفيتوري . وحفظ القرآن وأخذ عن عمه مبادىء الفقـه والنحو والتوحيد والمنطق وغيرها من العلوم ، فهو أول أستاذ تتلمذ له . ثم قرأ على الشيخ عبد الرحمن الوسلاتي ، والاستاذ الشيخ زروق ، والشيخ الدوكالي ، وعنه أخذ التصوف (...) وله كتاب « العظمة في التحدث بالنعمة » و « الانوار السنية في أسانيد الطريقة العروسية » و « التحفة القدسية لمن أراد الدخول في الطريقة العروسية » ، والنصيحة الكبرى المسماة « نصيحة المريدين في الأولياء الصالحين » .. الخ . (...) وقد انتهبت مؤلفاته وضاعت حينما انتهبت زاويته في فتنة قتل ابنه عمران سنة ٩٩٥ هـ. (...) وتوفي الشيخ عبد السلام الاسمر في العشر الاخيرة من شهر رمضان سنة ٩٨١ هـ. » .

المترجم

سوري هو (سيدي عبد الملك) الذي أحاطه بلطفه وأخذ يناقشه في شئون الدين . وقد دهش ذلك الشيخ السوري لفطنته ودقة معلوماته الدينية ورجاحة عقله، فتنبأ بأن ذلك الغلام ممن اصطفاهم الله؛ ولذا فقد أخذ يعلمه أصول الفقه .

إلا ان زملاء الغلام من الرعاة الشبان سخروا منه قائلين :

« إن هذا الشيخ لا يلازمك إلا لطمعه في حليب نياقك » .

فكان لا يأبه بما يقولون . وحدث ان كان سيدي عبد السلام مع رفـــاقه الرعاة مرة في بقعة لا ماء بها ، حيث اشتد بهم العطش ، فقالوا له :

« يا عبد السلام !.. ما دام شيخك قد علـّمك مـا علـّمك من العلوم التي تتباهى بها ؛ فهيَّا برهن لنا على فائدة ما تعلمته ، واجعل الماء ينبجس من هذه الصخرة التي نجلس الى جانبها ! » .

فما كان من سيدي عبد السلام إلا ان رفـــع كفيه الى السماء متضرعاً ، وأخذ يقول :

« يا إلهي ! يا خالق النور ، يا من اصطفى محمداً ﷺ نبياً ورسولاً . ان كان ذلك الشيخ السوري قد علمني الحقيقة وأجلاها أمامي ، فارزقنا ماءً » .

فما كان من الماء إلا ان تفجر رقراقاً من تلـك الصخرة التي كانت صمَّاء كالحديد . وحينئذ آمن رفاقه انه حقاً من أولياء الله الصالحين . وكان عدد أولئك الرفاق عشرة ، وقد صاروا منذ تلك اللحظة أتباعاً مخلصين . ويقـال انهم هم مؤسسو « الطريقة الأسمرية » . ويدعى أحدهم (نجم الدين) وهو قد صار فيما بعد من أشهر الأولياء في البلاد الاسلامية كلها .

ولم تكن سنّ (سيدي عبد السلام الأسمر) في ذلك الوقت قـد تجاوزت الثلاثة عشر عاماً ، وهي سنّ مبكرة لا تظهر فيها عادة دلائل الكرامات عند الأولياء الصالحين . وعندما بلغ سن العشرين جـاء للاستقرار في (زليطن) ،

التي لم تكن في ذلك الوقت سوى واحة صغيرة تحتمي فيهـا قبائل البادية من حرارة الصيف . وحيث ان تلك القبائل كانت تقضي حياتهـا في الحروب والغزوات القبلية التي لا تنتهي ، فإن (سيدي عبد السلام) قد حثّهـا على تناسي الخصومات ودعاها الى العيش في وئام وسلام وتناسي الشقـاق والخصومات .

وقد روى لي الناس هنا الكثير عن مكارم هذا الولي ، فقيل لي مثلاً ، انـه قد صام مرة مدة ثلاثة أشهر كاملة ، وانه كان يحتفظ معه بكسرة من الخبز كان يزمع ان يبدأ بها إفطاره بعد ذلك الصوم الطويل ، ولكن حدث ان مرّ به أحد المتسولين فأعطاها له .

وفي مرة أخرى كان مستلقياً فوق برنسه ، فجاءت قطة ونامت على طرف ذلك البرنس. ولكي لا يوقظ تلك القطة من نومها عند قيامه فإنه قد قطع طرفه الذي نامت عليه حتى لا يعكر عليها راحتها ونومها .

وأراد مرة ان يضرب المثل للمسلمين عن مدى الفائدة التي تعود عليهم من اتحادهم وتآلفهم واعتصامهم بحبل الله ، فروى لهم هذه الحكاية التي تحمل عظة ، قال :

« يروى ان أحد الشيوخ المسنين كان على فراش الموت ، فجمع حوله أولاده ، وأخذ سبعة أعواد من الحطب وبدأ يكسرها الواحد تلو الآخر بسهولة فائقة ، بالرغم من وهن ساعديه وضعف قواه . ثم رماهـا وتناول سبعة أعواد أخر ، مماثلة لتلك ، وربطها الى بعضها في حزمة واحدة ، ثم مدها اليهم طالباً منهم ان يحاولوا كسرها ، فلم يقدروا ، رغم قوة سواعدهم الشابة المفتولة » .

وفي إحدى المرات كان يجلس في حلقة درس يعظ المسلمين يسوق لهم الشواهد والدلائل على بعث النفوس في اليوم الآخر ، فتنبأ لهم بموته وأخذ يروي لهم حلماً رآه في نومه قائلاً :

« رأيت فيما يرى النائم سيدنا « عزرائيل » ينزع عنّي روحي ، وقد غادرتني الروح على النحو الذي يخلع به المرء قميصه عن جسده .. آه ! كم كنت أقاسي ! ثم جاء المُغسِّل فغسَّل جسدي الميت ، ثم كفّنني في كفن . ثم جاء أتباعي وأخذوا يدلقون على جسدي عطور الشرق وروائحه ، وهم يبكون وينوحون ، ثم ووريت القبر وأخذ اللحّاد يهيل فوق جثتي التراب الثقيل . وما هي إلا لحظات إلا وجاء سيدنا (عزرائيل) فحملني على جناحيه الى الجنة . فيا إخوتي المسلمين !.. عليكم بسلوك الطريق الذي سلكته في حياتي ، فإنه كفيل بأن يقودكم الى الجنّة وطيباتها » .

وأخذ الناس بعد ذلك يطلعونني على آثار قصف المدفعية الايطالية لبلدة (زليطن) . وقد وقعت قذيفة في أحد بيوت اليهود فقتلت أحد زواره ، وسقطت أخرى في متجر ولكنها لم تنفجر لحسن الحظ . وقد التقطتُ صورة لصاحب المتجر وهو واقف أمام بيته وسط جمهرة من الناس وقد أمسك بالقذيفة بين يديه . وأصابت عدة قذائف أخرى جدران بعض البيوت وتسببت في قصم بضع نخلات . وعلى أية حال فإن (زليطن) التي لا تبعد عن شاطىء البحر سوى ثلاثة كيلومترات ، لم تنلها الحرب كثيراً ، ويبدو لي ان سكانها لم ينزعجوا منها كثيراً . ومع ذلك فإن مبنى الجمارك البحرية التابع للبلدة قد تعرض للقصف أكثر من مرة وأصابته حوالى مائتي قذيفة .

والغريب ان متاجر اليهودي (ناحوم) — وهو في الأصل من مدينة طرابلس — لم تصب بأذى رغم انها تقع غير بعيد عن مبنى الجمارك . ولكن لنلاحظ ان (ناحوم) يحمل وثيقة حماية ايطالية .

ويبلغ عدد سكان (زليطن) ما بين ثلاثين وأربعين ألف نسمة . وتنسب بعض العائلات هنا الى نفسها انها تنحدر من ذرية (سيدي عبد السلام الأسمر) ، وتحتفظ هذه العائلات بمجلد ضخم يضم قصة حياته . كما يوجد بالمدينة أبناء

وأحفاد بعض الأسر الجزائرية الأصل التي هربت من الجزائر بُعيد احتلال فرنسا للجزائر [سنة ١٨٣٠] ، حيث استقرت هنا .

يخترق المسافر من (زليطن) الى (مصراتة) مسافة ستين كيلومتراً عبر الكثبان الرملية ، ثم يمر بين غابات النخيل التي تتواصل مسيرة ساعتين قبل ان يصل الى المدينة . والطريق ممل والشمس حارقة . وقد يسأل سائل عما كنا نفعله ونحن نخترق هذه البيداء الخالية طيلة ساعات وساعات ؟.. كنا نغفي فوق ظهور خيولنا وقد غالبنا النعاس ، بل ان خيولنا نفسها تسير وهي شبه نائمة هي الأخرى . وكنا نقتل الوقت بترديد بعض الأغاني او استرجاع ذكريات لا يربط بينها رابط . وكانت الحرارة وشدة التعب وطول الطريق تنال منا كثيراً حتى ليكاد المرء ان ينسى من هو وما الذي أتى به الى هنا . فشخصية الانسان الضئيلة ليس لها إلا ان تتلاشى وتمحي وسط تلك القفار التي لا نهاية لها .

ووصلنا الى (مصراتة) بعد انقضاء عشر ساعات من السفر، حيث تخلفت قافلة جمالنا وراءنا . ولقد بدت لي شوارع المدينة واسعة ، وكان على جانبي كل منها طوار مرصوف ، وقد تخللتها المصابيح . انها مدينة طرابلسية صميمة وان كانت قد اتخذت لها طابعاً حديثاً بعض الشيء لما بها من الدواوين الحكومية وبيوت الموظفين ، كما ان بها سوقاً للحبوب .

وتبعد (مصراتة) عن البحر بحوالى أربعة كيلومترات، أما مرفأها المسمى (قصر حمد) ، فإنه يقع على بعد اثني عشر كيلومتراً الى شرقها ، وبه قصر قديم مهدم تماماً ، وقد غطته الرمال وبنيت فوق أنقاضه بضعة مبان جديدة ومتاجر ومبنى للجمارك ، لاحظت ان جدرانه قد تعرضت لستّ او سبع قذائف ايطالية . وقد تساقطت بضع قذائف أخرى داخل مدينة (مصراتة) نفسها ، ولكنها لم تلحق بها أية خسائر . وقد حدث ذلك منذ حوالى شهر ونصف تقريباً .

وقد بدأ الايطاليون بأن قصفوا منطقة (بو شعيفة) الواقعة على شاطىء البحر على بعد أربعة كيلومترات من (مصراتة) نفسها . وقد انتقل (حقّي بَي) قائد حامية المنطقة مع المجاهدين في اتجاه الكثبان الرملية الواقعة خلف المدينة ، توقعاً لإقدام الايطاليين على النزول الى الشاطىء ، ولكنهم لم يجسروا على ذلك بعد .

ووقعت يدي في سوق (مصراتة) على كراسة قديمة تتضمن معلومات تاريخية عجيبة ، تُرجمت لي ، ومفادها أنه عندما قدم (الأمير عبد الرحمن)[1] – الذي وصل فيما بعد فاتحاً حتى مدينة (پواتييه) – إلى هذه الربوع مع الجيوش الاسلامية الفاتحة ، أعلن البربر هنا إسلامهم ، ولم يقاوموا ، بل انضموا طوعاً الى جيوش العرب الفاتحين . ثم عيّن (سالم النجدي) حاكماً لمصراته . وبعد ذلك استمرت الجيوش العربية في فتح بقية ليبيا وشمال إفريقيا . كما جاء في نفس الكراسة أن (سيدي بن عيسى) ، الولي المشهور ، هو أحد أحفاد (سالم النجدي) ، وأن سيدي بن عيسى هذا قد ذهب الى الأندلس للاشتراك في الدفاع عن غرناطة ضد النصارى ثم رجع فاستقر في المغرب الأقصى ، حيث

---

(١) يقصد المؤلف هنا (عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي) الذي سار على رأس جيوش المسلمين حتى جنوبي فرنسا ، حيث هزم الدوق (اوددكيتان) وجيوشه قرب مدينة (تولوز) ، وتوغّل في فرنسا إلى أن وصل الى مدينتي (بواتييه) و (تور) ، حيث اشتبك مع جيوش (شارل مارتيل) في المعركة التي يطلق عليها المؤرخون اسم معركة « بلاط الشهداء » التي وقعت سنة ٧٣٢ ميلادية ،

ولكن فتح ليبيا تم سنة ٦٤٢ ميلادية (٢١ هجرية) : فكيف يكون (عبد الرحمن الغافقي) هو الذي فتح (مصراته) ، أو حضر فتحها ، في ذلك التاريخ ، ثم يكون في سنة ٧٣٢ فاتحاً لجنوب فرنسا ؟.. فإن تسعين سنة كاملة تفصل بين التاريخين . ولعل ما جاء في الكراسة التي وجدها المؤلف في سوق (مصراتة) يعني شخصاً آخراً اسمه (عبد الرحمن) ، فخلط المؤلف بين اسمه واسم (عبد الرحمن الغافقي) الذي وصل إلى مدينة (بواتييه) ، مما أوقعه في هذا الخطأ .

المترجم



مدينة مصراتة : السوق



مصراتة : سوق اللحم

أنشأ في مدينة (مكناس) « الطريقة العيساوية » ، وهي طريقة صوفية معروفة في كل شمال إفريقيا .

كان قصر (مصراته) في الماضي هو المكان الذي تدور حـــوله المعارك بين قبائل البادية ، حيث يتاح للقبيلة المنتصرة أن تسيطر على كل المنطقة الممتدة حتى بلدة (زليطن) .

ولقد قمتُ بالتقاط صورة جماعيــة لأعضاء المجلس البلدي من أعيان المدينة بينما كانوا يعقدون جلسة بمبنى البلدية . وكانوا يرتدون أردية ومـــلابس فخمة جميلة ، فكانوا من الأبهة وحسن المظهر إلى حد يفوق ما يمكن للمرء أن يشهده بالنسبة لأعضاء مجلس بلدي في إحدى المدن الفرنسية الصغيرة .

وقد أُعجب بعضهم بآلة التصوير ، وطلبوا مني بإلحاح أن أستخرج الصور وأوزعهـــا عليهم فوراً . وتقدم مني أحد الدراويش ، وكان شيخاً مسناً يلبس ثياباً نظيفة وعمة خضراء ؛ فأبدى اهتمامه الشديد بي وجلس الى جانبي حيث طفق يحدثني طويلاً عن الإيطاليين وأفعالهم الشنيعة ، ثم عقّب قائلاً :

— « إن الرسول [عليه السلام] يأمرنا بالدفاع عن الديار وعن كل ما نملكه حتى ولو كان نخلة يتيمة : إن الإيطاليين يأتون اليوم لسلبنا بلادنا وممتلكاتنا وقطع رؤس نخلاتنا ، ونحن لن نقبل هذا حتى وإن ذبحونا جميعاً » .

ثم ازداد اقتراباً مني ، وبادر فأطلعني خفية عن أعين الرقباء على « حجاب » قائلاً بهمس :

« أرأيت هذا « الحجاب » الصغير ؟.. انك قد تعتقد أنه لا يساوي حتى أربعة دراهم : لكنه في حقيقة الأمر لا يقدّر بمال ، فهو يتضمن تعويذة خاصة ورثتها عن والدي (السلطان حسن) .. وليس للإيطاليين من هدف وهم يهجمون

علينا سوى اختلاس هذا « الحجاب » مني ، لأنهم يدركون أنهم إن استحوذوا عليه فسيمكّنهم من السيطرة على الدنيا كلها » !

وفي تلك الأثناء كان عميد بلدية (مصراتة) السيد (محمود بَيْ) ينصت الى هذيان هذا الدرويش ، حيث بدا عليه الحرج والضيق الشديد ؛ فهو من ناحية لا يريد أن ينهره ، ومن ناحية أخرى يخشى أن أسخر منه ، ولذا فإنه أخذ يغمزني من آن لآخر او يقول لي بصوت خافت :

– « لا تُلق بالاً الى ما يقول فهو درويش مخرّف » .

وحيث أنني كنت أُزمع السفر في صباح اليوم التالي ، فإن عميد البلدية قد تكرم فأحضر إلي بنفسه « شكوة » ابن وقطعة كبيرة من الجبن كان قد بعث بها إليه رعاة قطعانه السارحة في مراعي قرب سبخات (تاورغاء) . وقال لي وهو يقدم لي اللبن والجبنة :

– « هذه هدية متواضعة جداً ، إلا أنها فأل حسن ومليئة بالبركة .. فليكن طريق سفرك مباركاً أبيض كبياض هذا اللبن ! » .

وأهدى إليّ شيخ آخر هو الشيخ (علي ماني أفندي) غدّارة رائعة ، ماركة « لو بيل » ، مغطاة كلها بطبقة من الفضة ، وموضوعة في غمد مبطّن بالمخمل الأحمر ومحلى بخيوط من الذهب والريش الملون. كما أهدى إلى ترجماني الجزائري بندقية غنمها المجاهدون من الإيطاليين في إحدى المعارك .. فها أنذا مُسلّح كشيخ عربي !

تلك هي علاقتي مع أهل « المصراته » الشجعان الذين اختبر الإيطاليون أنفسهم مدى شجاعتهم وعنفهم منذ أن اشتبكوا مع مجاهديهم في معركتيْ (الهانيء) و (سيدي المصري) . وقد كنتُ أسمع عن شجاعتهم وبسالتهم في كل بقعة مررت بها في طرابلس الغرب كلها . فها قد اجتمعت بهم بنفسي فصدقت كل ما قيل لي عنهم ، وإنني لعلى يقين من أنهم مقاتلون شديدو المراس . لقد التقيت بمجاهدين من « عرب مصراته » في كل الخطوط الأمامية المحاربة ،

في (العزيزية) وفي (الخُمس) ، وهنا في (مصراته) نفسها ، حيث وجدتهم يسهرون على حماية مدينتهم وشواطئها ليل نهار. وقد يسألني القارىء الفرنسي: هل هم متعصبون ضد الأوربيين ؟.. ربما . ولكن ماذا تعني كلمة « متعصب » في مثل هذه الظروف ؟.. ثم أننا نحن الأوربيين ، أليس بيننا متعصبون أكثر مما يوجد بين العرب ؟. وإنني لأتذكر بالمناسبة عبـــارة « مونتيني »[1] وهو يتحدث عن القبائل (الأركاوية) ، حيث قال : « إن أفرادهـــا قوم عقلاء ، ولكن يا للهول ! : إنهم لا يلبسون سراويلاً ! ». فليطمئن اولئك الذين يتهمون الليبيين بالتعصب ، فإنهم ليسوا عراة بل إنهم أناس متحضرون يلبسون برانس جميلة . غير أنّ بعض الغربيين من لابسي البرانيط والبدل الأنيقة يرون أحياناً في كل من يلبس برنساً أنه انسان متعصب .

قرر زميلي الصحفي (بول ترستان) العودة الى (الخُمس) . اما بالنسبة لي فإنني سأحاول مواصلة طريقي الى (سرت) ومنها الى (بنغازي) . إن قافلتي جاهزة للرحيل ، وذلك بفضل مساعدة رئيس بلدية (مصراته) الشهم ولسوف أرحل غداً « إن شاء الله »[2] . والطريق الذي ينتظرني صعب وعر ، لا يمر بمدن ولا يوجد به ماء للشرب . ولذا فإنه اذا قُدّر لي ان أواصل رحلتي التي بدأتها في نقطة (ذهيبة) التونسية حتى بلدة (السلوم) المصرية ، كما أنا مزمع ، دون عائق ، فإن الحظ يكون قد حالفني حقاً ، وأكون بذلك قــد نجحت بمعجزة في اختراق ليبيا كلها في وقت اشتعلت فيه الحرب، وعبر مناطق اشتهرت عندنا بأنها مستحيلة العبور .

---

(١) مونتيني هو مفكر فرنسي كبير ولد سنة ١٥٣٣ وتوفي سنة ١٥٩٢ . وقــد اشتهر خصوصاً بمؤلفه المسلسل المسمى « الرسائل » الذي ظل يصدر أجزاءه حتى وفاته فلم تُنشر كاملة إلا بعد وفاته بثلاث سنوات . أما القبائل (الأركاوية) فهي من قبائل الهنود الحمر التي كانت تعيش في أمريكا والتي ناضلت ضد فرنسا التي أرسلت جيوشها لاحتلال موطنها في أمريكا الشمالية حتى سنة ١٧٠٠ ميلادية .

(٢) وردت بالعربية في النص الفرنسي . المترجم

الفصل الثامن

عبر صحراء خليج سرت

خرج أعيان (مصراته) لتوديعي حتى مشارف مدينتهم، ثم توقفوا وأخذوا يضمونني الى صدورهم ويعانقونني عناقاً حاراً، راجين لي سفراً ميموناً ومعبرين لي عن حزنهم الشديد لفراقي لهم .

وحيث أننا لم نغادر (مصراته) إلا في ساعة متأخرة من النهار ، فإننا لم نواصل سفرنا إلا لمدة ساعتين توقفنا بعدها لقضاء الليل وسط بساتين نخيل (قصر حمد) ، غير بعيد عن شاطىء البحر ، قرب مبنى الجمارك الذي سبق للايطاليين ان رموه بقذائف مدافعهم . والتقيت هناك بنقيب في الجيش التركي يعمل في المركز التلغرافي ؛ وكان هذا الضابط قد رافق بعثة « سان فيليبو سفوررزا » العلمية الايطالية ، وهي البعثة التي كانت في طريقها الى (مرزق) ، حين قُبض على أفرادها منذ بضعة أشهر ، وسُجنوا منذ بداية هذه الحرب لاتهامهم بالتجسس ، فسألته :

– « هل تعتقد ان أفراد تلك البعثة الايطالية كانوا بالفعل من الجواسيس» ؟

فرد قائلاً :

– « الواقع أنني لا أستطيع ان أجزم لك بذلك ، فقد بدوا لي في الظاهر أناساً طيبين » .

وواصلنا سفرنا في اليوم التالي منذ الفجر الباكر ، حيث غادرنا بساتين نخيل منطقة (قصر حمد) ، وأخذنا نخترق كثباناً من الرمال وفيافي خالية لم يكن ينبت بها سوى نباتات « الرَّتَمْ » القليلة ، والتي بدت تائهة وسط تلك الصحاري الواسعة المسطّحة كورقة كتاب ، وقد اتخذت تحت أشعة الشمس البازغة لوناً

خُبَّازياً جميلا ، وتناثرت فيها هنا او هناك ألسنة رقيقة من أسباخ الملح البيضاء اللامعة . وبدت قافلتنا ضئيلة وسط ما كان يحيط بها من الفيافي التي لا تُحد ، التي ارتسمت عليها ظلالنا فبدت تواكبنا كالأشباح المخيفة . وكنا وحيدين وسط ذلك الكون الذي تلاشت فيه أسباب الحياة ولم يعد به أثر لمخلوق حتى وان كان طائراً مهاجراً او عشبة يتيمة ، ولم يعد لنا في الحقيقة من رفيق سوى أعمدة التلغراف الممتدة في الاتجاه الذي كنا نسير فيه . ولا بد لي هنا ان أضيف تلك الأعمدة الى قائمة شخصيات الصحراء التي ذكرتها لكم في إحدى صفحات هذا الكتاب .

وحوالى الساعة الخامسة مساء نصبنا خيمتنا في بقعة تسمى (ملغة) لا تبعد عن البحر سوى مسافة مائة متر ، فلم نجد بها ماء ولا عشباً .

وقد تعودت الآن ان أنام بنصف عين وبربع أذن ، وأصبحت أصوات معسكرنا الصغير من الأشياء التي تعودتها عيني وأذني ، فإني أكاد ان أرى ما يدور فيه حتى في أحلامي . وصرت أدرك دلالة كل حركة ومصدرها حتى وأنا نائم ، بحيث تُملي عليّ حاستي الباطنة ما اذا كان عليّ ان أصحو للقيام بجولة حول المعسكر أم أستمر في الرقاد .

ثم رحلنا في الساعة الرابعة من صباح يوم ١٣ مارس . واقتضى منا تقويض الخيمة وإيقاظ أصحاب الجمال وتناول طعام الإفطار وتحميل الإبل وشرب الشاي ، ما بين ساعة او ساعة ونصف . ثم ألقينا نظرة أخيرة على البقعة التي قضينا الليلة بها خشية ان نكون قد نسينا شيئاً ، واستعنّا في ذلك بضوء فوانيسنا الصغيرة . وحيث ان ظلمة الليل لم تكن قد تبددت تماماً ، ونظراً لطراوة الجو ، فقد فضلنا ان نمشي على أقدامنا وقد طوى كل منا طرف لجام حصانه حول كتفه وأخذ يجذبه وراءه .

كانت قبة السماء تنتصب فوقنا هائلة رائعة وقد بدا لونها أزرق داكناً ، لا تشوبه مزنة او سحابة ، فخيل إليّ أننا لن نصل الى طرفها الآخر ، المتواري

وراء الأفق ، أبداً . ولم أكن أشهد تحت قبة السماء تلك أيّاً من تلـك اليمامات الورقاء التي طالما تلذذتُ بمشاهدتها وهي تحوم فوق قباب مسجد « آيا صوفيا » بالقسطنطينية ؛ فاكتفيت بالتطلع الى تلك الأنجم السابحة في سماء تلك الصحراء البلقع الى ان أصابني الدوار ، فخيل إليّ أنها طيور من الذهب . ولفت أحـد مرافقي نظري الى « نجم الصباح » الذي تراءى لي وهو يومض في الأفق كأنه مصباح صغير كتلك المصابيح التي يضعهـا الملاحون في رأس صواري مراكبهم لتحديد مواقعها للناظر اليها عن بُعد .

وتذكرت تلك النبوءة التي نطق بها أحد أئمـة المسلمين – لا يحضرني اسمه الآن – إذ قال لقومه مرة :

« ستذهبون الى القسطنطينية يوماً للفوز بآية فلسفية ! » .

وقد صدقت نبوءته فيما بعد ، إذ وصلت جيوش المسلمين الى القسطنطينية وفازت بتلك الآية الفلسفية : آية الحكمة المقدسة[1] . وسألت نفسي وأنا أخترق في فجر ذلك اليوم صحراء ليبيا ، ماضياً تحت قبة سمائها التي ذكرتني بقبـة مسجد « آيا صوفيا » التي أدهشتني أبّهتها يوم ان زرت القسطنطينية . ترى ما هي تلك الآية الفلسفية التي قدمت أنا للبحث عنها هنا؟.. ثم أنصتُّ عبر سكون تلك البيداء طويلاً لعلني أفوز بإجابة عن تساؤلي . ودهمني التعب والملل في تلك اللحظة ، فقلت لنفسي : ان الذي يتحمل الشدائد في سبيـل الوصول الى هنا لا بد وان يكون معتوهاً او مجنوناً ؛ فمجانين أولئك الايطاليون الذين جاءوا غازين لهذه الأرض التي يطمعون في ان يبعثوا فوق رمالها أمجـاد الامبراطورية الرومانية الزائلة كما يدّعون .. ومجنون أنا ، إذ عانيت ما عانيت وكابدت ما كابدت من مشاقّ السفر والترحال لكي أشهد وقائع هذا الغزو .

---

(١) يُلمّح المؤلف هنا ضمنياً الى تحويل المسلمين ، بعد فتحهم القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ميلادية ، كنيسة « آيا صوفيا » التي كانت أم الكنائس البيزنطية قبل ذلك التاريخ ، الى مسجد كبير يعرف من ثم بمسجد « آيا صوفيا » التي تعني بالعربية : آية الحكمة المقدسة . المترجم

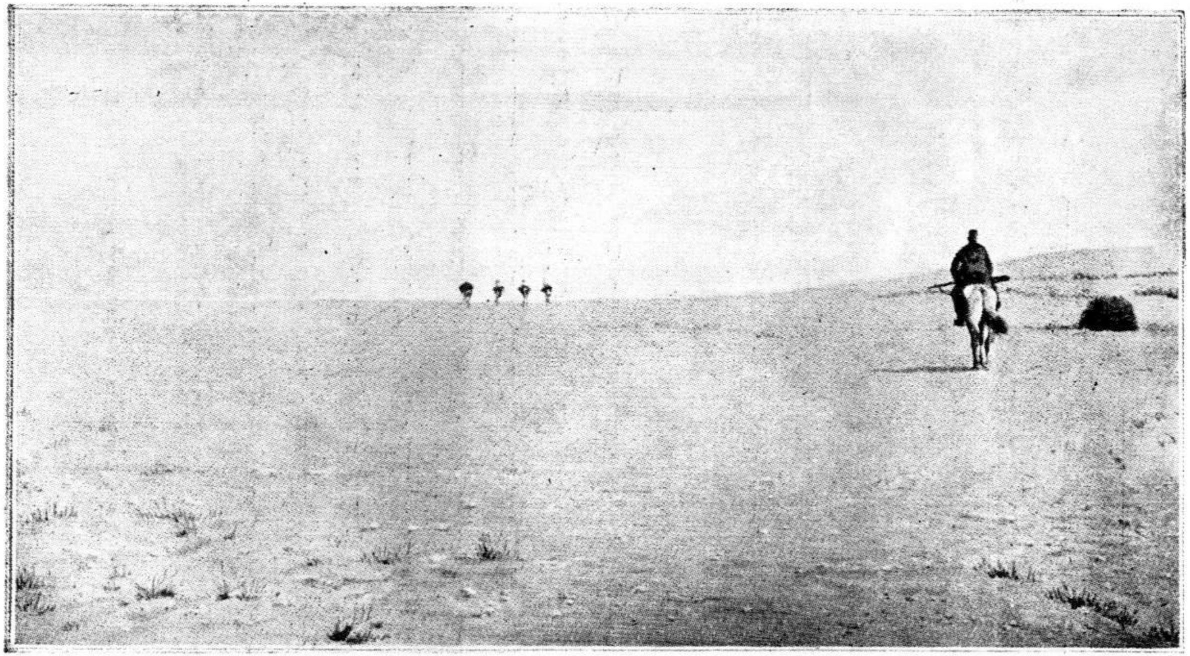
فما الذي جاء بي الى هنا ؟.. هل هي محاولة الهروب من نفسي ؟ ولعل الحروب والعصبيات وتنابذ الشعوب ما هي في التحليل الأخير إلا محاولات من البشر للهروب من أنفسهم . هكذا خففت عن نفسي ثورتهـــا بهذه التأملات والخواطر .

إن شدة انعكاس الضوء على هذه الرمال وعنف وهج الشمس الذي يعمي العيون ، تؤدي الى اختلال التفكير وتشويش البصيرة ، بحيث تتخـذ تفاصيل الأشياء الصغيرة التافهة أحجاماً هائلة . فإن نباتاً ضئيلاً يبدو عند الأفق وكأنه شجرة كبيرة ، ويتحول المسافر او البعير عن بعد الى شبح ضخم الهيئة . فنظر الانسان يصبح قوياً حاداً ، بحيث يرى بوضوح أدق تفاصيل الأعشاب او يتميز أدق درجات التلوّن في وريقات زهرة ضئيلة . كما انه حين يحرَنُ حمار أحـد خدمي رافضاً التقدم خطوة وينهال عليه صاحبه ضرباً ، فإن ذلك المشهد التافه يبدو لي وكأنه حدث جسيم يستلزم الاهتمام . وكنا نمر بلي يميننا بمستنقعات سبخ مترامية الأطراف كان السراب يولد خلفها كل لحظـة ليتلاشى في اللحظة التي تليها ثم يظهر من جديد ، وهكذا .

وعند الساعة الحادية عشرة صباحاً وصلنا الى نقطة (بو رتيمة)،وهي إحدى المراكز التلغرافية المتناثرة في تلك الصحراء . ولقد وجدنا بها بضعة من البدو كان معهم شخص سوري[1] من (نابلس) مكلف بالإشراف على تلـك النقطة التلغرافية . وذكرني مرآه بتلك الأمسية التي قضيتها بمدينة (نابلس) ، أثناء إحدى زياراتي للشرق ، حيث خرجت مرة للنزهة في بساتينها الفوّاحة ، وعند مروري بجدول ماء كان يجري بين كرومها وأشجارها تقدم مني فلاح فأهداني باقة من الورد .

---

(١) لاحظ ان سوريا كانت تشمل في الفترة التي يقصدها المؤلف كل من الاردن وفلسطين ولبنان ، إذ ان المشرق العربي لم يكن قد تجزأ الى دويلاته الحالية بعد . ولذا فإنه يذكر مدينة نابلس على انها من المدن السورية . المترجم



بداية عبور صحراء سرت

وبدت لي فجأة حياة ذلك السوري، الذي كُتب عليه المنفى في (بو رتيمة) حياة بائسة قاسية ؛ غير أنني لم ألبث ان تملكتني الدهشة ، حين أطرى لي تلك الحياة قائلاً :

— « إنني سعيد للغاية ، فالهواء في هذه البقعة عليل ! » .

ولعله محقّ ، فإن كثرة التنقل والترحال ، قد تجعل التعلق بالهواء العليل هواية — خصوصاً وأن صحراء مثل هذه لا تسمح بالتعلق بهوايات أخرى — ولذا فإن المرء ينتهي إلى الاكتفاء بالمقارنة بين هواء هذه البقعة بتلك أو بتلك، بذوق وبتفنّن مدهش ، كما نفعل نحن « البورغونيين »[1] عندما نفاضل أو نمايز بين هذا أو ذاك من صنوف النبيذ الشهيرة التي ينتجها إقليمنا . وعلى ذكر النبيذ ، فإن هذا السوري النابلسي ليس هاوي نسمات هواء عليلة فحسب ؛ بل إن له هواية أخرى أنكى وألعن ، هي تعاطي الخمرة . فلقد احتفظ لنفسه هنا في (بورتيمة) بذخيرة مخزّنة من المشروبات المحلّية المسكِرة المصنوعة من التين أو من التمور المخمّرة هذا إلى جانب عدة زجاجات من « الكونياك » التي جلبها من طرابلس الشام أو من بيروت .

وهو يقضي وقته مشغولاً بهواية ثالثة وهي صيد السمك بالديناميت ، وصيده منه هو من الكثرة بحيث أن « قبيلة» صغيرة من البدو قد استُقطبت إلى مركزه التلغرافي وحطّت رحالها نهائياً حوله .

وسألته عما يفعله هؤلاء القوم هنا معه ، فردّ عليّ قائلاً :

— « لا شيء ! .. إنهم من المساكين ، وهم يعاونونني أحياناً في التقاط السمك بعد القاء الديناميت ، فأقوم بتوزيع جانب من حصيلتي منه عليهم ، كما

---

(١) إقليم « بورغوني » الذي ينتمي إليه المؤلف يقع في شرقي فرنسا وعاصمته الإقليمية هي مدينة (ديجون) . المترجم

أنني أجود عليهم أحياناً بشيء من المؤن التي ترسل إليّ ، وإن حدث أحياناً وأن منحتهم بعض الخمرة التي أصنعها بنفسي فإنهم يُسرُّون بذلك كثيراً » .

ولقد أخبرني هذا الرجل انه اضطر إلى ترك بلاده سوريا بعد اتهامه من قبل الدولة العثمانية بتهريب الأسلحة . وقد اشتبهت السلطات في أنه ما يزال يهرب الأسلحة حتى هنا في ليبيا ، ولكن قيام الحرب ضد إيطاليا اضطر الأتراك إلى غض الطرف عنه ، بل انه يـــدّعي أنهم قد شكروه على ذلك لأنه يسهم في تسليح الليبيين في الدواخل . وأخبرني أيضاً أنه حينما مرت السفن الإيطاليــة الحربية بنقطة (بو رتيمة) متجهة لضرب بلدة (سرت) فإنها قصفت مركزه التلغرافي بمدافعها غير أنها لم تتمكن من إصابته . بل إن الإيطـاليين قد حاولوا النزول في (بو رتيمة) تحت جنح الظلام وهدفهم تقطيع الأسلاك التلغرافيـــة وتخريب الأجهزة ، ولكنه فطن لمحاولتهم فأسرع بتسليح مجموعة البدو القاطنين بجانبه وكمن معهم وراء كثبان الرمال ، فكان مجموعهم عشرين رجلاً . وقد أحدثت بنادقهم من الدّوي الهائل مـــا أفزع نفوس الايطاليين المتسللين الذين ظنوا أنهم إزاء جيش كامل من المجـاهدين ، فلم يلبثوا أن فروا عائدين إلى سفنهـم .

هل هو صادق فيما يقوله ؟.. ربما. ومن يدري ! فلعل حرارة الشمس وتأثير الخمرة عليه قد ذهبت بعقل هذا المنفي الوحيد فتخيل ما تخيل !

وعرض عليّ أن يعهد إلى عامل التلفون المعاون أن يصحبني حتى مدينة (بنغازي) لتقديم خدماته لي ، كما عرض عليّ كذلك أن يمنحني اثنين من جياده المطهمة .. وبطبيعة الحال ، فقد كان ما عرضه عليّ لا يعدو أن يكون ادعاءً إذ أنه لم يكن لديه عامل تلفون ، كما أنه لم يكن يملك جياداً مطهمة !

لكنني أحببت تلك الشخصية وأعجبت بها فقد كان إنساناً جريئاً مدهشاً، حري بالمرء أن يلتقي به ويتعرف عليه في تلك البقعة الخالية .

وأمضينا عشية ذلك اليوم معاً ، نقتل الوقت في التمرّن على إصابة الهدف . وفي المساء دعوته إلى العشاء فاعتذر وألححت عليه في دعوتي، فاستمر في الامتناع مدعياً - كذباً فيما يبدو - أن له ثلاث زوجات وأنه مضطر الى مغادرتي إليهن، إذ انه على حد قوله، ما أن تحل الساعة السابعة مساء حتى يتحتم عليه أن يذهب إليهن لقضاء الليـــل بينهن بالتناوب حيث يتحفْنه بالأكلات الشهية وبشراب « العرق » . ثم أردف قائلاً انه نادراً ما يجلس إلى زوجاته الثلاث في آن واحد: « لأن النساء - فيما يقول - ان اجتمعن على زوج سوياً يزهقن روحه بأحاديثهن الفارغة وعراكهن وخصامهن بسبب أتفه الأشياء » . ثم قال بأسى إنـــه قبل زواجه من هاته النسوة كان مرتاح البال يهجع الى فراشه كل ليلة مبكراً وينام نوماً تتخلله الأحلام الجميلة !

غادرنا (بو رتيمة) يوم ١٤ مارس عند الساعة الثالثة والنصف صباحاً، وجاء قبيل رحيلنا اثنان من الشرطة اللذين قدما من (سرت) لمصاحبتنا اليها . وكان أحدهما يدعى (مفتاح) والآخر (الغنّاي) . وكان هذا الأخير شديد التدين والورع ، اذ أنه ما لبث أن صلى صلاة الفجر حاضراً ، ثم جلس منفرداً بنفسه وأخذ يتلو « سورة الطور » .

أما الشرطي الآخر (مفتاح) ، فقد كان على العكس من زميله يتعاطى الخمرة ويدخن السجائر .

وكان لقافلتنا مرشد يدعى (دَبَشْ) ، ومن عادة هذا الرجل أنـــه كلما توقفنا للراحة قرب شاطىء البحر فإنه يتجه بشبكته ويغطس بها في البحر ، ثم يعود الينا بما اصطاده من السمك فنعد منه عشاءنا . ولقد أحببت هـــذا الرجل كثيراً لأنه طيب ويعشق البحر والصحراء ، كثير التفكّه والتّندر في حديثه .

وكنا نتوقف عن الترحال كلما أصبحت حرارة الشمس لا تطاق ، وكان الشرطيان المصاحبان لنا همـا أول من يقفز من صهوة جواده ، حيث ينبطحان

أرضاً في ظل أحد الكثبان الرملية ، جـاعلين فرسيهما بينهما وبين الشمس كي تصدّا عنهما حرارتها المتسلطة ، وقد أمسكوا باللجام في يديهما . ثم نواصل سفرنا بعد التنعم بغفوة قصيرة . ومن حين لآخر كنت أركض بحصاني في اتجاه البحر حتى تغسل مياهه أقدام حصاني . ثم توقفنا من جديد حيث استحممت في مياه البحر ، وبعد ذلك واصلنا سفرنا طيلة فترة المساء . وأخبرني الشرطي (فتاح) أنـــه سيتوقف بنا وسط بستان أخضر لقضاء الليل فيه . ثم وصلنا الى بستانــه الموعود[1] عند هبوط الليل ، فاكتشفت أن ما اسماه بستانا لم يكن ليزيـد عن بضع شجيرات هزيلة لا تزيد عن الأربع ، وبئر مـاء ملح ، ودغل من النباتات الصحراوية تقطن عندها أسرة طرابلسية هاجرت من مدينة طرابلس هرباً من انتقام الايطاليين . وكانت تلك الأسرة تمتلك جحشاً صغيراً وبضع دجاجات ابتعتُ اثنتين من بيضاتها .

وعندما جلسنا للسمر سأل الشرطيان رفاقي عن هويتي قائلين :

— « من هو هذا « الرومي » الفرنساوي الذي تصحبونه ، وماذا جـــاء يفعل هنا ؟ » .

---

(١) يشير المؤلف فيما أعتقد إلى (بئر الهايشة) الذي ذكره (أبو سالم العياشي) في الرحلة العياشية ، حيث قال عنه في الصفحة رقم ١٠٢ ما يلي .

« وماء الهايشة ملح أُجاج لايكاد يساغ حتى يضرب به المثل في القبح وليس في مياه برقة أقبح منه إلا مواضع قليلة لا يعتمرها الحاج مع أن هذا أيضاً لا يستقي منه إلا من اضطره العطش أو كانت أيام الحر . وهو ماء راكد في مواضع كثيرة يحيط به القصف ، وبعضه أشد قبحاً من بعض . وبآخر الهايشة واد من الملح يجري فيه الماء على أرض من الملح فلا الماء يجمد ملحاً ولا الملح يذوب ماء وأظن ذلك لقوة ملوحة الماء ونداوة المحل . » .

انظر : « الرحلة العياشية أو ماء الموائد » طبعة فاس ١٣١٦هـ .

والجدير بالذكر أن (محمـــد بن عثمان الحشائشي) في رحلته المسماة (جلاء الكرب عن طرابلس الغرب) قد نقل عن العياشي هذا الوصف حرفيـــاً في رحلته التي حققها الأستاذ علي مصطفى المصراتي . أنظر (رحلة الحشائشي) صفحة ١٩٥ . المترجم

فردّ عليه أحد رفاقي ، حيث أخذ يهول من أمري ويكبر من شأني بأسلوب مازح قائلاً :

– « انه باشا .. انه بك كبير! وهو يدعي أنه صحفي ويكتب في الجرائد، لكن الحقيقة غير هذا ، ونحن نعرف سبب مجيئه الحقيقي الى هنا . أتلحظون تلك الصناديق الحديدية المطلية بالطلاء الأحمر ، والتي يشحنها فوق ابله ؟ .. انها مليئة بالخراطيش والعتاد « وبودرة » البارود التي تصنع منها القنابل :

ثم أردف آخر :

– « هذا رجل عظيم ! » .

فتساءل الشرطي الليبي المـــدعو (الغناي) ، وهو رجل له أفكار فلسفية عجيبة ، قائلاً :

– « أيش يعني راجل عظيم ؟ .. الناس كلها زي بعضهم .. الخ » .

وهكذا أخذنا نتحدث ونتسامر على ذلك المنوال .

وكان من بين رجالي أحد الجزائريين ، يدعى (علي) ، حدث أن وقع من قبل أسيراً في أيدي الايطاليين في طبرق [!!] حيث نقلوه إلى إيطاليا وسجنوه في سجن « تارينتي » ثم في سجن « بوتيينزا » ، ثم في (نابولي) ، وبعد ذلك أطلقوا سراحه باعتباره رعية فرنسية ، فسافر من ثم إلى مدينة (مرسيليا) ، ومنهـا جاء الى طرابلس حيث التقيت به فقرر أن ينخرط في خدمتي على أمل أن أصحبه معي الى مصر .

وأخذ هذا الجزائري يروي لنا الحكاية التالية ، قائلاً :

« حدث أن حللت مرة بإحـــدى المدن التركية ، وكان بحوزتي شيء من المال – خمسة دنانير – فقصدت حيّ البغاء ، فقادني أحدهم الى بيت جميل حيث

استقبلتني فتاة جميلة قامت بخلع ثيابي وغسل بدني ، ثم دهنت جـلدي بنوع من المرهم المعطـّر ، ولفـّتني بلحاف نظيف أبيض وطلبت مني أن أنام . فنمت نومة عميقة لم أحظ بمثلها في حيـاتي من قبل أبداً ، ضحوت على إثرها نشطاً جذلان . لكنني لم ألبث أن تذكرت أنني لا أملك نقوداً كثيرة ، وخشيت أن يكلفني ذلك الحمّام التركي مبلغاً باهظاً . وسألت السيدة العجوز التي تـدير ذلك البيت عن الثمن ؛ فقالت لي إنه قطعة « ابو تسعين » ، أي تسعون « بارة» من العملة التركية !

فأدهشني أن يكون الثمن زهيداً الى ذلك الحد ، ومـا كان مني إلا أن مددت إلى الفتاة ثلاث قطع « ابو تسعين » بدل واحدة . غير أنهـا ردت إلي القطعتين الإضافيتين بإصرار .

وهكذا .. عقدت العزم على البقاء مع تلك الفتاة ثلاثة أشهر كاملة ، حيث ظلت تدلك جسمي بذلك المرهم المعطر كل ليلة » .

ثم أردف قائلاً وقد اقترب من كل واحد منا :

« إن لم تصدقوني فشموا رائحته التي مـا تزال عالقة بأرداني حتى هذه الساعة !! » .

ولقيتْ قصته استحساناً وتصديقاً من طرف معظم الحاضرين ، فأمّنوا على ادعاءاته متمتمين في صوت واحد :

— « ما شاء الله .. ما شاء الله ! » .

وفي يوم الخامس عشر من مارس وصلنا الى منطقة (ثمد حسّان)(١) التي كان

---

(١) (ثمد حسان) هو الماجل الذي مر به العياشي في رحلته حيث قال : « ثم نزلنا دور حسان ومررنا الغد بحسّان وهو ماجل منقور في حجر يجتمع فيه المطر ، فإذا أفرغ المجتمع بقي محله يرشح بماء قليل يجتم في قعره يبل به الظمآن فمه ، وبإزاء هذا الماجل قرى خالية لم يبق إلا رسومها كانت تسمى فيما مضى قصور حسان إضافة الى بانيها وكان عاملاً لبني أمية لما نقض أهل إفريقية العهد في آخر خلافة بني مروان ، بنى هناك قصوراً وأقام فيها نحواً من ثلاث سنين حتى افتتحها بعد ذلك ، حسبما ذكر من أرّخ فتوح إفريقية وسمى المكان باسمه الى الآن » . أنظر الرحلة العياشية .

يوجد بهـــا خيمة ومركز تلغرافي وضريح مرابط يدعى (سيدي بونويل) . واكتستها خضرة عشب نما حول بئر ماء عذب ، وحولها كثبان رمـــال وشاطىء داخلي مغطى بأملاح لامعة كالماس ، كما تلمح من ورائها أمواج البحر من آن لآخر .

ثم التقينا في الطريق بساعي بريد أسود البشرة كان يحمل على ظهره جراب بريده وقربة مـــاء . وهو يخترق الصحراء بين (مصراته) و (سرت) جيئة وذهاباً ، حاملاً بريده ، وليس معه زاد سوى تلك القربة .

وعند الساعة الثالثة ، لمحنا عن يميننا بركة من المياه الراكدة ، وهي ما يطلق عليه اسم (وادي بيْ) [1] ، وهي مياه تنتشر عبر الرمال وسرعان مـا يمتصها البحر . وفجأة أخذ مرافقي يصوّبون فوهات بنادقهم وطبنجاتهم نحو كوم من الأحجار علتها قطعتان من الخشب ؛ وأخذوا يطلقون عليها النار قائلين إن هذا القبر هو قبر « الملعونة » . وهي فيما يُروى فتاة زنت فقتلها والدها محواً لعاره . ولذا فإن كل شخص يمر بقبرها يرميه بحجر أو يطلق عليه طلقة نار .

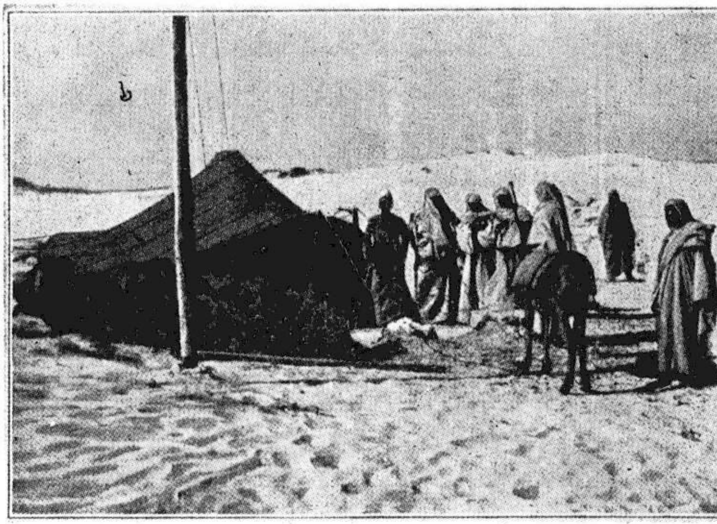
وكان الشرطي الليبي المتدين المسمى (الغنّاي) يؤدي فروض الصـلاة في أوقاتها ، حيث ينزل من فوق جواده ، ويبادر فيتيمم بالرمال ثم يأخذ في الصلاة موجهاً وجهه شطر القبلة .

بالأمس ، السادس عشر من مارس ، قررنا تجاوز قافلة جمالنا لبطئهـــا في السير لكي نصل الى (سرت) بأسرع وقت . وقد بقي أحد الشرطة في صحبتها .

وقد ارتفعت الشمس فوق الصحراء ، فبدت بيضاء هائلة . ثم مـــا لبثت رياح « القبْلي » أن أخذت في الهبوب . وهي رياح تجفف كل رطِبٍ وتثير في

---

(١) (وادي بَي) « هو واد من أودية طرابلس المشهورة ، يأتي من الجنوب الغربي من الحمادة ، ويصب في تاورغة . ويقال إن بعض روافده يأتي من جبال الهروج وهو من أكبر الوديان في طرابلس » . أنظر (معجم البلدان الليبية) ص ٣٤٠ . المترجم



نقطة تلغرافية في صحراء سرت



ناقل البريد يعبر صحراء سرت

الجو أعمدة من الرمال . ومضينا وسط زوبعتها كالبهاليل ، وقد حرقت الشمس وجوهنا وامتلأت عيوننا ، أنصاف المغلقة ، بالرمال الناعمة الساخنة . وظللنا نتقدم على ذلك النحو مدة تسع ساعات دون توقف . وكانت تبدو لي من وراء كثبان الرمال بضعة من بساتين النخيل التي كانت الرمـال تنهمر عليها كالمياه . ومن فوق تل هب عليه الإعصار ، شاهدت أمامي الشرطي المرافق وهو يشير بإصبعه الى بلدة (سرت) التي لمحها عن بعد ، ولكنني حدقت في الاتجاه الذي أشار إليه فلم أر سوى جوّ أربد كانت تحوم فيه سحب صفراء متضاربة .

وقطعنا آخر كيلومتر ركضاً بخيولنا الى أن وقفنا فجأة أمام البيت الذي خصصه قائم مقام (سرت) لنا ، وقد ولجناه وفي صحبتنا زوبعة من الرمال .

ولم يمض على إنشاء بلدة (سرت) الجديدة سوى أربعة أعوام ، إذ أن قصرها هو وحده الذي مضى على بنـــائه أكثر من ثمانية عشر عاماً . أما البلدة القديمة فقد توارت تحت الرمال تماماً ، بل إن البلدة الجديدة قد غاصت فيها حتى منتصف جدران مبانيها .

سرت في ١٨ مارس ١٩١٢

صعدت فوق كثيب رمل ، وأخذت أستعرض تلك الصحراء الموحشة ؛ وفجأة لمحت حوالي خمسين فارساً يتقدمون نحو البلدة ، وقد بدا لونهم عن بعد من لون الصحراء نفسها .

كانوا متشبثين بخيولهم التي بدت تنـــاضل ضد الرياح العاتية التي نفخت برانسهم . ووقف حولي أهالي (سرت) ممسكين بنادقهم في أيديهم ، يحدقون باهتمام الى الفرسان القادمين ، وكان من بين المنتظرين حولي بعض المشايخ وعدد

من أفراد الشرطة. وبدت منازل البلدة خلفنا وقد ردمتها الرمال حتى منتصفها، واكتنفتها بضع نخلات باسقات، ولا شيء غير ذلك سوى صحراء مترامية الأطراف تعلوها قبة السماء الزرقاء. ولم ألمح في الجو ولو مزنة واحدة؛ فإن رياح «القبلي» التي كانت تعصف بنا بالأمس محولة قبة السماء الى مرجل فائر مليء بالزوابع، قد هدأت اليوم وأخلت الجو لرياح بحرية.

انه ليوم مشهود هذا اليوم !.. فالقادمون هم رهط من الفرسان البدو على رأسهم (الأمير علي)[1] – ابن الأمير عبد القادر الجزائري الشهير – الذي حضر من (دمشق) الى (برقة) ليثير قبائل البادية ضد الطليان، ولكي يدعمهم بحضوره ويرفع معنوياتهم بشجاعته وبسالته وبالمكانة العالية التي يحتلها اسم عائلته المشهورة بالجهاد في العالم العربي كله. وهو قادم على رأس اولئك الفرسان من (بنغازي) ومتوجه الى (طرابلس) يصحبه ابنه (عبد القادر) – الذي يحمل اسم جده العظيم – وكبار مشايخ الصحراء.

واقتربت كوكبة أولئك الفرسان حتى توقفت أمام الربوة التي كنا نقف فوقها مخترقة الدرب الموصل إلينا بين الرمال. ونفد صبر الجياد فأخذت ترقص وتحوقل. ثم انفصل عن الكوكبة فارسان من فرسانها واتجها نحونا وقد ألقيا

---

(١) الأمير (علي باشا الجزائري) هو الابن السابع من الاولاد الثمانية الذين رُزق بهم الأمير عبد القادر الجزائري. ويحمل الأمير علي باشا الجنسية التركية وكان يقطن دمشق، وقد تزوج شقيقة (عراب عزّت باشا) صديق السلطان عبد الحميد. ومع ذلك فإن الامير علي باشا الجزائري قد انضم إلى جماعة تركيا الفتاة وصار رئيساً لفرع «جمعية الإتحاد والترقّي» في دمشق. وكان عند قدومه للجهاد في ليبيا يبلغ من العمر ٤٨ عاماً. وله عباة شهيرة نطق بها وهو يتهيأ للسفر من دمشق إلى ليبيا للجهاد ضد الايطاليين؛ نصها كما يلي: «لقد قاوم والدي الفرنسيين مدة ربع قرن؛ أما أنا فإنني مستعد لمقاومة الإيطاليين في ليبيا طيلة حياتي».

انظر: انظر مجلة الـ «اللوستراسيون» – العدد رقم ٣٦١٢، صفحة ٤٣٧، في مجموعة المجلة المحفوظة ـ بالمكتبة الوطنية بباريس ـ قسم الدوريات ـ تحت إشارة برقم: (Lc 2 1549).

المترجم

أجمة جواديهما. وما أن صارا على بعد عشرة أمتار منا حتى أطلقـــا من بندقيتيهما بضع طلقات في الهواء. وبعد ذلك أحاط بهما المنتظرون وعلا التصفيق. ولكن سرعان ما عاد الناس فـاصطفـّوا موجهين أنظارهم تجاه السهل انتظاراً لإطلالة الأمير نفسه. ثم انطلق نحونا فارسان آخران وأخذا يطلقان النـــار في الهواء بدورهما.

فجأة أهلّ الأمير الجزائري على صهوة جواده الذي كان أسرع وأعنف من جميع الجياد الأخرى التي ركبها صحبه. وكان الأمير يضع فوق رأسه «عقالا» – [حوقل] – على طريقـــة عرب سوريا، ويلبس برنساً كانت الريح تعبث بأطرافه، ويمسك ببندقيته التي سددت فوهتها نحونا، ثم ما لبث أن رفعها إلى أعلى وضغط زنادها فدوت الطلقة منها.

وأحاط به الليبيون والأتراك، وأخذوا يطلقون النار ترحيباً بقدمـــه، ثم هرعوا نحوه كل يريد ان يلثم يده. ثم انسحب من بينهم وعاد فانضم الى بقيـة الفرسان القادمين معه حيث وقفوا عند التل. ثم تقدم منا ثانية والى جانبه ابنه عبد القادر. ثم رجعا ثانية الى موقفهما السابق وقد رجع معه في هـــذه المرة مشايخ (سرت)، وقد مشى على جانبه الأيسر ابنه، ومشى على جانبه الأيمن حاكم سرت السيد (محمد باش آغا)، وكانوا جميعاً يركضون فوق جيـــادهم ركضاً. وانطلق البارود من جديد، وألقت الجياد بنفسها هــــائجة مذعورة وسط الجمهرة التي استمرت في تلك الأثناء في اطلاق العيارات النارية صائحة في فرحة غامرة.

وساعدني رجـــالي في إفساح ممر لي بين الجمع ووجهني الأمير حيث تمكنت في النهاية من الوصول اليه، فابتسم وصافحني: انه رجل في عنفوان نضجه، ذو لحية كثّة تخللها الشيب وله شاربان غزايرن، ووجه أسمر عريض الفكين، وعينان في منتهى الصفاء. ثم شددت على يد ابنه الأمير عبد القــادر فرد على تحيتي بلغة فرنسية.

وهنأتها بسلامة الوصول قائلاً :

– « يا لكم من فرسان ! .. ما أروع طلعتكم حين شاهدتكم تتقدمون نحونا فوق صهوات جيادكم ، ضاغطين على أزندة أسلحتكم التي كنتم تصوبونها في الهواء بكل هدوء كما لو كنتم جاثين بها على الأرض ، اذ لم تكن أذرعكم لترتعش رغم ركض الجياد » .

فعقّب الأمير على مجاملتي بتواضع ، راداً المجاملة بمثلها .

– « ان الغرب الأوربي لا يخلو من الرماة والهدّافين ، ولكن لدينا هنا فرساناً لا يقلّون عنهم مهارة » .

ثم اصطفّ المجاهدون حولهم استعداداً للاستعراض . واستلّ المشايخ سيوفهم من أغمدتها ، وقد علت تعابير الفرحة والإحساس بالعزة ملامح بعضهم ومضت نظراتهم؛ في حين ظل البعض الآخر، رغم الحماسة الطاغيه التي غمرت الموقف ، شاردي الأعين مكفهرّي الوجوه ، فبدت لي تقاسيمهم وراء ثنيات أرديتهم الصوفية مليئة بالازدراء وعدم المبالاة . وهو تعبير لم أره قط يرتسم سوى على وجوه هؤلاء البدو بحيث أسبغ عليها مسحة من النبل والأصالة والاستعلاء الغامض الذي ينمّ على انهم ينتمون الى جنس آخر غير جنسي ، فهم فرسان ارستقراطيو الملامح، بهم حياة متميزه عن حياتنا، وتدور في خواطرهم أفكار تختلف عن أفكارنا نحن الأوربيين ، ولا يستهويهم الهتاف والتصفيق .

ثم انطلق المشايخ يعبرون المدينة ومن ورائهم جمهرة الناس . وترّجل الأمير الجزائري وصحبه أمام المعسكر ، فالتف الجميع حوله . ونظرتُ جهة كثبان الرمال التي تنحدر جهة البحر. ثم عاد الأمير فانتصب على ركاب جواده وطفق يتحدث عن الحرب الدائرة بصوت قوي متفجر وبنبرات متّسقة تصحبها حركات واشارات وايماءات موزونة أخاذة . وكانت جمهرة الناس ترد على كل عبارة من عباراته بالتصفيق وبترديد كلمة : « آمين.. آمين ! » واعدة متوعدة، معبرة عن استعدادها لبذل الأرواح والدماء فداء للوطن .

ودعاني الأمير (علي) الى مائدته حيث جلسنا نتحدث طويلاً . وقـــد سألني قائلاً :

— « قل بربك ! هل يرد ذكري على ألسنـــة الناس في فرنسا ؟ هل لديهم فكرة عما أقوم به هنا ؟ وهل يدرون أن كل وجيه يمر بدمشق لا بد وان يأتي لزيارتي ؟

ثم طفقنا نتذاكر سيرة والده الأمير عبد القـادر الجزائري ، فأطلعني على نسخة كتاب يحكي قصة ذلك الأمير العظيم والمعارك التي خاضها. وكان الكتاب يحتوي على صور تمثله وتمثل أهم الشخصيات الفرنسية التي اشتركت في احتلال الجزائر ، أو خاضت المعـارك ضده . فكان من بينها صور الدوق (دومال) و (بوجو) و (كلوزيل)[1] .. الخ . ثم عقب الأمير علي قائلاً :

— « آه ! .. لقد جاهد والدي رحمه الله ضد هؤلاء جميعاً دفاعاً عن وطنـه وذوداً عن شرفه » .

ثم جلست أتحدث مع الأمير عبد القادر ، الحفيد ، حيث أخذ يحدثني عن الدور الذي يلعبه والده الأمير (علي) في الحرب بين ليبيا وايطاليا . إذ ان

---

(١) أ — الدوق دومال : هو جنرال في الجيش الاستعماري الفرنسي ، ومؤرخ ، ولد في باريس سنة ١٨٢٢ ومات سنة ١٨٩٧ . وهو الابن الرابع الملك فرنسا (لويس فيليب) . وقد التحم معه الأمير عبد القادر الجزائري في عدة معارك سنة ١٨٤٣ في الجزائر .

ب — الدوق توماس بوجو : هو مارشال فرنسي ولد سنة ١٧٨٤ ومات سنة ١٨٤٩ . قاد الحملات الفرنسية في الجزائر في الفترة ما بين ١٨٤٠ — ١٨٤٧ . كما حارب المراكشيين سنـــة ١٨٤٩ .

حـ — الكونت برتراند كلوزيل : مارشال فرنسي . ولد سنة ١٧٧٢ ومات سنة ١٨٤٢ . عُين حاكماً للجزائر سنة ١٨٣٠ ، ثم قائداً عاماً للجيوش الفرنسية في أفريقيا سنة ١٨٣٥ .

وقد جاهد الامير عبد القادر الجزائري — كما هو معروف — ضـد هؤلاء المستعمرين وأقلق مضاجع فرنسا حتى سنة ١٨٤٧ . ولد — رحمه الله سنة ١٨٠٨ وتوفي سنـــة ١٨٨٣ . ودفن بدمشق ، ولم ينقل رفاته إلى الجزائر إلا مؤخراً . المترجم

الأمير (علي) – تواضعاً منه – لم يقبل ان يحدثني عن دوره الشخصي فيها او عن الفرحة التي غمرت الليبيين عند قدومه الى بلادهم من دمشق ، وعما فعله منذ وصوله الى ليبيا منذ خمسة أشهر ، حيث مرّ بـ (طبرق) ثم (درنة) ثم (بنغازي) . فقال لي الأمير عبد القادر :

– « إن والدي لا يمل ولا يتعب ، فهو ذاهب الآن لخوض المعارك في مدينة طرابلس ضد الايطاليين،لأنه يأبى ان تتقاعس ذرّية الأمير عبد القادر الجزائري عن الدفاع عن أرض العروبة والإسلام » .

١٩ مارس ١٩١٢

سأرحل غداً في صحبة أولئك الفرسان البدو الذين واكبوا الأمير (علي) من بنغازي . ولم يكن من السهل عليّ إقناعهم بذلك . وقد أكّد لي شيخ قصير القامة يدعى (الشيخ المهدي) ، في البداية ، ان أحداً منهم لن يرضى ان يشحن أمتعتي على ظهر جمله ، لأنني لست مسلماً .

وبعد لأي قَبِل هؤلاء القوم ان أصحبهم ، ولكن أصحاب الجمال أنفسهم كانت لهم شروط ومطالب لا يصدقها العقل . فقد أنذروني بأنهم سيمضون بالقافلة في خط السير الذي يحلو لهم كما أنهم سيتوقفون للراحة متى عنّ لهم . فاحتججت قائلاً إنني لن أقبل مثل تلك الشروط ، كما أنني لا أرتضي ان يرتاب أحد في أمري ولن أغض الطرف عن أي معاملة سيئة قد أتعرض لها أثناء الرحلة .

وقد دافع عني الأمير (علي) وابنه الأمير (عبد القادر) وقائممقام (سرت) السيد (محمد باش آغا) ، دفاعاً قوياً ووقفوا في صفّي ; وقد استمر نقاشنا طويلاً بينما كنا جلوساً على أريكة مستطيلة ، في حين ان أولئك البدو كانوا

يجلسون القرفصاء في مواجهتنا ، متلثمين ببرانسهم وأرديتهم الصوفية . وكانت عيونهم متوقدة وعضلات وجوههم تتشنج تارة وتنبسط تارة أخرى ، تبعاً للهجة النقاش وبحسب الملامح الخاصة للمتحدث . إذ منهم من تغلبت عليه الملامح الزنجية ، ومنهم من كانت ملامحه عربية أصيلة ، له أنف أشم ، وعيون مستطيلة كاللوزتين ، وفك بارز .

وكانت ملامح مرافقيّ من التونسيين تبدو لي الى جانب ملامح هؤلاء البرقاويين ، حليمة ومستسلمة كملامح القديسين . فقلت في نفسي : تُرى هل ملامح كل أهل برقة مثل ملامح هؤلاء البدو ، أم ان هؤلاء مجرد نماذج خاصة لا يصح تعميمها ؟ لقد ذكرتني وجوههم بوجوه مماثلة كان قد سبق لي ان رأيتها في صورة فوتوغرافية التقطت في أحد أسواق بنغازي .

وخيل إليّ ان وجود الأميرين الجزائريين ووجود قائممقام (سرت) لم يكن قد ولـّد في نفوس هؤلاء البدو أي شعور بالرهبة . ثم وقع مشهد عجيب عندما كان الأمير (علي) بصدد دفع أجرة كراء الإبل التي نقلت متاعه الى (سرت) . فقد كانت النقود التي بحوزته مصكوكة في سوريا ، ولذا فإن أصحاب الجمال يجهلون قيمتها ، فكانوا يضعون القطع النقدية الذهبية في أكفهم ويحدقون فيها بإمعان حتى تكاد تمس أنوفهم ، ثم أخذوا يحصونها وسط تساؤلاتهم الحذرة .

واستقر الأمر على ان نرحل غداً بعد الظهر ، حيث سيتواصل سفرنا بقية النهار وطرفاً من الليل . وعلى أية حال فإنني ، رغم جميع البوادر غير المشجعة ، قد قررت ان أسافر في صحبة هؤلاء البدو الجواسر ، وليكن ما يكون .

وجلست الى الأمير عبد القادر الجزائري ، الحفيد ، حيث أخذ يطلعني على تذكاراته الحربية في ليبيا. وكان من بينها أسلحة سلبت من الايطاليين ، ورسائل وصور تذكارية . . الخ . واستلفتت نظري من بينها رسالة باللغة الايطالية طويت على صورة للسيدة مريم العذراء وهي تحتضن المسيح طفلاً . وأُخبرت ان جندياً ايطالياً من صقلية كان يحمل الرسالة والصورة فوق قلبه عندما تلقى إحدى

رصاصـــات المجاهدين الليبيين في صدره ، فكانت الصورة والأوراق مضرجة بدمائه . وبادرني البدو قائلين وأنا أنظر اليها :

— « ألا ترى !.. إن ديننا أقوى من دين ذلك الصقلي ؛ إذ لم تجده تلــك الأحجبة والتمائم التي حملها فوق صدره شيئاً » .

واطلعت على طائفة أخرى من الرسائل التي لقيها المجاهدون مع جثث القتلى الايطاليين . وهي موجهة اليهم من آبائهم او أمهاتهم القلقين عليهم ، الداعين لهم بالنصر على الليبيين ، غير أنها لم تجد امام رصاص هؤلاء فتيلا . فكما قـــال لي (نوري بي) — الضابط التركي الذي تجول معي في آثار (لبدة) : « إن الحياة هنا بخسة الثمن » . وفعلا فإنها تغدو في الحروب رخيصة لا قيمة لها !

٢٠ مارس ١٩١٢

حضرت اليوم ، قبل ان أغادر (سرت) ، حفـل توديع الأمير علي باشا الجزائري وابنه عبد القادر ، قبل توجههم الى (مصراته) . وقد خرجت مع مودعيهم من أعيان البلدة ومشايخ القبائل الى ان وصلنا الى ضريح المرابط (سيدي عبد الهادي) الذي يبعد عن (سرت) حوالى أربعـة كيلومترات . وقد خرجت لتوديعهم جميع الزوايا والطرق الصوفية التي كانت تحدث ضجة وجلبة لا مثيل لها ؛ وعلى الخصوص طائفة الطريقة « القادرية » التي كان الأمير عبد القادر الجزائري أحد أئمتها او « مقدميها » . فقد سار موكب تلك الزاوية ببنادیره وطبوله وسناجقه . والسناجق هي عبـــارة عن ألوية ورايات كبيرة مصنوعة من نسيج الجوخ الأحمر كانت شقائقها ملتفة الواحدة فوق الأخرى . وكان مريدو الطريقة القادرية وتُبّاعها يسيرون راقصين ، طاوين أقدامهم ، هازين أعطافهم ورؤوسهم الى الأمام وإلى الخلف ، ضاربين طبولهم . وكان « مقدّم » الطريقة يتوسط الموكب وعن يمينه « شاوش » وعن يساره «شاوش»

آخر ، ويجانبهم « النقباء » . وكانوا ينشدون أُمدوحة مرنّمة منغمة ، تقول ما ترجمته :

— « أنا فرح جذلان ،
لأن مولاي قد جاء لرؤيتي .
وكنتُ كنخلة حاقت بها السيول ،
ولكنني وقد تلقيت عونه ،
فلن تقدر المياه على اجتثاثي » .

وانضمّ الى الموكب يهود (سرت) أيضاً ، وأخذوا يدلقون مـــاء الورد علينا . ولشدة الجلبة والضجّة ، فقد جفلت خيولنا فجأة ومسّ جواد ترجماني الجزائري حاخامَ اليهود بصدره فألقاه أرضاً .

وبينما كان الموكب يواصل تقدمه ، ظل الناس يتزاحمون حول الأمير بالمناكب ويهرعون نحوه لتقبيل يديه بل وحتى أذيال برنسه . ثم عبرنا كثبان الرمـــال ، حيث توقف المودعون فوقها يلوحون له بالرايات والسناجق مرددين :

— « إن شاء الله زينه .. إن شاء الله زينه !.. الله ينصركم ! »[1] .

وعندما وصلنا الى ضريح (سيدي عبد الهادي) ترجّلنا من على جيـــادنا ، وولج الأمير (علي باشا الجزائري) الى داخل قبة ذلك المرابط لأداء صــــلاة العصر ، وعندما فرغ منها ، خرج الى أهـــالي (سرت) وخطب فيهم موصياً إياهم بي خيراً ، حيث قال :

— « احتفوا به أكثر مما احتفيتم بي أنا نفسي ! » .

فطمأنوه بأصواتهم وإيماءاتهم . ثم تقدم مني الأمير مودعـــاً حيث قبّلني في وجنتيّ ثم تقدم من الباقين فودعهم . وتلاه ابنه عبد القادر فقبّلني بدوره أربع

---

(١) وردت بالعربية في النص الفرنسي . المترجم

مرات . ثم عانقوا ترجماني الذي يعرفون أسرته الجزائرية حق المعرفـــة ، ثم أهدوه عقالاً (وهو حبل من الحرير المفتول يضعه المشايخ السوريون حول رؤوسهم) .

وعندما ابتعد عنا الأمير علي باشا الجزائري بجواده متجهاً الى (مصراته) ، توقف ابنه الأمير برهة حيث توجه بالحديث الى مودعيه من فرسان البـــادية ، خصوصاً شيخ « الحسون » ، قائلاً :

– « بلـّغ قبيلتك انه ما دام الكفـّار قد جاءوا لتدنيس مساجدنا وأضرحة آبائنا وأجدادنا ، فإنه لا يكفي المسلمين ان يطردوهم فحسب ، بل لا بد لهم ان يثأروا لتحديهم هذا ، فيذهبوا يوماً لغزو بلادهم كما غزوا بلادنا . والسلام عليكم ورحمة الله » .

ثم أطلق العنان لجواده لاحقاً بأبيه .

السيد (محمد باش آغا) ، قائممقام (سرت) رجل مضياف وصاحب كرم ويتمتع بشهامـة نادرة . وأسرته من أشهر العائلات الطرابلسية ، إذ اشتهر عن جدّه وأخواله ، وهم من مشايخ (مصراته) ، انهم ناضلوا في الماضي نضـالاً باسلاً وقاوموا الاحتلال العثماني مقاومة عنيفة ، بل إنهم كانوا قد نجحوا لبعض الوقت في إنشاء دولة مستقلة تمتد ما بين (تاجوراء) و (بنغازي) . ولكنهم هُزموا في منطقة (قصر حمد) ، وهو ميناء مصراته ، فاضطروا الى الهجرة عن ديارهم حيث استلاذوا بقبائل (ورفلـّة) و (ترهونة) . وقد شُنق أحـــد أخوال (محمد باش آغا) هؤلاء في مدينة طرابلس على أيدي الأتراك .

ثم مضت الأيام وعادت عائلة باش آغا فانضوت تحت لواء الحكومة التركية وانخرطت في خدمتها . واستوضحتُ قائممقام (سرت) عن تفاصيل ما رواه لي عن تاريخ أسرته ، ولكنه أجابني قائلاً :

– « سأرويها لك بعد نهاية هذه الحرب إن التقينا من جديد ، أما اليوم فإنه

لا داعي لبعث ذكريات الخصومات القديمة ونكث جراحها حتى وإن عفى عليها الدهر ، ولم تعد تخلـّف وراءها في النفوس طعم المرارة » .

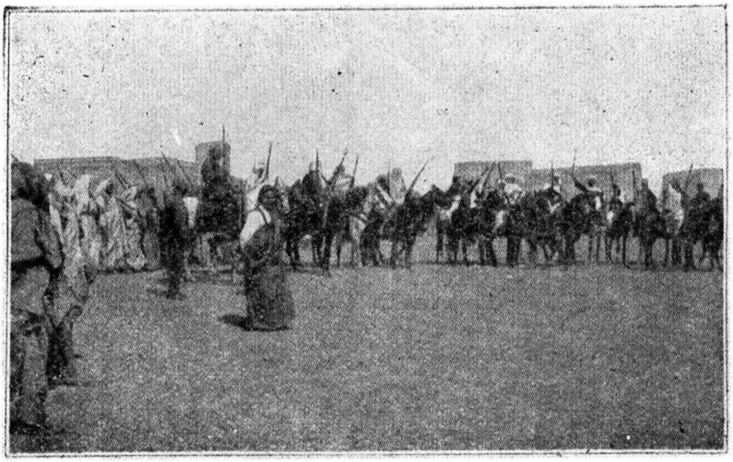
وطفقنا نتحدث في أمور شتـّى ، غير ان حديثنا ما لبث ان تركز حول المعجزات الخارقة والأحلام التي تتنبأ أحياناً بما سيقع . وقد لاحظت ان الناس هنا يخوضون في مثل هذه الأمور بشكل طبيعي كأنها وقائع عادية ، فهم يعتبرون الحياة نفسها معجزة سرمدية . وكلما روى لهم المرء معجزة لا تصدّق فإن كل ما يردّون عليه به هي عبارة : « ما شاء الله ! » .

وعلى أية حال ، أفليست هذه الحرب نفسها معجزة ؟ إذ استطاع فيها مجاهدون، غير منظمين التنظيم الكافي وليس بأيديهم او في حوزتهم سوى القليل من الأسلحة ، إيقاف تقدّم جيش مدجج بأحدث الأسلحة ومدرب أفضل التدريب !! فرصاص الايطاليين قد يصيب أحياناً أجسام الليبيين ولكنه نادراً ما يقتلهم ، ودوي مدافعهم لا يخيفهم .. أليست هذه معجزة من المعجزات ، او حلماً من الأحلام الغريبة التي تقع أحداثها أمام أعين هؤلاء القوم فلا ترتعش لها فرائصهم ؟

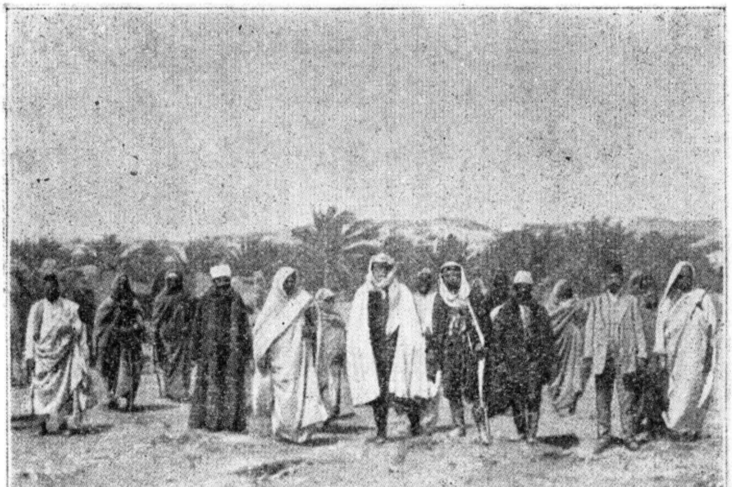
ولعله ينطبق عليهم قول القديس (بولس) :

« إنهم يرون الأشياء وقد اكتنفتها الأسرار الغامضة .. انهم لا يشهدونها مباشرة ، بل وكأنها أطياف منعكسة على أديم مرآة » .

وسألني أحد السذّج ممن كانوا يجلسون معنا عما اذا كنت قد سمعت بمحاولة بعض الانجليز سرقة قبر النبي محمد [ﷺ] بالمدينة المنوّرة ؟ ثم أردف قائلاً انهم قد بعثوا بإثنين من عملائهم الذين استأجروا لهم مسكناً قرب الحرم النبوي الشريف . وانهم قد حفروا من أرضيته دهليزاً سريّاً تحت باطن الأرض يوصل الى قبر الوسول . وعندما لم يعد يفصل بينهم وبين القبر سوى ذراع واحد ، شاهد « الآغا » ، أي خادم الحرم ، في المنام الرسول بنفسه ، حيث أخبره بأنه



فرسان البادية المرافقون للأمير علي باشا الجزائري
عند وصولهم إلى بلدة سرت



سرت : الامير علي باشا ، ابن الامير عبد القادر الجزائري
وعلى يساره ابنه الامير عبدالقادر وعلى يمينه قائم مقام سرت

يوجد بالبقعة الفلانية في تلك اللحظة رجال يحفرون دهليزاً لسرقة رفـــاته . وصحى الخادم من نومه فتذكر حلمه الغريب ولكنه خلص الى الاعتقاد بأنه لا بد وان يكون من هواجس إبليس الماكرة ، فعاد واستمر في نومه . وفي صباح اليوم التالي أخذ يتفكر في تلك الرؤيا من جديد، وقال في نفسه انه من المستحيل على الشيطان الرجيم ان يزورني في منامي وأنا نائم داخل الحرم النبوي نفسه . وهرع في التوّ الى المكان الذي وصفه له النبي في الحلم ، فدهش إذ وجـــد به بالفعل رجالاً يحفرون الدهليز . ومنذ ذلك اليوم تقرر ان تقـــام حول القبر قاعدة أرضية يستحيل معها النفاذ الى أرضية الحرم النبوي من خـلال دهليز باطني .

وقد استمعت الى تفاصيل تلك القصة التي أشك في صحة كل كلمة واحدة من وقائعها .

وداعبني أحد مرافقي وهو زنجي أسود البشرة قائلاً :

– «إن بشرتي قد أصبحت الآن بيضاء بعد ان قضيت ثلاثة أيام بطولها تحت سقوف بيوت (سرت) ... والحقيقة ان بشرتي لم تكن في السابق سوداء تماماً إذ ان سوادها ناجم عن حرارة الشمس التي حرقتني وأنا أصحبك في رحلتك!» .

وكان الفقر والعوز يضربان أطنابهما في هذه المنطقة؛ فمنذ الصباح الى حلول المساء كان الشحاذون والمتسولون يأتون أمام الدار التي أنزل بها، باسطين أكفهم وهم يرددون : « لله !.. لله ! في سبيل الله ! »[1]. ولم تطاوعني النفس لنهر أي منهم فإن حالتهم كانت تبعث على الأسى . وكنت كلما مددت يدي الى أحدهم ببضعة « بارات »[2] هرع خلفه نحوي خمسون آخرون . وكان بعضهم في حالة يرثى لها حقاً ، إذ من بينهم من فقد نعمة البصر ، بل إنه غالباً ما كانت عيون

---

(١) وردت بالعربية في النص الفرنسي .

(٢) البارة (جمعها بارات) هي جزء من اربعين من القرش التركي في ذلك الوقت . المترجم

بعضهم قد اقتلعت من محاجرها تاركة مكانها حفراً كان يعبث بهـا الذباب . وشاهدت من بينهم من كانوا يلبسون أسمالاً متهرئة ويرقصون ضاربين بأكفهم « بنادير » صغيرة . وقد لاحقني مرة متسوّل هرم ودخـل الى حجرتي وأنا استمتع بغفوة نوم بعد الظهيرة ، حيث أخذ يجذبني من سترتي لإيقاظي الى ان صحوت فدهشت إذ وجدته جاثياً الى جانبي وهو يستجديني مـــا يقتات به متوسلاً بصوت واهن من شدة الجوع .

٢١ مارس ١٩١٢

هبّت علينا صباح اليوم من جديد رياح « القبلي » الشديدة التي سبق وان وصفتها لكم يوم هبوبها علينا عندما وصلنـا إلى (سرت) ؛ وأخذت أعمــــدة الرمال تتصاعد في سماء البلدة .

ومزيداً في حرص المسئولين هنا على توفير الأمن لنا ، فقد تقرر أن نسافر في صحبة قافلة كبيرة قوامها حوالى أربعين بعيراً ويحرسها ثلاثون رجلا . وقــــد ارتحلت تلك القافلة قبل تحركنا نحن بجيادنا للحاق بها عند توقفها في المساء عند المحطة المقبلة المتفق عليها .

وبدأنا سفرنا قبيل حلول المساء ، ولم تلبث المراعي أن أخـذت تحل شيئاً فشيئاً محل الرمال الجرداء . وأخذنا نتنقل بين أنجع البادية التي كنا نسترشد من بعيد على مواقعها بمرأى نيرانها . وكنا كلما اقتربنا من احد تلـك الانجع نحرص على التوقف دونها بمسافة لا تقل عن مائة متر ونادي رجالها عن بعد ، حتى لا يرتابوا في أمرنا ، إذ قد يظنوننا من قطـّاع الطرق فيطلقون النار علينا . وكنا نتوقف بتلك الأنجع للسؤال عن القافلة التي تقدمتنا ونستفسر عما إذا كانت قد مرت من هناك. فكان أحدهم يشير علينا بالتوجه يُمنةً ، والآخر بالتوجه يُسرةً

بدون جدوى ، وهكذا فقد ظللنا تائهين متذبذبين حتى حوالى الساعة الحادية عشرة ليلاً دون أن نعثر لها على أثر .

وأخيراً التقينا برجل في قرية (الرومية) فأكد لنا أنه قد شاهد القافلة معسكرة عند شاطىء البحر ، ثم تفضل فأرشدنا إلى مكانها بنفسه ، فكان محقاً. وأخبرنا أصحاب القافلة أنهم قد قرروا اتّباع اتجاه غير ذلك الذي اتفقنا معهم في (سرت) على المضي فيه . وقد غضبنا لذلك وقامت بيننا وبينهم مشادّة عنيفة . وفي صباح اليوم التالي نشب العراك بيننا وبينهم من جديد وكان سبب ذلك هو عدم اتفاقنا من جديد على خط سير واحد نسلكه .

٢٢ مارس ١٩١٢

انفصلنا عن القافلة ومضينا وفي رفقتنا ستة من فرسان عشيرة « الحسون »، حيث وصلنا عند الساعة العاشرة صباحاً إلى قرية (سيدي سويقة)[١] فدعانا بعض أهلها وقدموا لنا قصعتَي « بازين » ، جلسنا حولها وأكلنا بأصابعنا ما فيها من « عصيدة » صلدة محاطة بطبيخ تعلوه طبقة من زبد النياق . ثم ارتحلنا حيث كنا ما نزال نواصل سفرنا وسط تلال المراعي حتى الساعة السادسة مساء ، إلى أن وصلنا إلى مركز تلغراف بموضع يدعى (قصر المُديْنَة) ، فوجدنا به ماء حلواً وبضع نخلات وأشجار تين ، وحقول شعير ، وبيتاً مبنياً بالحجر يقطنه عامل التلغراف الذي دعانا للعشاء . ورغم أن مضيفنا كان رجلا

---

(١) هي (سويقة ابن مذكور) ، على الارجح ، وإن كان صاحب « معجم البلدان الليبية » يرى أنها تقع إلى الغرب من الموقع الذي يذكره المؤلف هنا، انظر صفحة ١٩٩ من المصدر المذكور.

المترجم

دمث الخلق ، إلا أنني مللت أسئلته التي لا تنتهي عن الحرب وشئون السياسة، وهي أسئلة كنت قـــد أجبت عليها المرة الألف ، فمللتها ورغبت في الانفراد بنفسي للراحة .

٢٣ مارس ١٩١٢

رحلت القافلة عند الساعة الثانية صباحاً ، ولحقنا بها عند الساعة الخامسة . وعند الظهر توقفنا في قرية (هنيوة) ، حيث دُعينا للغداء في إحـدى خيامها الكبيرة وجلسنا – ولنا مـــا بين الثلاثين والأربعين من الرجال المسلحين – مزدحمين . وأخذ الناس يسألوننا عن هوياتنا ودورنا في الحرب ووجهتنا .

وقدّمني مرافقيّ من الجزائريين والتونسيين إلى اولئك البـدو الليبيين ، مسبغين عليّ ألقابا ورتبـــا لا تمتّ إليّ بصلة ، فقلت في نفسي : ترى كم عدد المناصب الخيالية والمهام المختلقة التي ألصقوهـا بي كذباً وادّعاءً ؟ ! صحفي ، وهذا حق.. ثم : مخترع قنابل، ثم مكلّف بإمدادات حربية للجيش التركي!، ثم قنصل فرنسا ! ثم ممثل شخصي للسلطان العثماني قادم في مهمة سريـة للغاية ! ثم مدير ! ثم بك ! ثم باشا ! .. وما شابه ذلك .

وكانت آخر تقليعة جادت بها مخيلة رفاقي هي أنني وترجمـــاني الجزائري شخصيتان كبيرتان جاءتا للجهاد بين صفوف المسلمين .

وهكذا ، فإن الناس قد نحروا خروفاً إكرامـاً لي ، وأعدّوا قصاع الأرز التي كانت تتوسطها غدران الزبدة . وأخـذ البدو يتنافسون في إعداد كرات الأرز المطبوخ وغمرها في الزبدة ثم تكديسها أمامي كي أزدردها جـــاهزة للمضغ .

وقد لاحظت ان أهل البادية يأكلون الطعام بسرعة مدهشة، إذ انه لم تمضِ

خمس دقائق حتى أتوا على كل شيء في القصعتين ، بينما ظللت انا منبهراً وبين أصابعي قطع لحم الخروف الشهي وقد أمسكتها من عظامها أتلذذ بمضغها متأنياً، وكلما رميت بعظم أسرعت الكلاب القابعة حولنا تتلاقفه .

ثم اكتشفت ان ذلك الإكبار وذلك الاجلال الذي أحيط به شخصي لم يكن احتراماً للألقاب الخيالية التي أسبغها عليّ رفاقي فحسب،ولكن أيضاً من أجل عيون جوادي ! إذ ان اولئـك البدو الذين دعونا كانت لديهم فرس أرادوا مني ان أسمح لحصاني الأصيل بالوثوب عليها لكي تنجب فلواً او فلوة في مثل أصالته. فإن سماح الفارس لغيره بالحصول على سلالة حصانـه على ذلك النحو يعتبر هنا أمراً نادراً في العادة. ومع ذلك فقد وافقت ، وإن كنتُ قد تصنّعتُ الإباء في باديء الأمر وبأنني لم أمنح موافقتي على تلك « المصاهرة » إلا إكراما لخواطرهم وإرضاء لهم لعلو قدرهم عندي .

ويبدو لي هؤلاء البدو شبيهين في كثير من خصالهم بفلاحينا الفرنسيين؛ فإنهم يماثلونهم في شدة الحذر والتحرز والبخل والدهاء ، كما أنهم عمليّون للغـاية ، وشديدو التدين أيضاً مثل فلاحينا . ولكن تديّن بعضهم يغلب عليـه طابع التقليد أكثر منه الحرص على تـأدية فروض الدين ، إذ أنني شاهدت من بينهم القليلين ممن يقيمون الصلاة بحسب أصولها ، أما قلة أخرى ، فإنهـا وإن كانت تقيم الصلاة ، إلا انها تفعل ذلك دون ان تسبغ الوضوء[1] .

---

(١) الغريب أن المؤلف يتهم باديتنا بالبخل هنا ، وهو الذي ما فتىء يثني على كرمهم طيلة ترحاله عبر ليبيا ، حيث تشهد مذكراته هنا بأنه كان يحل ضيفاً على كل بقعة يحط الرحال بها . وذلك رغم حالة الحرب ورغم المجاعات التي شهدها ورغم حالة الحرب . كما أنه من التناقض أن نراه يفرغ من وصف وجبة الارز واللحم التي دعي إليها لكي يتحدث عن بخل من أكرموه .

أما عما لاحظه أو ادّعى أنه لاحظه من قيـام البعض للصلاة دون الوضوء فهذه زندقة تخلو منها طبائع البادية . ولقد سبق له وأن لاحظ في عدة مواضع من كتابه ندرة الماء في الصحراء، وكيف أن الشرطي الذي صحبه كان يتيمم بالرمل لعدم وجود المـاء ، وفاته أن هذا أمر يسمح به ديننا فهو دين يسر وليس دين عسر . ولعلنـا نعذره فهو ينظر الى الامور من ظواهرها كما اعترف مرة بنفسه . المترجم

وإليكم هذه الحادثة الطريفة التي وقعت لنـــا في نجع الشيخ (عبد العاطي الحسوني) ، مرشد قافلتنا الذي دعانا إلى خيمته عندما مررنا بها ، فهي تدل على مدى بخله . إذ أنه قدم لنا قليلاً من الخبز وشيئاً من زبد النياق ، على غير عادة البادية الكرماء . وأخذ في البداية يشكو من ندرة السكر والشاي ولامنا لأننا لم نتفضل عليه بشيء منها . ثم اضطر أخيراً الى الكشف عن أحد الأكياس التي كان يخفيها في أحد أطراف خيمته وأخرج منها سكراً وشاياً . وأخذ يعد لنا الشاي . وفجأة حضر بعض جيرانه للترحيب بنا ، فخشي أن يفطنوا الى مــــا كان يخزنه من السكر والشاي ، مما قد يجعلهم يكثرون التردد عليه فيما بعد طمعاً في هذا الكنز . فتدارك الموقف قائلاً لهم :

— « تفضلوا .. تفضلوا ! واغتنموا فرصة قدوم هؤلاء السادة الغرباء الذين جاءوا معهم بسكّرهم وشايهم ! » .

وهكذا فإنه فضّل أن يبدو في أنظارنا بخيلاً في سبيل ألا يفطن جيرانه إلى مخزونه من السكر والشاي .

٢٤ مارس ١٩١٢

أخذ أصحاب الجمال المرافقون لنا يتغنون بأغنية بدوية ويرددون مطلعهـا المرة تلو المرة دون أن يتمكن مرافقيّ من الجزائريين والتونسيين من فهم سوى عبارة واحدة هي :

— « أنا نريد مرَهْ سمينة ! »

نعم ! إمرأة مكتنزة !.. إن هذا هو ما ينقصنا وسط هذه الفلاة الخالية ، حيث كل شيء جاف ونحيل ، فالناس والبهائم والنباتات ، بل والأرض نفسها ،

كلها ضامرة متيبّسة . وبعثت تلك الأغنية في نفسي أنا الآخر ذكريات قديمة ، فأخذت أسترجع في مخيلتي أشياء فرنسا الجميلة : لا نساءها فحسب، بل ومأكلها ومشربها التي صرت أحنّ إليها كثيراً .

وكان الفرسان يهرعون من آن لآخر الى شاطىء البحر راكضين بجيادهم فتصطدم برانسهم بنسمته القوية مرتدة عن رؤوسهم إلى أكتافهم، فيعيدونها متلثمين بها رغم سرعة هبوب الرياح ، بينما أذرعهم العارية السمراء تظل ممسكة ببرانس الصوف البيضاء ؛ فكنت أتأمل تلك الحركات والسكنات المتّسقة مع ركض الجياد فتكوّن معه ومع الرمال الفضية المحيطة بهم ، ومع البحر الأزرق والسماء الصافية مشهداً مثيراً للإعجاب ..

وتناولنا طعام الغداء بين الصخور الناتئة ووسط الرمال الناعمة التي تشبه حباتها الدقيقة أحجاراً كريمة ذات ألف لون ولون .

إنني أتعجب لضراوة هؤلاء الفرسان الذين انخرطوا في حراسة قافلتنا ، فهم دائمو التطلع لشرب الشاي الأسود، مما يجعلني أسرف في تبذير كل ما أبتاعه من السكر الغالي السعر الذي تساوي الأقّة الواحدة منه ما يعادل ستة فرنكات فرنسية . كما أنهم دائمو الالحاح في طلب المزيد من الشعير لخيولهم ، رغم أن (مرطة)[1] الشعير الواحدة تكلفني هي الأخرى ستة فرنكات . بحيث أن الأمر يقتضي مني تخصيص جمل خاص لنقل هذه المؤن الإضافية . زد على ذلك أنهم يطالبونني بهدايا لا تنتهي ويرغبون في أن أتخلى لهم عن كل ما تقع عليه أعينهم ، حتى أزرار معاطفنا ؛ ومع ذلك فهم غير راضين عنا .

ومررنا بقافلة صغيرة كان يحاصرها عشرة من الفرسان الذين كانوا يصوّبون فوهات بنادقهم الى أصحابها يأمرونهم بتسليمهم أحد الجمال، الذي ادّعوا أنه قد

---

(١) المرطة : هي وحدة كيل محلية ليبية تعادل إثني عشر كيلوجراماً . المترجم

سُرق منهم في مدينة (مصراته) ، قائلين إنهم قد قضوا عشرة أيام بطولهـــا يجرون للحاق بتلك القافلة لاسترجاعه . ولم يلبث أصحـاب القافلة أن أطاعوا أوامرهم وردُّوا إليهم جملهم دون أن ينطقوا بكلمة واحدة .

٢٥ مارس ١٩١٢

ها نحن نواصل رحلتنا بمحاذاة البحر ، حيث تلبَّدت السماء بالغيوم وأخـذ المطر ينهمر من آن لآخر . وتناولنا غداءنا بجانب قصر مهدم يطلق عليه اسم (قصر بن جوّاد) ، ثم ملأنا قِرباً من جلد الماعز من (بئر بن جوّاد) فسقينا جيادنا . والحقيقة أن المرء في هذا الفصل من السنة يلاقي في طريقه هنـــا من آن لآخرِ بضعة آبار لا ينقصهـــا الماء ، ولكنه غالباً ما يكون مالحاً او محملاً بالرمال . وقد دُبغت قِربنا بدباَغ أحمر سرِعان ما يصبغ ماءها بلونه ويطعّمه بمذاق غريب .

ومضينا في طريقنا مزمعين قضاء الليل في نجع (بني هناء) ، وعندمـــا اقتربنا منه توقفنا على بعد بضع مئات من الأمتـار وأخذ البعض منـا يطرق بركاب حصانه قائلاً :

— « يا ساتر !.. يا ساتر »(١).

والمراد بترديد هذه الكلمة في تلك الأحوال ، حسب التقـاليد المرعية في هذا البلد ، هو لفت نظر النساء ، إن كانت هنالك نساء ، إلى مقدم رجـــال غرباء ، لكي يحتجبن ولا يظهرن للأنظار . وبقينا واقفين برهة ، ثم رفع رجل رواق خيمته وتقدم نحونا ، فبادلنا التحية ثم قال :

---

(١) وردت بالعربية في النص الفرنسي . المترجم

– « انزلوا يساراً » .

وهي عبارة يُكنى بها بحسب آداب الضيافة عند البادية وتعني أننا قد صرنا ضيوفه . واستقبلنا في خيمته حيث دعانا إلى قصعة « بازين » ، اجتمعنا حولها متحلقين في الظلام الدامس ، إذ أنه لم يكن لديه فانوس . وعندما حانت ساعة نومنا قدم لنا لحافاً كبيراً رقدنا تحته جميعاً . وما أن استغرق رفقائي في نومهم حتى أخذت أتلقى رفسات بعضهم بأرجله في ظهري وسيقاني . وما لبث شخير أحدهم أن انطلق قرب أذني . وفي تلك الأثناء كانت الرياح تعصف والأمطار تنهمر فوق الخيمة . وحيث أنني قد تناولت ذلك « البازين » في الظلام الدامس فإنني لم أتبيَّن محتواه تماماً ؛ ولست أدري مـاذا خالطه ، إذ أن معدتي التي كنت أعتقد أنها قد تعودت الآن على استقبال أي طعام ، لم تستطع مع ذلك هضم ما أكلته في هذه الليلة ، فطفقت أقاسي من آلام المغص طيلة الليل .

وفي الصباح لمَّح لي مضيفي إلى حاجته إلى نقود ومؤن وخراطيش ، كما رجاني هو الآخر أن أسمح لحصاني الوثوب على فرسه ! وزاد الطين بلّة أن إحدى عجائز النجع جاءتني هي الأخرى طالبة مني أن أهديها حزامي الجلدي ، بل ومنديلي وقياطين حذائي !

ثم تقدمت مني درويشة ودرويش ، فجدت عليهما ببعض النقود ، فأخذت الدرويشة تدعو لي بالفلاح وطول العمر ، ثم تفلت في كفها وأخذت تدهن وجهي بتفالها على سبيل أن تسبغ بركاتها على شخصي .

وأخذ الجمّالون يتجاذبون أطراف الحديث ، ونحن ماضون في رحلتنـا ، فقال أحدهم :

– « في الدنيا كلها ليس هنالك أجمل من مدينة طرابلس ولا أغنى منها ، ولذا فإنه حين يحلّ القحط والمجاعات في كل أطراف الأرض ، فإن الناس يهرعون الى طرابلس للتنعُّم بخيراتها ومآ كلها » .

فيرد عليه آخر :

ــ « عندما زرت طرابلس ، كنت أشاهد كل يوم أربع بواخر على الأقل راسية في مينائها تشحن منه مختلف أنواع المؤن ، وهذا هو السبب في ان الايطاليين يريدون احتلالها لأن بلادهم بلاد جدب وبؤس » .. الخ .

وعند المساء توقفنا في مركز (مطراتين) التلغرافي ، حيث انفصل عنا مشايخ (الحسون) الذين كانوا برفقتنا متجهين الى أنجعهم . ولم يكن شرطة (اجدابية) الذين يفترض ان يلاقونا قد قدموا بعد . وحتى لا يضيع منا الوقت فقد قررت ان نواصل سفرنا بدون حرّاس ، فمضينا دون ان ننتظرهم .

وبعد مضي ساعتين من مغادرتنا لمركز (مطراتين) التقينا بأربعة من قطّاع الطرق كانوا يرتدون ملابساً أنيقة وتبدو عليهم علامات النعمة . فوضع كل منا رصاصة في زناد بندقيته او غدارته استعداداً لأي مفاجأة . وبادلونا التحية ، فبادرناهم قائلين :

ــ « ماذا تفعلون هنا ، ولماذا تلفّون وتدورون حول قافلتنا ؟ » .

فردوا قائلين :

ــ « إننا قادمون بجمال من بلدة (قمينس) وننوي التوجّه بها الى بلدة (سرت) لجلب البضائع » .

فعدنا نسألهم :

ــ « ولكن أين هي جمالكم هذه » .

فقالوا :

ــ « لقد تركناها وراءنا .. وأنتم ؟ ما هي هذه الأحمال التي تشحنونها فوق ظهور جمالكم » ؟

فرددنا قائلين :

– « بها سكر ودخان .. الخ » .

فقالوا :

– « إذا رغبتم في بيع هذه البضاعة فإننا على استعداد لشرائها منكم » .

وتفحص كل فريق الفريق الآخر في صمت . كنا ثلاثين رجلاً ، وهم أربعة ، فهم خاسرون مقدماً ان هم حاولوا التعرض لنا ؛ اللهم إلا اذا كان لهم رفاق آخرون يختفون في المنطقة . وعلى أية حال فقد انتهى المشهد بأن بادلناهم تحية الوداع وغادرناهم[1] .

وكان أحد جمّالينا يصر على الترحال منفرداً خلال جزء من الليل ، وحجّته في ذلك انه قد سبق له وان قتل أحد أفراد قبيلة من قبائل المنطقة ، فهو يريد ان يعبر منطقة الخطر وحيداً دون ان يلفت النظر الى نفسه خشية ان يعلم أصحاب القصاص بوجوده فيثأروا منه .

كان القمر ينثر ضوءه الفضيّ على الصحراء من آن لآخر ، ثم لا يلبث ان يختفي وراء السحب ليبزغ من جديد ، كأنه مصرّ على مواكبتنا . وأخذ الجمّالون يسيرون أمام جمالهم وهم يرقصون ويصفقون ويغنّون ، وقد تقدمونا بجمالهم في صف عرضي وقد انعكست خلفهم على الرمال ظلالهم التي كانت تتبعهم في ضوء القمر كالأشباح .

---

(١) ينعت المؤلف هؤلاء الأشخاص الأربعة الذين التقى بهم بأنهم « قطّاع طرق » ، ولكن ليس في مسلكهم نحوه ونحو جماعته ما يدل على ذلك . أما تساؤلهم عما كان مشحوناً من أحمال فوق جماله ، فلعله حب استطلاع منهم وهم تجار قادهم استجلاب البضائع الى (سرت) ، فوقعوا على ما ظنوه يحمل بضائع، فلعلهم أرادوا شراءها منه واختصار الطريق والعودة الى (قمينس).

المترجم

٢٧ مارس ١٩١٢

استمر ترحالنا اليوم منذ الساعة السابعة صباحاً حتى الظهر. وكانت الأرض مغطاة بالرمال تارة وبالحصى تارة أخرى ، وغالباً ما كانت تكسوها أزهار « الجنْبة » الصفراء ونباتات « الخلنج » البنفسجية الزهور . وكان هطول الأمطار يعقبه تناضح الأرض بنوع من الرغوة الزّبدية . وتمكنتُ من قتل ثلاثة حيّات لاقيناها في طريقنا ، وكانت إحداها سوداء يبلغ طولها قرابة المترين ، أما الأخريين فقد كانتا صغيرتين بيضاوين لهما رأسان مفرطحان مثلثا الشكل .

وفي فترة ما بعد الظهيرة مررنا بـ (بئر المراقين) الذي كان ماؤه مشبعاً بالأملاح فرفضت دوابنا ان تتذوقه . وواصلنا سفرنا مدة ساعة أخرى حيث نصبنا خيامنا .

٢٨ مارس ١٩١٢

ارتحلنا عند الساعة الخامسة صباحاً . وبعد مضي ساعتين عبرنا منطقة (المقطع) الواقعة بين طرابلس وبرقة . وتوقفنا هناك حيث بادر جمّالونا – لدهشتي – فبنوا لنا في تلك البقعة ثلاثة قبور من الحجارة والرمال . أحدها لي ، وهو على شكل مخروطي ، والثاني لترجماني الجزائري ، والثالث لخدمي !

وسألناهم عن مغزى ذلك ، فقالوا :

– « مغزاه أنكم ان لم تتحفونا بـ « بو ظافر »[1] فإنكم هالكون لا محالة ،

---

(١) الـ « بو ظافر » هو احتفال يُلزِم به الناس في ليبيا، بحسب العادات الشعبية، الشخص الذي يجتاز أزمة من الأزمات بسلام ، او يتماثل للشفاء بعد مرض شديد يكون قد ألمّ به ، او يزور أرضاً لم تطأها أقدامه من قبل ، وما شابه ذلك . فينحر ضحية يشرك أهله وأصدقاءه في الوليمة التي تعد من لحمها حمداً لله على السلامة والنّجاة . والكلمة عربية مشتقة من مفهوم «الظفر» او الفوز. ويطلق على هذه الوليمة في شرقي ليبيا الـ«بوزفر»، وهي عربية مشتقة من «الزُفر» أي العطية الكثيرة . المترجم

وهذه القبور ترمز لموتكم الوشيك !.. أما اذا تكرمتم ونحرتم لنا خرفاناً نتقاسم لحمها ، فإن الأرواح الشريرة هي التي ستُقبر في هذه القبور ويُكتب لكم الظّفر » .

وكان أولئك الجمّالون الليبيون من الاعتقاد في تلك الخرافات والخزعبلات الشعبية الى حدّ أنهم أقاموا صلاة الميت عند تلك القبور الخالية ! فما كان مني ، والأمر كذلك ، إلا ان وعدتهم بوليمة « بو ظافر » – على حدّ تعبيرهم – حالما تسنح الظروف مستقبلاً . ثم أخذنا نطلق الرصاص على تلك القبور الثلاثة ونرجمها بالحصى لكي تُقبر بها الأرواح الشريرة بدلنا ، والعياذ بالله .

ولكنهم أصروا بمنتهى الجدّ على تدبير الوليمة لهم والاحتفال بالـ «بو ظافر» حتى لا يحالفهم سوء الطالع . وهنا غضبنا منهم حقيقة ونفد صبرنا من إصرارهم على التمسك بتلك الخرافات . ولم تلبث ان حدثت بيننا وبينهم مشاجرة وعراك ، قررت على أثره سحب وعدي لهم نهائياً بدعوتهم الى الـ « بو ظافر » وقد تملكني الغضب . وهكذا فقد واصلنا سفرنا بعد هذه الحادثة الغريبة والجو مكفهر بيننا وبينهم .

وعند الساعة الثانية ظهراً وصلنا الى مركز (المقطع) التلغرافي ، فاستقبلنا عامله ، المدعو (محمد خالد) ، استقبالاً طيباً . وقررت ان نتوقف هنالك لانتظار الشرطة القادمين لاصطحابنا الى (اجدابية) . ووصل هؤلاء بعد انتظار ثلاث ساعات ، حيث أخبرونا أنهم قد توغلوا للبحث عنا غرباً حتى وصلوا الى آخر نقطة تلغرافية مررنا بها قبل هذه ، وهي نقطة (مطراتين) ، حيث أُخبروا بمغادرتنا لها الى هنا فلحقوا بنا راجعين .

۲۹ مارس ۱۹۱۲

ألقينا رحالنا عند الساعة العاشرة قرب نجع من أنجع قبيلة (المغاربة) التي تقطن هذه المنطقة من خليج (سرت) . وكان أحد خيولي يعاني سكرات الموت من شدة ما ألمّ به من تعب ، فتركته ، واشتريت جواداً آخر كلفني ما يعادل مائتين وخمسين فرنكاً فرنسياً .

وواصلنا رحيلنا عند الساعة الثالثة بعد الظهر ، حيث وصلنا الى منطقة بساتين (بشير) التي كانت بها آبار مياه وفلاحون يعملون في مشاتل طماطم وخضروات مختلفة زرعت بين أشجار النخيل والتين . وكانت الرياح تهب على تلك الخضرة الجميلة فتكسوها بالرمال . والشمس هنا شديدة الحرارة حتى لتكاد تعمي العيون . وقد بدا لي ان الفلاحين يبذلون جهداً جهيداً في إنماء وصيانة تلك الخضروات وسط هذا البحر من الرمال . وبادر أولئك الفلاحون فاقتطفوا بعض حبّات الطماطم وقدموها لنا ، فانهلت على تلك التي قدّمت لي أقضمها بنهم وتلذذ كما لو كنت استمتع بأكل أطيب ثمار الأرض . فلقد اشتقنا منذ أمد طويل الى تذوق الفواكه الطرية الطازجة ، بعد ان احترقت معداتنا وأمعاؤنا من مداومة تناول المأكولات المعلّبة او لحم الخراف المطبوخ مع الفلفل الحاذق.

ثم مضينا في سبيلنا حيث توقفنا من جديد للراحة عند الساعة السادسة مساء. ثم واصلنا السفر في الساعة التاسعة ، حيث ظللنا نرحل تحت ضوء القمر حتى الساعة الثانية صباحاً . وكنا نتوقف من وقت لآخر ، حيث ينبطح الشرطة على الرمال مسندين رؤوسهم الى سروج جيادهم ، وأستغرقُ من جانبي في نوم عميق لمدة عشر دقائق ، رغم شدة البرد في الليالي ، فقد كنت في أشد حالات التعب . ثم نواصل رحلتنا من جديد ، وهكذا .

وكان في رفقتنا عبد رقيق كان منذ ان غادرنا بلدة (سرت) يحرص على تجميع كروش الخرفان التي كانت قد نحرت أثناء استضافة البادية لنا .

فكانت تفوح منها رائحة نتنة مقرفة ، فرجوناه عدة مرات ان يرحمنا ويخلصنا من رائحتها ، ولكن دون جدوى ! وظل يحتفظ بها الى ان توقفنا للمبيت في إحدى المرات ، فذهب وحفر في الأرض حفرة مناسبة جمع فيها عيدان حطب وأوقد فيها النار ، ثم أخذ يشوي عليها كروشه المؤذية ويأكلها بشهية الى ان أتى عليها برمّتها . وعندما أزمعنا الرحيل في فجر اليوم التالي ، بحثنا عنه ، فلم نجد له أثراً حولنا. فأخذنا في الظلمة فوانيساً وصرنا ننقّب عنه في البر المحيط بنا، وقد خشينا ان تكون إحدى الضباع الجائعة قد شمّت رائحة كروشه المشوية واستقطبتها هذه اليه وأكلته هو وشواءه الكريه . غير اننا انتهينا بالعثور عليه بعد لأيٍ ، حيث وجدناه يغطُّ في نومه ، ما يزال ، على بعد عشرة أمتار من مريضنا ، فلم تصحيه إلا لسعات الكرباج التي انهال بها البعض على عجيزته ، فاستيقظ من نومه مذعوراً . وعندما توقفنا في محطة القوافل التالية ناديته وهنّأته على متانة معدته التي استطاعت هضم تلك الكروش النتنة ؛ فرد عليّ قائلاً :

— « .. ذلك لأنني لا أتذوق الطعام كل يوم .. فأنت لا تعرف ما معنى ان يكون المرء عبداً رقيقاً !.. ولكن ما العمل ، وهذه هي إرادة الله عليّ » .

ثم طفق يفتل ذيل قميصه الممزق خجلاً ، وقد خيمت على وجهه الكآبة والتسليم بالقضاء والقدر .

٣٠ مارس ١٩١٢

توقفنا عند الساعة العاشرة صباحاً عند نقطة (بئر الجيم) التلغرافية . وتفصل بين نقط التلغراف مسافة مائة كيلومتر . و (بئر الجيم) تقع على مسيرة أربع ساعات قبل (مرسى البريقة) غرباً .

ولقـــد تعرضت (مرسى البريقة) منذ أربعة أشهر وخمسة أيام من تاريخ اليوم الى قذائف طرّاد حربي ايطالي ذي ثلاث مداخن . وقد كان ذلك الطرّاد قادماً من جهة بنغازي ، فألقى على البلدة إحدى وعشرين قذيفة ، سقطت ست عشرة منها فوق قصرها التركي . وكان يوجد بالقصر في تلـــك اللحظة مدير التلغراف ، المدعو (محمد عارف) وبصحبته جاويشان ، ولكنهم لم يصـــابوا بأذى . وقد حدث إطلاق القذائف عند الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر ذلك اليوم. وفي المساء نزل بعض البحارة الايطاليين على شاطىء (مرسى البريقة) وقطعوا الأسلاك التلغرافية .

الفصل التاسع

أول مدن برقة

أول إبريل ١٩١٢

استمر سفرنا يوم أمس طيلة أربع عشرة ساعة، حتى وصلنا إلى (اجدابية)، أولى مدن برقة . ولقد كانت (اجدابية) في الزمن الخالي مدينة هـامة[١] ، إلا أن رمال الصحراء كادت تردمها الآن . غير أنهـا خلال الست سنوات الأخيرة

(١) زار أبو القاسم بن حوقل النصيبي ، صاحب كتاب « صورة الأرض » مدينة (اجدابية) في منتصف القرن العاشر الميلادي ، فوصفها قائلاً : « .. وإليها مدينة اجدابية على صحصاح من حجر في مستواه ، بناؤها بالطين والآجر وبعضها بالحجارة ، ولها جامع نظيف . ويطيف بها من أحياء البربر خلق كثير،ولها زرع بالبَخس وليس بها ولا ببرقة ماء جارٍ، وبها نخيل حسب كفايتهم وبمقدار حاجتهم ، واليها القائم بما عليها من وجوه الأموال وصدقات بربرهـا وخراج زروعهم وتعشير خُضرهم وبساتينهم هو أميرها ، وصاحب صلاتها وله من وراء ما يقبضه للسلطان لوازم على القوافل الصادرة والواردة من بلاد السودان . وهي أيضاً قريبة من البحر المغربي فترد عليها المراكب بالمتاع والجهاز وتصدر عنها بضروب من التجارة . وأكثر مـا يخرج منها الاكسية المقاربة وشُقة الصوف القريبة الامر وشرب أهلها من ماء السماء . » انظر : « كتـاب صورة الارض » لابن حوقل ، ص ٦٩ و ٧٠ . طبعة بيروت .

كما زار اجدابية أيضاً (أبو سالم العياشي) ، وإن كان ينطقها « الجابية » لا « إجدابية » ، ولكن العياشي رغم أنه زارها إلا أنه يحيّر القارىء معه ، إذ أنه يذهب إلى أنها قد تكون هي مدينة « برقة » ، أي مدينة « المرج » الحالية ، ويذكر أن بها قبر صحابي يتراءى له أنـه هو رويفع بن ثابت الانصاري ، مع أنـه من الثابت أن هذا الصحابي مدفون بمدينة « البيضاء » . وعلى أية حال ، فإن العياشي يصف اجدابية كما يلي : « .. وفي هذه الجابية آثار عمـارة كثيرة وآبار عظيمة منقورة في الحجر وبنيان هائل بالحجر المنحوت وهناك رسم مسجد قديم تهـدم ، ووجدنا في بعض حجاراته تاريخ بنيانه منقوشا سنة ثلاثمائة » .

والجدير بالذكر أن (الحشائشي) في كتابه « جلاء الكرب عن طرابلس الغرب » قد اقتبس كلام (العياشي) هنا وسكبه في صلب عبارته ونسبه إلى نفسه . المترجم

عادت فاسترجعت شيئاً من ازدهارها القديم بفضل ذكاء ونشاط قـائم مقامها (حسين بَيْ) .

ولست أعتقد أن في الدنيـــا كلها سهلاً في مثل عراء هذا السهل المسطّح الموحش ، ولا شمس أشــد لظى من شمسه ولا رياحاً أعتى من رياحه . وتتوقف الرمال وتموجات الصحراء لبضع كيلومترات ، تاركة مكانها لمسطحات صخرية متصلة تُسمع فوقهـا خباب حوافر الجياد كالمطارق . ويشاهد المرء على يساره مستنقعات كبيرة من المياه . وتوجد هنا وهناك آبار مياه قـــديمة تشهد بنشاط سكان (اجدابية) القدماء . وعن بعد كنا نرى آثار كتابات رومانية منقوشة على الصخور وامحّت من طول عهدها وبتأثير صفع الرياح المحملة بالرمال لهـــا ، وتعاقب أقدام البدو وحوافر خيولهم وأخفاف بعرانهم عليها .

وبالبلدة بضعة منازل شيدت بحسب خطوط أفقية ، وهي منازل واطئـــة ذات أبواب مقوسة — [أبواب بوخوخة] — وأسطحها معفّرة بالأتربة ، وقـد بدت مبعثرة في الفضاء الواسع . وبالبلدة أسواق يرتادها أفراد قبيلة (المغاربة) التي تقيم في خليج (سرت) ، للاتّجار في المواشي والشعير . كما تتوقف بهـــا القوافل الذاهبة والآيبة للراحة ، قبل مواصلة رحلتها نحو (بنغازي) التي تبعد عنها مسير أربعة أيام .

ولقد استقبلني السيد (حسين بَيْ) قائممقـام (اجدابية) عند باب قصر البلدة وقدّمني إلى أعيانها وعرّفني عليهم . وكان اولئك الأعيان يرتدون جبباً سوداء على الطريقة المصرية وقمصاناً بيضاء شفّافـــة أو ثياباً حريرية مقلّمة استُجلبت من أسواق القاهرة . ولقــد أسبغت عليهم هذه الملابس الجميلة المنتقاة مظهراً ارستقراطياً متميزاً غالباً ما يفتقر إلى مثله الناس في ريف فرنسا ومدنها حتى وإن كانوا من الأثرياء .

ثم بادرني (حسين بَيْ) قائلاً :

— « سوف اصطحبك غداً إلى مجاهدينا، فما أروعهم من فرسان وجنود !..

إن معظمهم قد جـــاء من (بنغازي) ، ولسوف يقومون إكراماً لك بحفل سبـــاق » .

وعند الهزيع الأخير من الليل ، حوالى الساعة الثالثة صباحاً ، أخذت أسمع أصداء دقات طبل الجهاد ، وهو يدوي منادياً لحمـــل السلاح ، ثم سمعت أولى الطلقات النارية .

ثم ها هم المجـــاهدون مصطفّين وسط السهل على أرض مبلّطة بالحصى والصخور ، وقد امتشق كل منهم بندقيته أو حسامه أو غدارته . وشاهـدت النسوة وسطهم محجّبات وقد ارتدين ثياباً زرقـــاء يضربن الطبول وتصدح حناجرهن بأهازيج الحرب : تلك هي موسيقى فيالق المجاهدين البرقاوية التي لا تعلو عليها في نظرهم موسيقى .

وكانت رياح « القبْلي » تهب عاتية فتصفع الصخور العارية بما كانت محملة بـه من رمال الصحراء. وأخذت الرمال تنكال على وجوهنا وتتسرب إلى عيوننا، في حين أخذت الريح تنفخ برانس الفرسان والجنود .

أما الشمس فقد اختفت وراء غبـار أصفر وأحمر . ولا يجد الخيال في هذا البلد الإفريقي الموحش الحزين إلا أن يجنح ، وقد استثارته أعـــاجيب هذه المشاهد : فالفرسان يتشقون سيوفهم راكضين بجيادهم في سرعة جنونية وقد ملأت الريح معاطفهم وبرانسهم وجوّفتها ، مطلقين صيحات الحرب المجلجلة . وقد اصطف لمشاهدتهم المجاهدون يطلقون عياراتهم النارية في الهواء . ثم يعود الفرسان أدبارهم مطلقين العنان لجيادهم المطهمة، حيث لم أجد مفراً من الانضمام إلى موكبهم أنا الآخر ، إذ تقدمتهم بأقصى سرعة خشية أن تسحقني صفوفهم وهم آتون ورائي بجيادهم . ثم لم تلبث صفوفهم المتراصة أن ازدادت تراصـــاً مكونة من أجسام الرجال وبنادقهم .

ثم عاد الجميع الى (اجدابية) في صف متراص ، حيث توقفنـــا في حلقة كبيرة حول مفتي البلدة الذي خطب في المجاهدين قائلاً :

– « إخوتي المسلمين !.. اعلموا أن المجاهدين لا يدخلون الجنة إلا على حدود السيوف . واعلموا أن أولئك الذين يستشهدون منكم تحت راية الإسلام ، التي هي مفتاح الجنة ،ستكون سكناهم قصوراً فخيمة تعج بالجواري ، وسينعمون فيها برؤية محيّا الرسول [ﷺ] رؤية لا تنقطع . واعلموا يا إخوتي المسلمين أن أعين اخوتكم في مشارق الأرض ومغاربها تتوجه إليكم وترقبكم : فأنتم اهل معقل من آخر معـــاقل المسلمين وحريتهم ، فبلادنا اليوم تعتبر قلب الإسلام النابض . واذكروا أن السلطان ، نصره الله ، يتطلع إليكم بناظريه . واعلموا اخيراً أن الذي يستشهد في سبيل الله والوطن ستغفر له جميع خطاياه » .

ثم قرأ المفتي الفاتحة وأخذ يتضرع الى الله أن ينصر المجاهدين وأن يثبط عزائم أعدائهم الإيطاليين « الذين يشهد آباؤهم موت ابنائهم تحت ضرباتنا القاصمة أو يقعوا في أسرنا » .

ثم تقدم القائم مقام فاعتلى جواده واستلّ حسامه ولوّح به قائلاً في جمع المجاهدين :

– « إخوتي المسلمين ! لقد شاهدتم ما شاهدتم ، وسمعتم ما سمعتم ، ولم يبق أمامكم إلا خوض المعركة » .

٢ ابريل ١٩١٢

إن صرف النقود الفرنسية وتحويلها إلى عملة تركية هنا يكاد يكون شبه مستحيل ، اللهم إلا إذا قبل المرء بخسارة ثلاثة فرنكات فرنسية كلّما صرف قطعة ذهبية قيمتها عشرون فرنكاً. وقد اضطررت لصرف بعض النقود لتسديد كراء الجمال التي أجّرتها من أصحابها الذين يصرون على قبض الكراء بقطـــع فكـّة صغيرة . والطامة الكبرى هي ان النقود الفكـّة ليست متوفرة هنـا



إجدابية : الجيش النظامي التركي



حسين بَي° قائممقام إجدابية

كثيراً ؛ إذ ان الليبيين يحتفظون بها رافضين استبدالها بالأوراق النقدية . أما العملة الذهبية الفرنسية ، فإنهم لا يقبلون منها إلا القطع التي صكت على أحد وجهيها صورة نابليون بونابرت وصكت على الوجه الآخر صورة الصقر النابليوني، والتي تساوي عشرين فرنكاً للقطعة الواحدة .

غادرت (اجدابية) عند المساء، حيث خرج لوداعي مسافة كيلومتر خارجها ، القائم مقام (حسين بَيْ) وشيخ الزاوية « الظافرية » المدعو (سيدي عبدالله) ، والذي وعدني وهو يودعني بأنه سيصلي من أجلي . وعلى ذكر الزاوية الظافرية ، فإنها هي إحدى الطرق الصوفية ، ولقد أسسها (الشيخ ظافر) ، صديق السلطان عبد الحميد . ولا يوجد لهذه الطريقة في برقة كلها من أتباع ومريدين إلا في مدينة (اجدابية) هذه . ولقد حاول عميد البلدية ان يركب حصانه ويأتي لوداعي هو الآخر ، ولكنني أبيت وأقنعته بعدم إرهاق نفسه ، إذ أنه كان مريضاً بداء الاستسقاء .

٣ ابريل ١٩١٢

واصلنا ارتحالنا منذ الساعة السادسة صباحاً حتى الظهر ، ثم توقفنا للراحة والغداء قرب أحد أنجع البادية . وقد أحضر لنا البدو لبناً وأخذوا يسألوننا عن وجهتنا وعن سبب قدومنا الى هنا . وكانت تعلو وجوههم علامات الريبة والحذر، شأنهم شأن سكان الأرياف والبراري في كل بقاع الأرض، وإن كان أهل بادية ليبيا يمتازون عن غيرهم بحبهم الشديد للأسلحة والخيول والنساء ، الأمر الذي يسبغ عليهم من وجهة نظري طابعاً خاصاً ويدل على الأصالة والنبل الذي يميزهم عن بقية الريفيين .

وعند المساء نصبنا خيامنا عند منتجع يدعى (بئر ابراهيم) . ومرّت بنا

بعض النسوة البدويات ، فاعتقدن أننا من الجنود الليبيين او الأتراك ، فبادرننا بالتحية قائلات :

ـ « إننا نفرح كلما رأينا جنود السلطان ! » .

٤ ابريل ١٩١٢

أخذنا اليوم نخترق مراعيَ واسعة غنية بالعشب والكلأ الأخضر . ثم مررنا بنجع ، فاستضافنا أحد مشايخ البادية وأطعمنا . وبعد ذلك واصلنا سفرنا . وفجأة لمح رجالي بضعة جرابيع فأخذوا يطاردونها ، ثم عادوا وقد اصطادوا بعضها . وأمسك شرطي مرافق لنا أحدها في يده فحاول الجربوع ان يعضه ، فما كان من الشرطي إلا ان فطّسه بين أصابعه انتقاماً منه .

ثم طفقنا نتسابق بجيادنا عبر السهل الأخضر ، حيث كان الفائز منا يكرّ على الآخرين بحصانه ممسكاً عنانه بين أسنانه وهو يلكزه بقدميه ، مصوّباً فوهة بندقيته على الآخرين ، الى ان يصير على بعد مترين منهم ، وهنا يرفع فوهة البندقية الى الهواء ويطلق منها عياراً نارياً ، او يصوبها الى الأرض ويفرغ العيار في باطنها .

ثم واصلنا ترحالنا متباطئين وقد أثقل النعاس جفوننا. وفجأة سمعت ركض جواد خلفي . وفي هذه اللحظة صاح الشرطي قائلاً :

ـ « هايا .. هايا .. يا سيدي عبد السلام .. يا سيدي عبد السلام الأسمر ! »[1] .

---

(١) وردت بالعربية في النص الفرنسي ، وتعني كلمة « هايا » باللهجة المحلية « احذرْ ! » .
المترجم

والتفتُّ الى الوراء ، فاكتشفت أن حصان ترجماني الجزائري قد شرد حيث أوقع راكبه على الأرض وهرب . فانطلقت في إثره ، وتمكنت في النهايـة من إيقافه والعودة به حيث ألقى صاحبه . فوجدت هذا مغمى عليه ، وقد أسنده الشرطي بين ساعديه . وبعد مضي حوالى ربع الساعة ثاب الجزائري الى وعيه وفتح عينيه ، فأجلسناه فوق ظهر جمل وربطناه ، وواصلنا سفرنا . وقد ظل يهذي طيلة بقية ذلك النهار قـد فقد ذاكرته فلم يعد يدري أين هو ومن اين اتى وإلى اين هو ذاهب .

٥ ابريل ١٩١٢

رحلنا من المكان الذي قضينا فيه الليل عند الساعة الخامسة صباحاً ، حيث أعدت ربط وثاق ترجماني المريض فوق جمل . وبعد مضي اربع ساعات كاملة من السير الوئيد ، وصلنا الى مكان وجدنا به « زاوية » وبئر ماء سقينـــا منه جيادنا التي لم تذق الماء منذ يومين .

كان السهل الذي نعبره عارياً والأفق مستديراً ، والسراب يدير رأس المسافر فيخيل إليه أنه يقترب منه . وخيِّل إليّ أن جيادنا كانت تمشي دون أن تتقدم خطوة واحدة . والتفتُّ الى ترجماني المريض لأطمئن عليـــه ، فلمحت رأسه يترنح يمنة ويسرة بين الصناديق التي شحنت معه على ظهر الجمل ، وكان يئن بصوت واهن .

تربة سهل بنغازي حمراء وسميكة متماسكة ، ومن المؤكد أنهـــا شديدة الخصوبة ، لو رُزقت بحاكم ذكي قادر على استثمارها وإمدادها بالآلات والقيـام بإنشاءات وقنوات ريّ بها . إذ قيل لي ان مياهها غزيرة وترقد فقط تحت طبقة رقيقة من الأرض .

وألقينا رحالنا قرب ضريح مرابط تحيط به أشجار التين الشوكي – [الهندي] – التي بدت لي عن بعد وكأنها غابات كثيفة . وكنت ألمح عن يميننا بداية سلسلة جبال (الجبل الأخضر) . وعندما أسدل الليل خيوطه بدأنا نلمح في الجو أضواء الأنوار الكاشفة التي ترسلها المواقع الإيطالية من مدينة بنغازي .

وفي اليوم التالي – السادس من أبريل – تحسنت حال ترجماني الجزائري ، فعاد إليه رشده وأخذ يتحدث معي ، حيث قال لي انه صار يتذكر الآن أنه قد أغمي عليه فوق جواده ، ولكنه لا يتذكر أنه قد وقع من فوقه . فلست أشك في أن إغماءته وسقوطه كانا بسبب إصابته بضربة شمس .

وبعد مواصلة السفر مدة ست ساعات أُخر ، وصلنا الى معسكرات القائد (عزيز المصري بك)[1] ، أي معسكرات المجاهدين عند (بنغازي) .

(١) عزيز المصري هو ضابط مصري كان برتبة مقدّم في الجيش العثماني عندما جاء الى ليبيا للإسهام في الحرب ضد الإيطاليين ، كما سيرد ذكره مفصلاً في الفصل التالي . وهو من أشهر ضباط الجيش المصري ، وقد ترقى في رتبه العسكرية حتى أصبح فريقاً . ولقد عمّر طويلاً حتى توفاه الله منذ سنوات قلائل . حول دوره وموقفه في حرب الليبيين ضد الغزو الايطالي ، أنظر كتاب « قادة فتح المغرب العربي » للواء محمد شيت خطّاب الذي صدر في بيروت مؤخراً .
المترجم

الفصل العاشر

في معسكر مجاهدي بنغازي

معسكر بنغازي في ١٢ أبريل ١٩١٢

ها أنذا أخيراً في مواجهة بنغازي التي وصلتها سالماً بعد رحلتي الطويلة عبر صحراء (سرت) شبه الخالية . وذلك برغم تحذيرات المتشائمين من أصدقائي في فرنسا الذين بدا لهم مشروعي هذا وكأنه ضرب من الخبل والجنون . ومن الحق أن النجاح في مثل هـذا المشروع – بالنسبة لأجنبي مثلي – في ظروف أخرى غير ظروف الحرب ، كان من الممكن أن يُعد من سابع المستحيلات . بيـد ان إحدى النتائج غير المتوقعة لهـذه الحرب هي تحقيقي لهذا المشروع رغم جميع المصاعب .

ومنذ وصولي الى بنغازي يوم السادس من أبريـل ، تمكنت من تفقـّد معسكرها الكبير الذي يعجُّ بمجاهدين من جميع قبائل « الجبل الأخضر » و « الساحل ». وقد قمت بجولتي فيه بمعية آمر جيوش مجاهدي منطقة بنغازي: المقدّم (عزيز المصري بك) . ويطلّ المعسكر على المدينة ، على بعد أقـل من عشرين متراً منها[1] . وليس هنالك موقف أفضـل من هذا الموقف ملاءمـة للقذف المدفعي للقوات الإيطالية وتحريك جيوشها والدخول بها في معركة كبيرة . ومع ذلك فـإن الإيطاليين لا يكادون يحركون ساكناً ، وكل همّهم هو حشد المزيد من قواتهم ودعم تحصيناتهم القوية أصلا .

ولقد قال لي المقدّم (عزيز المصري بك) مندهشاً :

---

(١) الاقرب الى الصواب ان تكون هذه العبارة هكذا : « أقل من عشرين كيلومتراً » ، لا : عشرين متراً . فلعلها غلطة مطبعية . المترجم

– « إنه لأمر غريب حقاً لم أكن لأصدقـــه أنا نفسي لو لم أشهده بعيني ، ويستحيل أن يصدقه أحد في أوربا ، بل ان سلطاتنا الحكومية في القسطنطينية نفسها ترفض تصديقه : نعم ! غريب أن تتمركز قوات العدو البالغ عددهـــا حوالي خمسين ألف جندي خلف تحصيناتها ، عاجزة عن مجابهة المجاهدين الليبيين الأقل منها عـدداً وتنظيماً وتسليحاً . وذلك في حين أن هؤلاء الليبيين لهم من الشجاعة والجسارة ما يدفعهم إلى اقتحام خنادق العدو وتحصيناتـــه كل ليلة ، حيث يقتلون الكلاب التي تحرسها ويستولون على بنادق جنده وآلياته ويخرّبون ويعطبون نقاطه التلفونية التي يعودون إليّ بأسلاكها ، فأستفيد بها في استبدال ما يكون قد عُطب من أسلاكنا نحن . فمها تدّعي إيطاليـــا ومهما تبث من دعايات كاذبة وأخبار مختلقة ، داخل أوربا ، حول انتصاراتها المزعومة وحول عدد خسائرنا وخسائرها في الأرواح ؛ فإن الشيء المؤكد والذي سوف تكتشفه بنفسك ، هو ان المعارك والاشتباكات تقع بيننا وبينهم كل ليلة داخل مواقعهم هم وفي الناحة الأخرى من تحصيناتهم . ذلك ان الرعاة الليبيين هنا ما يزالون يسرحون بقطعانهم متوغلين بها إلى مسافة بضع مئات من الأمتار فقط من تحصينات العدو دون خوف او وجل .

وكدليل آخر على بسالة الليبيين وضراوتهم وجسارتهم ، أنـــه حدث منذ بضعة أيام فقط أن توّغل نفر من المجـاهدين داخل أحد بساتين بنغازي نفسها واختطفوا شخصاً مالطياً ، حماية انجليزية ، بينما كان يجني خضرواته في طمأنينة متصوراً أنه كان في مأمن منهم وهو الذي كان يعمل في بستان تحت نظر الجنود الإيطاليين وفي حماية مدافعهم . ومع ذلك فقـــد تمكن مجاهدونا من خطفه وإحضاره اسيراً إليّ . والحقيقة انـــه كان يبدو امراً مستحيلاً ومخالفاً لجميع قوانين الحرب أن أتمكن بالقوات المحدودة التي تعمل تحت قيادتي هنا ، ورغم ما ينقصنا من قطع المدفعية الثقيلة ، من مهاجمة بنغازي التي تحصن فيهـــا الإيطاليون بأقصى ما يمكن أن يتصوره العقل من المعاقل ، في حين عسكرنا

نحن في هـذا السهل المكشوف المحيط بالمدينـة حيث لا تحمينا اية تضاريس طبيعية. ومع كل هذا وذلك فإننا نهاجمهم كل يوم دون أن يفت في عضدنا شيء».

وفي اليوم التالي ، السابع من أبريل ، شاهدت طائرة إيطالية تحلق فوق معسكر المجاهدين ثم تلقي عليه قنابل متفرقعات . وقد استشهد من جراء هذه الهجمة الجوية امرأتان وشيخ عجوز ، كما جُرحت ثلاث نسوة أخريات وصبي عمره ثماني سنوات ، داهمتهم القنابل داخل الخيمة التي احتموا تحتها . ولم يصب أحد من المجاهدين أنفسهم ، فقد كانوا يتابعون مشاوير الطائرة الجوية وينجحون في تحاشي قنابلها المتساقطة .

غير أن الطيارين الايطاليين لم يكتفوا برمي قنابلهم فحسب ، بـــل كانوا « يقاتلون » بالمنشورات أيضاً . فقد كانوا يبذرونها من الجو بعد وابل قنابلهم ، فكان المعسكر يستقبل من طائراتهم نسخاً لا تعد ولا تحصى من التصريحات المكتوبة والخطابات والمنشورات الدورية والكتيبات الدعائية .

فيـــا له من حصاد أدبي ذلك الذي تجود به طائراتهم !!.. فمنشوراتهم الدعائية كانت مليئة بالآيات القرآنية وأبيات الشعر العربية التي كانوا يستشهدون بها نفاقاً وتمويهاً . وقد صيغت المنشورات بأسلوب شعري بلاغي يتضمن الكثير من المترادفات والمحسّنات اللفظية والتشبيهات البلاغية والعظات والعبر الفلسفية ومقتطفات من أقوال حربية . كل هذا في أسلوب من التهديد والوعيد تارة ، أو في أسلوب من المدح والتملّق المعسول لليبيين الذي يتخلله التجريح والاتهـــام للأتراك وحكومتهم تارة أخرى .

ولقد اطّلعتُ على عينات من تلك المنشورات الدعائية ، فوجدتهـا مليئة بالوعود الخادعة والأماني الكاذبة : فهذا منشور يقول إن إيطاليا ، حالما يستتب لهـا الأمر في البلاد ، فإنها ستجلب الى أهلها الحلاقين والقابلات ، وستنشىء في ليبيا المسارح والملاهي ، وستهيىء حفلات تأبينيّة مهيبة كلما مات أحد الأعيان

أو المشايخ .. الخ . ومن منشور دعائي آخر رأيت صورة ملك ايطاليا وقد اعتلى عرشه في أُبّهة وعظمة توحي بانطباع من التكبُّر والتعالي التي تخالف كل مفاهيم العرب عن الملوك والرؤساء، الذين لا يسبغ عليهم الناس هنا كل هذه الهالة التي تشبه التأليه .. وهذا دليل على جهل الإيطاليين بطبيعة هذا الشعب الذي يحب التواضع. وفي منشور ثالث اطلعت على تفسيرات فلسفية سوفسطائية ركيكة تحاول شرح مدلول ألوان العلم الإيطالي .

ولقد اصطبغت عبارات ونصوص المنشورات الإيطالية التي اطلعت عليها بمسحة من الورع والتقوى المصطنعتين والتي قُصد من ورائها التمويه والخداع واستمالة قلوب ونفوس الليبيين كي يصدّقوا ما احتوته من السموم . مع أنه لو كان الإيطاليون من أصحاب الورع والتقوى مثلما تدّعي دعاياتهم هذه، لما كانوا قد اقترفوا ما اقترفوا من التقتيل والغزو لأرض الغير .

ومزيداً في الفائدة، إليكم بضعة مقتطفات حرفية من تلك النشرات والتصريحات الدعائية . إذ ان الاطلاع عليها يعطي فكرة واضحة عن تفاهة السياسة التي أوحت بصياغتها . ولكنني سأكتفي بإيراد بضعة منها فقط، إذ ان نسخها كلها يستلزم نشر مجلد كامل[1] .

يقول أحدها متوجهاً الى الليبيين :

– « أنتم تعلمون ان جلالة الملك المعظم (فكتور – عمانويل الثالث) منذ ان اعتلى عرش مملكته الزاهرة العزيزة إيطاليا، ومنذ ان أمسك في يديه بمقاليد ومصائر النصارى والمسلمين في إقليم (إرتريا)، وأهل المدن الإيطالية الكبيرة؛ فإنه لم يتوان عن بذل جهوده وجهود رجال دولته من أجل رفاهية بلاده وأهل

---

(١) رغم ما تحتويه هذه المنشورات من تفاهة تتقزز منها النفس ويمقتها الذوق السليم، إلا انني رأيت ألا أحذفها او أتصرف في ترجمتها، لكي يطلع عليها شعبنا وينتزع منها العفة . وان لاحظ القارىء في أسلوبها ركاكة، فليعلم انني قد حرصت على ألا أنزع عنها هذه الخصلة، فهي ليست جديرة بأن تنقّح او تُهذّب . المترجم



طبرق : أطفال مدرسة المجاهدين يتدربون
على إطلاق النار



الملازم عصمت بك وجنوده، فوق
ظهور المهارى

وطنه . فهو كان يعمل دائماً بما يمليه عليه عقله الراجح ، مواصلاً الجهـد والعمل ليل نهار، منذ الصباح الباكر حتى حلول المساء، في منتصف النهار وفي العشية ، ذاهباً آيباً ، رافضاً الطغيان، غير مكتفٍ بما تمليه عليه أفكاره الخاصة – بالرغم من ان هذه الأفكار هي دائماً أفكار حكيمة – وإنما مشاطراً آراء رجال دولته حول جميع المسائل الهامة ، وآخذاً مشورتهم بعين الاعتبار ، كلما عنَّ له اتخاذ القرارات الحاسمة . كل ذلك على نحو من الحكمة والرشاد ، بحيث أصبحت بلده إيطاليا قوية منيعة وأصبح رعاياه ينعمون بالسلام والرفاهية والراحة ، دون تمييز بين قومية وأخرى . وهو قد فعل الكثير الكثير في مجالات الفن والتعليم ، حيث جعلها تزدهر في جميع أرجاء مملكته وبين جميع أفراد رعيته . ان جلالته (حفظه الله) يحب جميع رعاياه ، سواء أكانوا متعلمين او جُهّالاً ، فقراء أم أغنياء، جميلي الطلعة أم قبيحي السحنة، فهم جميعاً متساوون في نظره. وأقرب الناس الى قلبه هو المواطن الذي يلتزم بالقوانين . فإن الملك ورجال دولته ينظرون الى مثل هذا المواطن على أنه إنسان في منتهى الحكمة . وحيث ان لإيطاليا علماً ذا ثلاثة ألوان : الأحمر والأبيض والأخضر ، فإنه من واجبنا ان نتحدث عن كل لون منها وعن مغزاه. فمغزى هذه الألوان هي: الحرية والمساواة والأخاء[١] . فلنتحدث أولاً عن اللون الأحمر الذي يرمز الى الحرية . إليكم معنى كلمة « حرية » : الحرية كلمة حلوة النطق ؛ إن هذه الكلمة الجميلة معناهـا الالتزام بعدم إطاعة كل ما هو منافٍ للعدل ، ومعناها الشجاعة في قول الحق ، أمام الكبير وأمام الصغير . إن هـذا هو معنى الحرية . ولنتحدث الآن عن اللون الثاني من ألوان علمنا ، أعني اللون الأبيض الذي يرمز الى المساواة بـين الناس ، فهو لون يرمز الى البراءة والعمل من أجـل سعادة البشر ، دون تمييز عنصري او ديني او قومي ، وهو يعني ويرمز كذلك الى عاطفة المساواة الكريمة

---

(١) لاحظ ان شعارات : الحرية والاخاء والمساواة ، هي في الاصل الشعارات الثلاثة التي نادت بها الثورة الفرنسية في سنة ١٧٨٩، وتبنتها ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ . والإيطاليون ينسبون الى علمهم الوطني هنا انه يرمز الى هذه القيم الثلاث باطلاً وتدجيلاً . المترجم

بين الجميع ، كما قال الشاعر العربي : « إن الوفاق والوئام بين الجميع لا بد وان يكون هو أمل الجميع ، أما الخلاف والخصام فإنه أعدى أعداء النـــاس » . ولنتحدث أخيراً عن اللون الأخضر الذي يرمز الى التآخي . ان جميع الحكماء وراجحي العقول لا يمكنهم ان ينكروا ان اللون الأخضر لون جميـل تستريح النفس والعين لرؤياه . فها أنتم ترون ان الله العلي القدير قد استطاع فعل مـا لم يستطع بشر ان يفعله . فهو الذي خلق لنا مأكلنا كالقمـح وغيره من أنواع الحبوب ، وكلها ذات لون أخضر . ثم ان المدهش حقاً ان السنابل تنمو متحدة كالأخوات ، وتتمايل في حقولها بعزّة كالأعلام الخضراء . وهذا لم يفت الشاعر العربي فقال : هنالك ثلاثة أشياء تُذهب الغم عن النفس : الماء والخضرة والوجه الحسن[1] . ويترتب على كل ما قلناه أعلاه ان العلم الإيطالي ذا الألوان الثلاثة : الأحمر والأبيض والأخضر، هو رمز للحياة السعيدة التي تنعم بها الأمة الإيطالية العظيمة التي نتمنى لها حياة طويلة ونبتهل الى الله ان يـــديم عليها سعادتها ورفاهيتها الى الأبد .

« ان الإنسان سيعيش تحت حكومة ملك إيطاليا في طرابلس تحت ظـل العدالة والحرية ، نشطاً أثناء النهار ، مرتاح البال والبدن في الليـل . وإن أكل فإنه يأكل متنعّماً، وإذا هو روّح عن نفسه، فإنه سيفعل ذلك على نحو يُسعد . هكذا ستعيش الشعوب التي تتشبّث بالأمم الاستعمارية ، ويعـلم الله ان إيطاليا أمة استعمارية » .

[كذا] !!

وتلي هذه الترّهات ، آيات قرآنية تُساق لإقنـــاع الناس بضرورة غزو إيطاليا لليبيا ، وتعقب كل ذلك ابتهالات وصلوات تدعو لنصرتها .

ولا بد لي ان أشهد هنا بأن هذه الدعايات لم تجد الصدى المتوقع لهـــا لدى

---

(١) لعله يقصد بيتاً شعرياً شهيراً للشاعر أحمد شوقي ؟ المترجم

الليبيين . فهي أولاً وقبل كل شيء لا يفهمها السواد الأعظم من النـــاس بسبب انتشار الأميّة بينهم . وهي ان وقعت في أيدي من يستطيعون قراءتها من مشايخ القبائل ورجال الدين ، فإنهـــا أبعد من ان تؤثر في نفوسهم إذ ان موقفهم من إيطاليا قد تحدد أصلاً ، فهم يرفضونها هي ووعودها ودعاياتها مقدماً .

وقد تكون مثل هذه الحملات الدعائية ذات تأثير على النفوس ان هي بُثّت قبيل نشوب الحرب ، او بعد تحقيق الايطاليين النصر الكامل فيها وبعد ان يكونوا قد أقاموا الدليل القاطع على عِظم قوتهم . لكنها الآن لا تجدي نفعاً ، فالليبيون ما يزالون يشعرون أنهم أسياد في بلادهم . بل انها ، على العكس مما قُصد بها، تولّد لدى هؤلاء انطباعاً بأن العدو لا يتملقهم على هذا النحو الرخيص المبتذل الساذج ، إلا لأنه قد اختبر مدى قوتهم ؛ فهي دليـل على خشيته منهم وبرهان على أنه يعمل لهم ألف حساب . فالليبيون ليسوا في موقف المغلوبـين على أمرهم ، لأن الغلبة لا تأتي بتحبير المنشورات الدعائية الجوفاء ؛ وإنما بقوّة السلاح وفعاليته .

إن ما يدهشني كمراقب محايد هو ان الايطاليين قد ألقوا في هذه الحرب بكل ثقلهم وحشدوا لها كل ما شحنوه معهم من آليّات هائلة ، وما جاءوا بـه من القطع البحرية والطرّادات الحربية ومن الطائرات ، ومـــا استعانوا به من أجهزة الأضواء الكاشفة .. الخ . ومع ذلك فإنهم لم ينجحوا في إلقاء الرعب في نفوس الليبيين العُزّل . فإن هؤلاء يرون في الايطاليين واستعداداتهم الهـــائلة شياطيناً يملكون جحيماً من الحديد والنار ؛ ولكنهم مؤمنون في قرارة نفوسهم بأن الله لن يتخلى عنهم ، وأنه سينصرهم في النهاية على أعدائهم فيشتت شملهم وينصر عباده المؤمنين .. هذه هي فلسفتهم ، وهذه هي نظرتهم الى القضية .

وهذا أمر طبيعي في بلد كليبيا ، حيث يُرجع الناس هنـــا كل شيء الى المعجزات الإلهية . وما زلت أذكر ما قاله لي أحد الليبيين مرة وهو :

– «ان الأوربيين شبيهون بنساء ماكرات في مستطاعهن حبك خدع بارعة.. ولكن، هل المكر وحبك الخداع من شيم الرجال ؟! ».

. . .

« لماذا يتعبون أنفسهم الى هذا الحد، ويخترعون الطائرات التي تحلق بهم في الجو، ما دام في وسع الانسان ان يكتفي بالمشي بأقدامه على الأرض ! ».

هذا ما قاله لي أحد البادية عندما كنا نتابع تحليق الطائرات الايطالية يوم وصولي أمس الى بنغازي بعد انتهائي من اختراق تلك الصحاري الواسعة.

كان يوم أمس هو « عيد الفصح »، عندنا في فرنسا، وقد قضيت جزءاً منه في التطلّع بإعجاب لم يمكني إخفاءه الى تلك الطائرات التي أعتبرها أروع ما ابتكرته الحضارة الغربية حتى الآن. أما الليبيون فقد كانوا ينظرون اليها ويرقبونها في هدوء ولا مبالاة ساخرين، وليس لهم من تعليق إلا هذه الكلمة الهازئة :

– « الطيرْ !.. الطيرْ !.. الطيرْ ! »[1].

وذلك دون ان يعلو وجوههم أي تعبير بالدهشة والاستغراب، ثم يسارعون فيطلقون في اتجاهها عياراتهم النارية ساخرين.

ومن حيث أني أوروبي فإنه ليس لي إلا ان اعتبر الايطاليين إخوة لي، ولكن بالرغم من ذلك فلا يسعني إلا ان أُقرّ هؤلاء الليبيين في استخفافهم بطائرات الايطاليين الذين عجزوا عن مجابهتهم والالتحام معهم وجهاً لوجه. فليست هذه الطائرات في نظر أولئك إلا « أبالسة ملاعين » – كما يحلو لهم ان ينعتوها.

حدثوني ان الملازم طيار (فرنشيسكو روبيرتي دي كاستيلڤيرو) قد قام

---

(١) بالعربية في النص الفرنسي، و « الطير » باللهجة الليبية يعني الطائرة كما هو بيّن.

المترجم

منذ بضعة أيام بإسقاط بطاقات من طائرته التي كانت تحلــق فوق معسكر المجاهدين . وكانت تلك البطاقات تحمل اسمه ومذيَّلة بالعبارة التهكمية التالية :

« الى قائد سلاح المدفعية : أهنئكم على دقة تصويبكم لمدافعكم نحو طائرتي ! » .

ولكن سخرية القدر أبت إلا ان تصيب طلقات مدافع المجاهدين طائرته في تلك اللحظة التي كان ينثر فيها بطاقاته ، فهوى بها فوق التحصينات الايطالية في مزرعة (عبد الغني) بالقرب من خنادق الايطاليين في منطقة (الفوْيهات) .

وقد أثارت جسارة ذلك الطيار الذي تطاول فوجّه اليهم مراسلاته على ذلك النحو ، ثائرة الليبيين . فقاموا بدورهم بالرد عليها بمراسلات من نوع آخر . فبما أنهم لا يملكون طائرات يحلقون بها فوق المواقع الايطالية في بنغازي، فإنهم قد أوعزوا الى بعض سكان المدينة بأن يلصقوا على الجدران ليلاً إجابات المجاهدين على مراسلات الطيارين الايطاليين الاستفزازية . وكان نص أحد تلك الملصقات الحائطية كما يلي :

« أيها الجنود الايطاليون !.. إعلموا ان هنالك ربّاً عادلاً لا بد وأن يقتصّ من كل عمل غير مشروع . فيا أيها الخلق الضعفاء ! ان لنــا ثقة بالله ما دمنا ندافع عن حقنا وما دمنا لا نهاجمكم في عقر داركم كما فعلتم بنا . ان حربنا معكم ستستمر سنيناً طويلة ، وعدد مجاهدينا يزداد كل يوم في معسكراتنا وقــد أغضبتهم فعلة إيطاليا الشنعاء ضد وطننا الغالي . إنهم صامدون في مواجهتكم ، هؤلاء العرب الفقراء المسالمون الذين لا يطلبون من الله سوى ان يصونــ لهم أرضهم وحقوقهم .

لقد شاهدتموهم وهم يهاجمونكم داخل تحصيناتكم المنيعة : انهم شبــه عراة ويفتقرون الى أسباب النعمة التي هُيئت لكم ، ومع ذلك فإنهم لا يكلـّون ولا يتعبون . وهم قادرون على تحمل الجوع والعطش طويلاً ، فيصومون يومين او

ثلاثة لا يتذوقون قوتاً .. ولكنهم قنّاصة ممتازون يحسنون إصابة أهدافهم ، فلا تضِل رصاصاتهم طريقها الى صدوركم .

إن هؤلاء المجاهدين الذين يكيلون لكم الصاع صاعين هم أحفـــاد أولئك العرب الذين هزم خمسة وثلاثون ألفاً من جنودهم المؤمنين مائتي ألف من جند الروم المدرّعين في معركة (اليرموك) الشهيرة[١] .

فلا تنسوا ان هؤلاء الفقراء الذين يجاهدون فيكم لا يربطهم بنعيم الدنيـــا وراحتها رابط ، ولذا فإنهم يرون في هذه الحرب فرصة سانحـــة للخلاص من حياتهم الدنيوية القاسية المرّة بالاستشهاد والموت موتة مجيدة ستفضي بهم الى سعادة أبدية » .

ولقد شعرتُ بالفخر لأن قسماً من هذه المراسلات الاستفزازية المتبادلة بين الطرفين المتحاربين كانت تكتب باللغة الفرنسية . أمـــا البلاغات والكتيبات الدعائية فقد كان الايطاليون يصوغونها بطبيعة الحال باللغة العربية . ولكنها عربية ركيكة للغاية ، كما أخبرني من قرأوها في أصلها ، إذ ان ما أوردته من أمثلة عنها في الصفحات السابقة قد تُرجم لي شفوياً من العربيـــة الى الفرنسية . أما البطاقات التي كان الطيارون الايطاليون يرمونها من الجو على تجمعـــات الضباط الأتراك فقد حُررت باللغة الفرنسية ، وبالمثل فإن ردود هؤلاء عليهـــا قد حررت هي الأخرى بالفرنسية أيضاً .

وكان الليبيون في بعض ردودهم وبلاغاتهم يلفتون نظر الايطاليين في غضب الى أنه لا يصح ولا يُغتفر لهم ان يضعوا في أعلى صفحات منشوراتهم الدعائية ختم رمزهم الايطالي المكوّن من صليب « الساڤوا » وأسلحة الملك فوق عبارة

---

(١) وقعت معركة اليرموك ، كما هو معروف ، سنة ٦٣٦ ميلادية بـــين جيوش العرب المسلمين والروم البيزنطيين ، عند نهر اليرموك وهو أحد روافد نهر الاردن ، ويصب في جنوبي بحيرة الحولة . وهي المعركة التي انتصر فيها العرب . المترجم

« بسم الله الرحمن الرحيم » – التي يقحمونها في المنشورات للتمويه – لأن هذا معناه أنهم يبوّؤون ملكهم مكانة أعلى من نفسه .

ورغم التزامي التام بالحياد تجاه الطرفين ، فقد كدت مرة ان أنجرّ بالرغم مني الى الإسهام في هذه الحرب الدامية . فقد حدث أن كنت جالساً الى جانب قائد القوات العثمانية في المعسكر (عزيز المصري بك) ، عند قمة ثنية ذلك السهل الرحب المطلّ على مدينة بنغازي التي كنا نلمحها أمامنا شبيهة بوشاح أبيض مُلقى على شاطىء البحر . وفي تلك الأثناء حضر الى مجلسنا عدد من مشايخ قبيلة (الدرسة) ، حيث أوقفوا جيادهم على بضعة أمتار منّا وألقوا علينا التحية ثم جلسوا معنا . ثم أخذ زعيمهم الشيخ (عمر بو رقعة) ، الذي استشهد ابنه الوحيد في معركة (الفويهات) ، يتحدث الى (عزيز المصري) قائلاً :

– « قل لهذا الأوربي الذي حلّ علينا أننا سعداء بقدمه . وليعلم ، وليقل لأهل أوربا ، أننا لا نخشى الطليان ولا نرهب تحصيناتهم ومدافعهم . وليذهب بنفسه الى خنادقهم ليرى آثار هجماتنا عليها وجثث خيولنا المرمية داخلها . واطلب منه ان يحرر رسالة الى الجنرال الايطالي ويتحداه ان يطلع علينا من بنغازي . وبما ان صاحبنا الفرنسي هذا نصراني من أبناء ملته ، فمن المرّجح ان يقبل الجنرال طلبه ويقابلنا بجنوده صداراً . وعندئذ سيُثبت أحد الفريقين أنه أشجع من الآخر وأشد مراساً منه ، مجاهدونا أم عساكره ، ان كانوا قادرين على مجابهتنا . أما ان رفض الجنرال هذا التحدي فعندئذ ستدرك الدنيا كلها مدى خشية الطليان لنا » .

ثم أضاف :

« واطلب منه كذلك ان يحرر خطابات الى قناصل فرنسا

وبريطانيا[1] في بنغازي وان يلحّ عليهم بمغادرتها قبل نشوب المعركة . لأننا في حالة تغلبنا على الطليان سنستولي على المدينة ، ونخشى ان يصيبهم في أثناء ذلك أذانا خطـأً ، فإننا لا نريد ان يُمسُّوا بسوء » .

لقد كان بودّي ان أسهم في هذا التحدي ، ثم أرقب المعركة بـين الطرفين وأسجل لقرائي تفاصيلها بكل أمانة وحياد . غير ان مشايخ البادية هنـــا لا يعلمون أنني لا أملك كل هذه الحظوة او هذا التأثير لدى الجنرال (بريكولا) الذي لا أعرفه ولا يعرفني . وهكذا فإنني قد رفضت ان أحرر رسالة التحدي هذه التي من شأنها ألا تجدي نفعاً ، بل وقد تبدو في أعين الايطاليين نوعاً من السفاهة من جانبي .

والحقيقة ان الايطاليين لم يعودوا يغادرون تحصيناتهم إلا نادراً ، بل يمكنني ان أجزم حتى بأنهم لم يعودوا يغادرونها البتة . وكل مـا صاروا يفعلونه الآن هو تصيُّد أي تحرك مريب من جانب المجاهدين حيث يكتفون في مثل هـذه الحالات بإرسال طائراتهم الاستكشافية لاستطلاع جلية الأمر .

ولقد فرغ صبر المجاهدين هنا انتظاراً لطلعتهم التي لا تأتي . فمنذ أن بدأت الحرب قبل سبعة أشهر خلت ، لم يقم الإيطاليون بأي جهد جدّي للتوغل داخل البلاد ، وذلك رغم أن جميع الظروف كانت لصالحهم في البداية : إذ أنه لم تكن لدى الليبيين والأتراك أي قوة منظمة ولم تكن لهم قيادة فعلية يُعتمدُ بها ، وكان الفصل السنوي مواتيا من حيث الطقس . زد على ذلك أن الإيطاليين أكثر عدداً وعدّة ويتمركزون في أفضل المواقع استراتيجياً . ولقد أشيع أنه تنقصهم الإبل ، ولكن لا حاجة لهم في رأيي إلى الاستعانة بركوب الجمال ، إذ ان المجاهدين رابضون في مواجهتهم مباشرة على بعد بضعة كيلومترات فقط من

(١) هما : المسيو Lecotour ، والمستر Frances Jones ، كما هو ثابت في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بمكتبة وثائقها الرسمية التي يُسمح للباحث ان يطلع عليها شريطة ان يكون قد مضى عليها أكثر من خمسين سنة ، حيث تُرفع عنها صبغة السريّة . المترجم

بنغازي . ولقد كان بإمكان الايطاليين في البداية أن يؤثروا – ولو نفسياً – في نفوس المجاهدين،بما لديهم من الطائرات والأضواء الكاشفة التي لم يشهدها معظم الليبيين من قبل ، وكان من الممكن ان تصدمهم وتدخل الرعب في قلوبهم . أما الآن فقد تعوّد هؤلاء على مشاهدتها كل يوم ، فصار تأثيرهـا في النفوس عكسياً تماما ، إذ انها دلالة لديهم على أن عدوهم، رغم ما يملكه من هذه الوسائل الحربية الحديثة ، ما يزال متردداً في مهاجمتهم والخروج إليهم للالتحام بهم وجهاً لوجه ، وهذا دليل على رهبته منهم .

وقال لي المقدّم (عزيز المصري بك) مندهشاً :

« إنني لا أفهم السبب في اننا كلما هاجمنـــا الايطاليين أو التحمنا معهم في معركة او اشتبكنا معهم في مناوشة ، فإنهم يبادرون إلى الانسحاب بسرعة مدهشة . هذا بالرغم من اننا أقل منهم عدداً واستعداداً. ولم أُعجب إلا في مرات نادرة ببعض ضباطهم الذين كانوا يتقدمونهم في المعارك فوق جيادهم يستحثون جنودهم مطلقين رصــاص بنادقهم علينا ، غير أن الجنود الايطاليين أنفسهم كانوا يفتقرون إلى قدرات هجومية أو تمسُّك مُستبسل بالمواقع . فلست أدري ، هل هذا هو تكتيككم الحربي ، أم أن الأمر راجع إلى عدم ثقتهم في قيادتهم العليا؛ والإفما هو سر تقهقر العدو وتراجعه إلى تحصيناته بمجرد أن نلتحم معه في معركة من المعارك ؟ » .

تقوم اليوم قرب بنغازي مدينة أخرى كبيرة قوامها الخيام الرابضة على بعد إثني عشر كيلومتر منها . ومن الصعب تقدير عدد سكان هذه المدينة المبنية من الخيام ، إلا أنه بإمكاني التأكيد بأنهم لا يقلون بأية حال من الأحوال عن الثمانين ألف نسمة،بل وربما أكثر من ذلك.وهو عدد يزداد كل يوم وقد حطّ بها المجاهدون بعائلاتهم . فخيامهم تعجّ أيضاً بالشيوخ الطاعنين في السن وبالنساء والأطفال ، الذين غالباً ما يتبعون المجاهدين في معاركهم لإثارة حميتهم وتشجيعهم ولإسعاف جرحاهم ونقل شهدائهم .

ولقد انتظمت الحياة في هذا المعسكر بشكل طبيعي ؛ فالقوافل تصل إليه كل يوم مشحونة بالمؤن والعتاد . ويرى المرء ، على أنغام الموسيقى العسكرية التركية ، تلك القبائل التي كانت الحزازات في الماضي تفرّق بينها وقد اصطلحت الآن وتآخت أمام العدو المشترك . ويشهد انضمام المجاهدين الجدد إلى رفاقهم الذين سبقوهم ، وينخرطون في صفوفهم المحاربة . كما يشهد المراقب أيضاً حفلات الزواج والأعراس التي تتم في جو تقليدي كالعادة في أيام السلم ، وكذلك الاحتفالات والمواسم والأعياد الدينية ما تزال مراسمها تقام كما لو أن شيئاً لم يحدث ، فلقد تعود الليبيون على هذه الحرب .

فهل يأمل الايطاليون — كما يبدو عليهم فعلاً — أن تنحلّ عرى هذه القوة المعتصمة بجبل الجهاد ثم تنفصم وتتفتت بنفسها ؟ وهل يظنون أن هؤلاء الليبيين الذين اعتقد الايطاليون أنهم قوم متقلبون لا يتحلـّون بالصبر والصمود ، سيملـّون من طول الانتظار أمام تحصينات عدوهم ، فتثبط عزائمهم ويقررون العودة قريباً الى فلاحة أرضهم وزراعة حقولهم أو تحلّ الفرقة والشقاق بين صفوفهم المتراصة عن طريق استدراج بعضهم بالنقود والوعود المعسولة ؟

لست أعتقد أن شيئاً من ذلك سيحدث .

ولقد بذلت إيطاليا هنا جهوداً كبيرة لاستمالة بعض عناصر قبيلة (العواقير) التي تعتبر من أكبر وأغنى قبائل برقة . ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح ، لأن مجاهدي وفرسان هذه القبيلة العربية كانوا قد وضعوا أنفسهم منذ بداية الغزو جنداً للدفاع عن ديارهم ، وهم الآن ينضوون تحت لواء (عزيز المصري بك) الذي أصدر أوامره يوم ١٨ يناير إلى هؤلاء (العواقير) بمهاجمة القوات الايطالية ، حيث خرجوا عليهم في ذلك اليوم والتحموا معهم في قتال عنيف في معركة (الزريريعية) الشهيرة التي استشهد فيها عدد من مجاهدي هذه

القبيلة ، وقُتل فيها الكثير من الايطاليين[1] .

وقد جاء في تقارير المخابرات العثمانية هنا أن الايطاليين وقد مُنوا بالفشل في محاولتهم استمالة قبيلة العواقير فإنهم اتجهوا بأنظارهم إلى البدو القاطنين عند خليج (سرت) وحول مدينة (اجدابية) . كما أنهم قد فعلوا المستحيل لإغراء شيوخ « الزوايا » حيث حاولوا أن يمنُّوهم بالوعود أو يمنحوهم الهدايا كي يقفوا إلى جانبهم ، نظراً لمركزهم الديني وشدة تأثيرهم في الناس . غير أن محاولاتهم هناك أيضاً ذهبت أدراج الرياح ، إذ رفض كل اولئك القوم بشمم أن يكونوا عملاء للأعداء .

وفي رأيي أن الايطاليين يبذلون وعودهم الكاذبة ويبذرون أموالهم لهذه الفئة أو تلك من الليبيين في غير طائل ويضيعون وقتهم فيما لا يجدي .

وما زال الليبيون يتندرون من غباء الايطاليين ومحاولاتهم الفاشلة لاستمالتهم . وإليكم هذه النكتة التي وقعت وقائعها فعلاً ، للتدليل على موقف الليبيين من تلك المحاولات : فلقد قام فرع « مصرف روما »[2] في بنغازي ، قبل إقدام إيطاليا

---

(١) تقع (الزريريعية) شرقي مدينة بنغازي قبل منطقة (اللثامة) . انظر خريطة الموقف العسكري حول بنغازي الملحقة هنا . أما قبيلة (العواقير) فهي إحدى كبريات قبائل (السعادي) الذين ينقسمون بدورهم إلى (جبارنه) و(حرابي) : فمجموعة قبائل (الجبارنه) تضم: العواقير والبراغيث والعريبات والمغاربه والجابره ، أما مجموعة قبائل (الحرابي) فتضم العبيدات والبراعصه والحاسه والدرسه وفايد .

المترجم

(٢) دور « مصروف روما » معروف في التهيئة للإحتلال الإيطالي، فقد بذل ذلك المصرف مساعي كبيرة لدى الدولة العثمانية حتى تحصل منها على موافقة تأذن بالقيام بالمضاربات التجارية وتوزيع السلفيات على الليبيين ، وأخذ يشتري الأراضي والاملاك في طرابلس وبنغازي ودرنه والخمس . وقد أعانه في ذلك أعضاء الجالية الايطالية الذين كانوا له وسطاء ووكلاء وسماسرة يشترون الاراضي بأثمان بخسة من الليبيين الذين كان الفقر وسوء الاحوال الاقتصادية يضطرهم أحياناً إلى التعامل معه .

وقد تأسس « مصرف روما » في ليبيا سنة ١٩٠٥ . وقد ظل هذا المصرف وفروعه تعمل بليبيا حتى بعد الاستقلال. ولكنه أمم مؤخراً وصار مصرفاً ليبياً خالصاً يسمى «مصرف الامة»، فتخلصت بلادنا من آثار ذلك الاخطبوط الاقتصادي الذي امتد إليها منذ مطلع هذا القرن .

المترجم

على الغزو ، بمنح البادية هنا قطعانا من الأغنام ، مشترطين عليهم فقط أن يقتسم المصرف المذكور مع كل فلاح منتوج الأغنام التي سلمت إليه . وعندما انتهت المهلة المتفق عليها ، قدم البدو إلى مدينة بنغازي جماعات جماعات ، حاملين معهم أكواماً من آذان الأغنام المقطوعة ، وقدموها لمصرف روما قائلين .

— « لقد قضى وباء الطاعون على كل الأغنام التي منحتمونا إياها ، وها هي آذانها تشهد على صدق ما نقول !! » .

وواقع الأمر ان الأغنام لم يصبها أذى ولم يلحق بها الطاعون. وكل ما حدث لها أن آذانها قد قطعت بحسب هذه الخدعة التي أريد بها التهكم من « مصرف روما » ونواياه . فأسواق برقة غاصّة الآن بأعداد هائلة من تلك الأغنام . وسواء اقتنع المصرف الايطالي بصحة زعم هؤلاء البدو أم شك فيه ؛ فإن العدد الهائل من آذان الأغنام التي جيء بها إلى خزائنه تعتبر في التحليل الأخير دليلا قاطعاً على أنه قد أضاع أمواله هدراً !

واليوم وقد سدد أهل البادية دين المصرف على النحو المذكور ، واحتفظوا بقطعان الأغنام،فإن أحوالهم قد تحسنت اقتصاديا، زد على ذلك أنهم قد صاروا منذ بداية الحرب يتلقون مساعدات مالية من الحكومة التركية ، إلى جانب أنهم يغنمون كل يوم غنائم حرب أخرى من الايطاليين . كما أن الأمطار قد هطلت هذه السنة بكثرة ، مما يبشّر بأن محاصيل زرعهم ستكون طيبة ، وبأن آبارهم لن تفتقر إلى المياه طيلة أشهر الصيف المقبلة . وفوق هذا وذاك ، فإن الجهاد وحمل السلاح ضد أعدائهم هو من الأمور التي يعشقها البدو بطبيعتهم كثيراً . وهكذا فإن بادية برقة سعداء للغاية لتوافر هذه الظروف السعيدة عليهم في آن واحد ويعتبرونها بشرى لهم بأنهم سينتصرون على أعدائهم .

وفي رأيي أن الايطاليين ، لو كانت لديهم الشجاعة الكافية في بداية هذه الحرب على الأقل ، فلربما قدّر لهم أن يصبحوا أسياد هذه البلاد خلال أسابيع معدودة من بدء الغزو .

ولكن الآن وقد تنظمت قوة الليبيين ووثقوا بأنفسهم ، فإنه قد أصبح من المستحيل على الايطاليين أن يحققوا أحلامهم باستعمار ليبيا ؛ اللهم إلا اذا حشدوا لذلك قوة هائلة توازي أضعاف ما لديهم الآن ، فالقوة لا تكسرها الا القوة .

ولست أعتقد أنني مخطىء فيما أذهب اليه هنا ، اذ أنني قد لمست بنفسي أن هنالك اجماعاً في الرأي وفي العمل لدى هؤلاء المجاهدين ، بحيث لا أتصور أن يقبلوا أية تنازلات . كما أن روحهم المعنوية هي من القوة والصمود بحيث أنه ، حتى ولو تخاذلت الحكومة العثمانية في نهاية المطاف ورضيت بتوقيع معاهدة سلام مع ايطاليا ، فإن الليبيين أنفسهم لن يقبلوا شروطها ، ما لم تكن تضمن الاستقلال الكامل لجميع أراضيهم .

وعلى أية حال فإنني أعتقد أن كلاً من الليبيين والأتراك العثمانيين المقيمين في ليبيا لن يقبلوا التصديق على مثل تلك المعاهدة في حالة الوصول إليها . وعلى الإيطاليين أن يفهموا منذ الآن أن الحرب لن يُنتصر فيها على موائد الدبلوماسيين بين ايطاليين وعثمانيين ، وإنما هي تُحسم نصراً أو هزيمة هنا على أرض ليبيا وبقوة السلاح لا بمدى الحنكة الدبلوماسية عبر مفاوضات تجري خارج البلاد[1] .

---

(١) كأني بالمؤلف يتنبأ هنا باستسلام تركيا الوشيك الوقوع ، وتصديقها مع ايطاليا على معاهدة « أوشي » – وهي إحدى ضواحي مدينة « لوزان » السويسرية – في الثامن عشر من أكتوبر سنة ١٩١٢ ، حيث تخلت عن حقوقها ومطالبها في ليبيا ، وتركت الشعب الليبي الاعزل وحيداً أمام عدوه الغاشم الذي لم يلبث أن نكّل به ووضعه في المعتقلات وأباد جانباً منه . والغريب أن تلك المعاهدة لم تتضمن من مطالب العثمانيين سوى أن تكون للسلطان العثماني السلطة الدينية في ليبيا . وقد جاء في البند العاشر منها أن الحكومة الإيطالية تلتزم بأن تسدد لخزينة الدولة العثمانية مبلغاً لا يقل عن مليونين من الليرات الإيطالية تعويضاً للأتراك عن مستحقاتهم من ضرائبهم التي فرضوها على الشعب الليبي وأرهقوه بها ، والتي لم يتمكن جباتهم من جمعها منذ بداية إعلان الحرب بين تركيا وايطاليا . هذا هو الثمن الذي باعت به تركيا بلادنا !! وقد وقّع المعاهدة عن الجانب العثماني : (محمد نبي بك) و (رومبيوغلو فخر الدين بك) . =

ولكن ، أليس مما يسرُّ الخاطر أن يرى المرء شعباً مثل هذا الشعب الفقير الذي رفض بشمم أن يتخاذل أو يفرط في وطنه ، ولم يقبل أن يقبض في ذلك ثمناً من الذهب أو الفضة، كما حاولت ايطاليا أن توزعها على أبنائه يُمنة ويُسرة. ولم تـُجدِ معه كذلك الوعود الدبلوماسية الخادعة التي أراد الإيطاليون أن يغروه بها ؟ إن هذا الإباء، وهذا الإخلاص للوطن لهو من الأمثلة العظيمة التي يضربها شعب ليبيا الفقير للعالم أجمع : فما دام ما يزال فوق الأرض أناس لا يسيل للذهب لعابهم ولا تخدعهم الوعود الكاذبة ، فإن الدنيا في رأيي ما تزال بخير. فلم يعد إذن أمام إيطاليا إلا استعمال القوة الغاشمة ، فهي وحدها التي قد تؤدي الى قهر هؤلاء القوم النبلاء .

فهيهات أن يرضى الإنسان النبيل بالخسة التي تدفعه الى قبض ثمن التخلي عن أرضه ذهباً وفضة ، وهيهات أن تستهويه الوعود الكاذبة في غد موعود . فهـذا شعب جُبل بطبيعته على الذود عن حياضه ، وإذن فهو لا يقبل بالحرب بديلاً ، فإما أن ينتصر وإما أن يفنى . ويخيّل إليّ أن الحرب هي من ضرورات هذه الحياة الدنيا ، فإنه إن اختفت الحروب فإن قيمة الإنسان ستنحط – في رأيي إلى الحضيض، ولسوف يفقد معها شيمه وخصاله النبيلة. وصدق (دي ملتك)[1] حين قال : « الحرب هي إحدى نِعم الله » . حقاً ! إن الحرب هي محك أصالة الأفراد والشعوب على السواء !

إنني أبذل في الحقيقة جهداً مخلصاً كي أنظر الى هذه الحرب وأحداثهـا من خلال وجهة نظر محايدة . ولربما يعتقد البعض أنني – وقد أمضيت أربعة أشهر

= ووقّعه عن الجانب الإيطالي: كل من (بييترو بيرتوليني) نائب « بالرمو » في البرلمان الإيطالي، و (قويدو فرزيناتو) عضو البرلمان الإيطالي ومستشار الحكومة الإيطالية ، و (جوزيبّي فولبي). المترجم

(١) هو الكونت (هيلموث فون ملتك) ، مارشال بروسي (ولد سنة ١٨٠٠ ومـات سنة ١٨٩١) . وقد كان رئيساً لاركان حرب الجيش البروسي حيث قاده سنة ١٨٦٦ أثنـاء حرب بلاده ضد الدنمارك ، وقاده في سنة ١٨٧٠ أثناء حرب ألمانيا ضد فرنسا . المترجم

بين بادية ليبيا ومجاهديها – قد أثَّر هذا الوسط الاجتماعي فيَّ بحيث أصبحت أتحدث عنهم كما لو كنت أحد المتحمسين لقضيتهم أو واحداً منهم . وأعتقد أن الأمر ليس كذلك . فإنني باعتباري نصرانياً فإنني سأظـــل على الدوام شخصاً غريباً عن هؤلاء الليبيين المسلمين ؛ ولست أعتقد أن حفاوة الضباط الأتراك بي ولطفهم نحوي ، أو أن الإعجاب الشديد الذي أكنـّه لليبيين أنفسهم – لمـــا يتمتعون به من شجاعة واستبسال في الدفاع عن وطنهم – سيقللان من تعاطفي مع الإيطاليين الذين يربطني بهم رابط العرق الأوربي ، أو يجعلانني أتنـــاسى ذكريات تلك الرحلات التي قمت بها الى بلادهم ، أو دراستي للفن التي تابعتها في إحدى أكاديميات الفنون الجميلة الإيطالية فترة من الوقت ثم انقطعت عنها وما زلت أتوق للعودة الى إيطاليا لاستكمالها ، أو أنسى تلك الصداقات التي تربطني بكثير من الإيطاليين . إن الذي أخشاه هو أن يسيء أصدقـــائي في ايطاليا فهم موقفي الحيادي فيما أقوله عن الإيطاليين في مقالاتي هذه عند نشرها أولاً بأول في مجلتي . غير أن هذه الملاحظات مهما بدت قاسية عليهم ، فإنهـــا صادرة عن التزامي بالتجرد والحياد ووصف ما أراه دون تحريف ، فالمراقب المحايد لا يتحتم أن يلومه في قوله الحق لائم .

كشف الليبيون ليلة الرابع عشر من أبريل أمر اثنين من الجواسيس العاملين في خدمة الاستخبارات الإيطالية . وكانا قد كـُلفا بالإندساس بـــين القبائل ومحاولة تقديم الهدايا لمشايخها وإقناعهم بالاستمالة لإيطاليا . غير أن البدو مـا أن بدأ هذان العميلان في الاتصال بهم حتى أسرعوا بتبليغ السلطات العثمانية المعنية عنهم . وهكذا فقد أسرع الملازم (رمزي بَيْ) إلى المكان الذي أُخبر أنهما يتواجدان فيه ، حيث قيل له انهما كانا نائمـــين في تلك اللحظة في إحدى الخيام مندسين بين جماعة من البدو . فاتجه الى هنـــاك ودخل الخيمة في ظلمة الليل ، وهم نيام ، حيث أطفأ مصباحه وصاح فجأة قائلاً بأعلى صوته :

– « إنهما هنا ! » .

ثم أخذ يكشف الألحفة عن وجوه الجماعة النائمة داخل الخيمة ، واحـــداً واحداً ، يتفحصهم بمصباحه ، وهو مسترسل في صباحه :

— « ها هم !.. ها هم ! » .

وفوجىء الجاسوسان وتلعثما ، ثم ما لبثا ان وشى كلاهما بصاحبه في الحال . وقد اعترف أولهما بأنه قد قام بقطع الأسلاك التلغرافية وتخريبها بين (بنغازي) و (اجدابية) . وبعد ان ضُربوا بالعصي ضرباً مبرحاً ، اعترف هذا الشخص بأنه قد قبض ثمن خيانته ثلاثة قطع « نابليون » ذهبية من العملة الفرنسية . أما الآخر فقد حاول ان ينفي بعد ذلك التهم الموجهة اليه رغم كل الدلائـــل التي تشير الى تجسسه .

وقد تقرر ان يتم إعدامهما ومعهم جاسوس ثالث متعاون معهم ، وسبق له وان ُقبض عليه متلبساً بجريمة الجوسسة ، غير ان المقدّم (عزيز المصري بك) — قائد المعسكر — كان قد عفى عنه ، وها هو يواصل خيـانته من جديد . فهو ينتظر الآن جزاءه وهو الشنق حتى الموت .

والجدير بالذكر ان الجاسوسين الآخرين لا ينتميان الى أية قبيلة من القبائل . ويطلق على الشخص الذي لا قبيلة له هنا تسمية « الغواري »[1] .

ونظراً لما لآمر الجيش المقدم (عزيز المصري بك) من نفوذ وتأثير هنـا ، فإنه يقوم بفضّ الخصومات وأسباب الشقاق التي قد تقوم من حين لآخر بين بعض القبائل . فهو يمثل هنا سلطة التنظيم ووحدة الرأي والقيادة . ومن المؤكد ان أهل البلد كانوا سيقاومون الغزو الايطالي حتى بدونه ، وان كانوا ربما قــد فعلوا ذلك بدون خطة محددة ومنهج حربي مدروس . فهم قادرون فقـط على

---

(١) هكذا وردت هذه الكلمة بالعربية في النص الفرنسي ، ولم أسمع بها في لهجة بدو برقة من قبل . وهي اشتقاق عربي قطعاً من الغور . ولعلها تعني هنا « الاستجارة » أي الركون والتبعية لقبيلة من القبائل ما دام « الغواري » لا قبيلة له . ويقال في العربية الفصحى : لهم الله وغارهم ، أي أعانهم برزق وخير . المترجم

خوض حروب العصابات . فدور (عزيز المصري) هنا هام ومعقد للغـــاية ويتطلب منه التحلـّي بصبر كبير والتمتع بنفوذ عسكري وليونة ودبلوماسية ، زيادة على تفهم كامل لطبائع البادية .

فوجوده وسط هؤلاء القوم هو وحده الكفيل بضمان استتباب النظـــام والألفة فيما بينهم . وقد شاهدتهم يقصدون خيمته بالمئـــات ، كل منهم لديه مشكلة يبحث لها عن حل . فمنهم من جاء يتظلـّم ، ومنهم من جـاء يطلب سلاحاً او نقوداً .. هذا يأتي للاستفسار عن سير المعارك ، وذاك يـأتي ليدلي برأيه فيما يتوجـّب فعله او يقترح القيام بهجوم مفاجىء ، وينسب الى نفسه خطة جهنمية لتنفيذ ذلك الهجوم . ولقد علـّق (عزيز المصري) على كل هذا قائلاً :

— « إنني أقوم حتى بعقـد القران ، او أصالح بين أطراف متخاصمة ، او أتلقى تبرُكات ودعوات المرابطين والأولياء . وينهال على يديّ من القـُبل كل يوم أكثر مما تتلقاه أقدام تمثال « القديس بطرس » من أفواه الحجيج المسيحيين كل يوم في كاتدرائية « الفاتيكان » من لثمات وقبل تبجيلية » .

ولقد كنت أرقب هذا القائد العثماني — المصري وسط تلك الجموع المحيطة به من أصحاب التظلمات او الاستفسارات والشكاوى ، بينما هو غارق مستغرق في الرد على كل واحد منهم ، محاولاً إرضاء الجميع وتنفيذ مطالبهم .

وأعجبت — سواء في طرابلس الغرب أم في برقة — بما يتمتع بـه الضباط العثمانيون من موهبة في إرضاء الليبيين . ففي بنغازي يقوم (عزيز المصري) بهذه المهمة على خير وجه دون ملل او كلل .

وعزيز المصري بك هو من مواليد مصر ، وقد أسهم في جميـع الحروب التي خاضتها تركيا مؤخراً ، فأتاحت له الظروف المعقدة الخطرة التي عاشها خلال خدمته العسكرية ، التعرف على طبائع البشر والقدرة على سوسهم . ويبدو لي أنه يحب هؤلاء البدو الليبيين ويشعر أنه واحد منهم . وهو يقول لي كلما رجع من عمله في أخريات النهار متعباً :



بنغازي : فرسان المجاهدين يهجمون



المقدم عزيز المصري بك قائد القوات العثمانية عند
بنغازي ، يحيط به بعض أعيان المدينة

– « لقد طلعت روحي من هؤلاء البدو ومشاكلهم ! » .

ولكنني أحس أنه لا يعني ذلك في قرارة نفسه فعلاً ، إذ أنني ان حدث وانتقدتهم في حضرته ، فإنه يغضب من ذلك أشد الغضب ، ويلومني قائلاً :

– « اذا كنتَ قد أتيتَ من بلدك البعيد لكي تتهم هؤلاء الناس بما يخالف حقيقتهم ، فما الذي جرّك أصلاً الى القدوم الى بلادهم ! » .

فعزيز المصري يتقبل حتى نقائصهم ويبحث لها عن الأعذار ، شأنه في ذلك شأن كل من لا يقبل تجريحاً فيمن يحبهم .

والحقيقة أنه لمن المدهش ان يتمكن قائد مثله ان يسوس هؤلاء القوم ويقودهم . إذ لا قيمة للحياة لدى هؤلاء البدو الليبيين ، وطبيعتهم تنطوي على إحساس تشاؤمي عميق . ولذا فان لذتهم تتركز كلها في حب ممارسة الحرب وحمل السلاح وركوب الخيل . وأقصى ما يتمناه الواحد منهم هو ان يستشهد في إحدى المعارك . وقد قال لي (عزيز المصري بك) في هذا الصدد :

– « لقد سبق لي ان حاربت ضد البلغاريين وضد الألبان وضد عرب اليمن الذين يعتبرون من أشجع الناس ، حيث استُدعيت لقيادة حملات بها جنود من خيرة جند الأتراك وأشجعهم لحربهم . ولكنني – وقد عرفت بادية برقة – فدعني أقول لك : إنني أعتبرهم أشجع من الألبانيين ومن البلغاريين ومن الأتراك ومن عرب اليمن طرّاً . ونقطة الضعف الوحيدة التي لمستها لدى بدو برقة تتمثل في افتقارهم الى الحسّ التكتيكي عند خوض المعارك . فهم يريدون دائماً إمساك الثور من قرونه – كما يقول المثل – فلا يتمكنون من لوْي رأسه . أنت تريد ان أروي لك أمثلة على شجاعتهم !.. لكنني إن فعلت، فإن الحديث عن شجاعتهم سيطول . فكل واحد من هؤلاء البدو الذين أسهموا في خوض المعارك ضد الإيطاليين له قصته البطولية وله ملحمته الخاصة به . فهم ، إن حاصرهم العدو او وقعوا في إحدى كائنه ، لا يقبلون التسليم أبداً . وان



الموقف العسكري حول بنغازي في أبريل ١٩١٢

▼: التحصينات الإيطالية. ⬠: معسكرات ومواقع المجاهدين

حـدث واستُنفذت ذخيرتهم ، فإنهم يستمرون في القتـال بأيديهم بـل وبأسنانهم . ولذا فإنني كقائد لهؤلاء البدو الشجعان ـ عندما أشهد ضراوتهم واستبسالهم في القتال ـ فإنني لا أملك إلا ان أطمع في احتلالنا لمدينة بنغازي من جديد وطرد الإيطاليين منهـا ، بالرغم من أننا لا نواجه عدونا إلا بالبنادق والسيوف ، فيما هو يتمركز خلف تحصيناته المنيعة وقلاعـه وبيده مدافعه ومتاريسه المرهبة » .

في معسكر بنغازي في ١٥ أبريل ١٩١٢

إننا نصحو كل صباح على دوي المدافع ، حيث نهرع خارجين من خيامنـا ونحن نتساءل عما إذا كانت اللحظة التي قرر فيهـا الإيطاليون الهجوم قد حانت ؟.. ولكن سرعان مـا ندرك أنهم لا يملكون بعدُ الشجاعة الكافية لشن الهجوم المرتقب ، وأن القذائف التي نسمع دويّها إنمـا هي صادرة عن بطارياتهم المختفية وراء تحصيناتهم ، وموجهة إلى بضع جماعات من البدو الذين ربما جازفوا بأنفسهم واقتربوا كثيراً من تلك التحصينات .

وذهبتُ لزيارة المواقع الأمامية للمجاهدين ، في صحبة آمر الجيش (عزيز المصري بك) وضباط قيادته ، حيث توجهنا الى قرية (الكويفية) التي يتمركز فيها الجناح الأيمن لجيوش الجاهدين في منطقة بنغازي . [انظر الخريطة] .

وقد شاهدت هنالك مراعيَ خصبة تمتد حتى شاطىء البحر تقريباً. وقد مررنا في طريقنا إلى (الكويفية) بضريح مرابط يسمّى (سيدي مفتاح) قـد أقيم فوق احدى الروابي . وما أن اقتربنا من (الكويفية) حتى أخذت الأرض تبدو مفروشة بالحصى ؛ وظهرت بدايات صرائم النخيل النامية بين مستنقعات السبخ وكثبان الرمال في محاذاة البحر . وكان الجاهدون في انتظارنا ؛ ورغم وعورة

الأرض المليئة بالحصى الذي يعوق ركض الخيول ، فقد أصروا على استقبالنا بمشوار سباق ترحيباً بنا .

وقد اشتهر مجاهدو (الكويفية) ببسالتهم في المعارك التي خاضوها حتى الآن مع الإيطاليين . فلقد استولوا من هؤلاء على كثير من غنائم الحرب ، وما زالوا يغنمون المزيد منها ؛ حيث يتسللون كل ليلة تحت جنح الظلام إلى داخل خنادق الإيطاليين عبر بساتين النخيل الواقعة بين (الكويفية) و (بنغازي) .

وقد دُعيت إلى سماع أهازيجهم البدوية ، حيث كانوا مصطفين حول أحد شعرائهم ، وهو يتغنى بـ « شتّاوة »[١] كلها تهكم واستخفاف بالجندي الإيطالي ، وكان مطلعها هو :

« جا الطلياني لابس كبّوطْ ..
وسوريّه ملسه وسروال بلّوطْ ..
في الجَيْب ساعهْ وفي حلاطهْ بُوطْ .. »[٢]

---

(١) « الشتّاوهْ » بلهجة بادية برقة هي : الأهزوجة . المترجم

(٢) قمت بترجمة هذه الاهزوجة من الفرنسية إلى اللهجة البدوية البرقاوية ، إذ أن ترجمتها إلى الفصحى كانت ستبدو متكلفة . وقد حاولت قدر مستطاعي أن أسبغ عليها طابع الشعر الشعبي الموزون، مع التزامي الكامل بمعاني كلماتها كما وردت في الفرنسية نثراً . وشرح مفرداتها من العامية الى الفصحى هو كما يلي : جا : أي جاء . الكبّوط : هو المعطف الشتوي . السّوريّهْ : هي القميص . البلّوط : هو المخمل أو القطيفة . سمحه : أي جميلة . الحلاط : هو حزام الجندي الذي ترصف به خراطيش ورصاص سلاحه . ملسه : أي ملساء . البُوط : هي حافظة النقود او المحفظة .

ومعنى هذه الابيات الشعبية الثلاثة إجمالاً هو : أن الجندي الإيطالي قد قدم نحونا مرتدياً معطفه الشتوي الثقيل وتحته قميصه الحريري الشفاف الاملس وسرواله الناعم المصنوع من نسيج المخمل ، وفي يده ساعة . أما حزامه الذي يفترض أن يكون به الرصاص فليس به إلا النقود . وكل هذا استخفاف به . المترجم

وكان رفاقه يرددون وراءه ، وقد كادت تدمى أكفهم من شدة طرقهـــا بعضها في تصفيق حثيث متهيّج :

« جا .. جا .. جا ! »

وقد استطاعت فئة قليلة من مجاهدي (الكويفية) يوم ٢٨ نوفمبر من العام الماضي ، أن ترغم القوات الإيطالية ، في أولى المرات التي خرجت فيهـــا من تحصيناتها ، على التقهقر والعودة إلى تلك التحصينات . فلقد توغل الإيطاليون شرقاً حتى منطقة (الصلعاني) ، قرب (الكويفية) بفيلق من المشاة ، وسرية من المصفحات الرشاشة ، وسرية بطاريات ، وكوكبة فرسان . وكان سكان (الكويفية) ينتظرونهم خلف أسيجـــة بساتينهم . فارتفع صوت التراشق بالرصاص بينهم حتى سمعته قبيلة (العمارنة) التي سرعان ما قدم حوالى ثلاثين من فرسانها وأخذوا يكيلون ضرباتهم القاصمة لأحد أجنحة الفيالق الإيطالية المتقدمة . واضطرت كوكبة الخيّالة الإيطالية الى الانسحاب جهة البحر ، لكي تمكّن بطاريات المدفعية الإيطالية الكامنة وراءهـا من أن توجه قذائفها نحو المجاهدين الذين كانوا على مرمى البصر منها . ولكن هؤلاء لم يفقدوا سوى ستة جياد سقطت صرعى في حين سقط فرسانها على الأرض دون أن يصيبهم أذى . ثم لم يلبث بقية الفرسان (العمارنة) أن هاجموا البطاريات الإيطالية واستولوا عليها ، ثم عاد الإيطاليون فاستردوها ثانية ولكنهم اضطـُروا إلى الانسحاب بها . ثم التحم الجيشان وأخذا يتقاتلان ونجهاً لوجه وجسداً ضد جسد ، وضيّق المجاهدون على الإيطـاليين وهاجموهم من المقدمـة ومن أحد الأجنحة ، فاضطر هؤلاء الى الانسحاب تاركين وراءهم كميات من البنادق وعدداً كبيراً من الخيول ، وقعت جميعها في أيدي المجاهدين .

وقـد ظلت بطاريات وقطع مدفعيتهم مهجورة بين مستنقعات السّبخ طيلة الليلة التي تلت نهار هزيمتهم في تلك الموقعة ، ولكن دون أن يفطن إليهـــا الليبيون الذين كانوا مشغولين باقتسام غنائم تلك المعركة من الأسلحة الأخرى

والخيول . وهكذا فإن الإيطاليين عادوا تحت جنح ظلام الليلة الثانية وسحبوا مدافعهم الى داخل التحصينات .

وقال لي (عزيز المصري بك) :

— « لقد أخبرني الليبيون أنهم قتلوا أثنـــاء تلك المعركة ضابط خيّالة إيطالي شاباً ، كان قد قاتل بشجاعة نادرة تثير الإعجاب . وقد أكبر الليبيون الذين خاضوا المعركة ذلك الضابط وأعجبوا ببسالته وجمال محيّاه ، فلم يمثّلوا بجثته ؛ بل إن إعجابهم برجولته — بالرغم من أنه عدوهم — قد دفع شيخ قبيلة (البراغثة) إلى تقبيله من جبينه وهو جثّة هامدة » .

وقد أكمل لي تفاصيل هذه الرواية أحد أطباء الهلال الأحمر من المصريين ، وهو الدكتور (حافظ عفيفي)[1] ، الذي أُحضرت إليه جثة الضابط الايطالي بعد انتهاء المعركة ، فروى لي هذا الطبيب المشهد التالي :

— « عندما وجد هذا الضابط الإيطالي نفسه فجأة ، أثناء المعركة ، وقـد أحاط به البدو المجاهدون من كل جانب ، خلع خوذته الحديدية من فوق رأسه ورفعها الى أعلى . ولسنا ندري إن كان يقصد بذلك تحيتهم وقد أدرك أن أية مقاومة من جانبه أصبحت غير ذات جدوى فأراد الاستسلام ، الله أعلم . المهم أن المجاهدين كانوا قد سيطرت عليهم عاطفة القتال فصوبوا بنادقهم ورؤوس سيوفهم إلى صدره قائلين : إستشهد[2] !.. أي قل : أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله . ولكنه لم يفهم ما قصدوا إليه ، فظل صامتاً لا ينطق بشيء ،

---

(١) هو (الدكتور حافظ عفيفي) — باشا فيما بعد — الذي لعب دوراً بارزاً في سياسة الحكومة المصرية قبيل قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وكان من بين المناصب التي تقلدها رئاسة الخاصة الملكية في عهد الملك فاروق الأول المطاح به . المترجم

(٢) وردت كلمة « استشهد » بالعربية في النص الفرنسي . المترجم

فاعتقدوا أنه يرفض الاستسلام والإقرار « بالشهادة » ؛ فما كان منهم إلا أن أغمدوا سيوفهم في صدره فلفظ أنفاسه في الحال » .

إن قصة هذا الضابط الإيطالي لم تنته بعد : ففي حين كنت مـــا أزال ببنغازي أرقب الأحداث الجارية وأبعث بتقاريري الصحفية عنهـا بانتظام إلى رئيس تحرير مجلتي المسيو (موريس نورماند) ، استلم هذا الأخير في تلك الأثناء خطاباً من إيطاليا إليكم نصه :

« حضرة السيد المحترم : (موريس نورماند) . تحية وبعد : فإنني أتضرع إليك بكل وجداني أن تحرر خطاباً إلى مراسلك في بنغازي [جورج ريمون] الموجود حالياً في معسكر الأتراك ، لتستفسر لديه عن أخبـــار ولدي الملازم (فرانز مولاري) الذي فـُقِد يوم ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١١ في معركة (الكويفية) ، قرب مدينة بنغـــازي . وهو أحد فرسان الفيلق الثامن عشر للخيّالة الخفيفة الإيطالية ، ورتبته العسكرية كملازم مثبتة على ياقة سترته العسكرية وهي عبارة عن أشرطة خضراء ولسان لهب أسود منسوج . وأوصافه الجسمانية هي : شاب أشقر نحيف طويل القامة ، يلبس في إصبعه خاتماً نـُقشت عليه الأحرف الأولى من اسمه ولقبه وصورة رأس إغريقي. لقد قيل لي هنا في إيطاليا أنه قد وقع من فوق جواده أثنـــاء تلك المعركة ، ولعله أن يكون قد جُرح جروحاً بليغة . ولكن أحداً من زملائه الإيطاليين هناك لم يعثر على جثته أو على أي قطعة من ملابسه .

آه يا سيدي !!.. إنني أتضرع إليك ساجدة ، إنني أمـــه التي تستحلفك بعزّة أمـك لديك أن تفعل شيئاً من أجلي وتساعدني إنني في انتظار كلمة منك أعتبرها آخر أمل لديّ لمعرفة مصير ولدي . فاكتب .. اكتب فوراً إلى مراسلك في بنغازي ، وقل له إن حياتي مرهونة بإجابته ونوعها وقل له أن

بوسعه أن يتسقـّط أخبـــار ابني لدى (أنور بَيْ)[1] ، أو لدى القائد العثماني الآخر الذي كان يقود معركة (الكويفية) يوم ٢٨ نوفمبر الماضي عند غروب شمس ذلك النهار . ولقد علمت أن الجنود والضباط الأتراك ذوو نفوس كريمة ، وأن الفرنسيين قلوبهم كبيرة عطوفة . فآمل أن تساعدوني جميعاً وأن تجلوا غـُمتي هذه » .

إمضاء :

السيدة صوفيا مولاري »

وحيث أن أوصاف ولد هذه السيدة المكلومة تنطبق تماماً على الضابط الذي قتله المجاهدون على النحو الذي ورد ، فـإن المسيو (موريس نورماند) رئيس تحرير مجلتي – الذي سبق لي وأن أرسلت إليه قبل تسلمه لخطاب هذه الأم بتفاصيل مقتل الضابط – تردد برهة في الرد على السيدة (صوفيا مولاري) وإبلاغها بفجيعتها . ولكنــه صمم في النهاية على القيام بواجبه وإبلاغها بالحقيقة المرة . وما لبث أن تلقى منها التالي :

« آه يا سيدي !!.. لقد انتهى كل شيء وعلى أية حال فإنني أشكرك ونفسي تتمزق من اللوعة . وإن كانت لديك تفاصيل أخرى عن ظروف موته فأرجو ألا تبخل بها عليَّ . وأعلمني أين دُفنت جثة ولدي الجميل لكي أحاول نقلها إلى الوطن فأسجد عندها . أطلب ذلك من المسيو (جورج ريمون) مراسلك هناك ، وترّجاه أن يبعث إليَّ بقبضة من أعشاب (الكويفية) التي سقط فوقهـا ولدي لأحتفظ بهـا كتذكار لتلك الأرض اللعينة[2] التي صرع فوقها فلذة كبدي وهو

---

(١) (أنور بَي) هو قائد القوات العثمانية في معسكر (عين منصور) عند مدينة درنه ، كما سيرد ذكره في الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب . المترجم

(٢) من حق الأم الثكلى أن تبكي ابنها الصريع ، فهذه عاطفة إنسانية نحترمها حق وإن كان ولدها عدواً لنا. ولكنه ليس من حقها أن تنعت أرض بلادنا بأنها أرض « لعينة ». فالأحقّ باللعنة هم قومها الذين عبروا البحر إلى هذه الأرض وغزوها بجيوشهم وقتلوا أهلها ، وحيث أن ابنها هو أحد هؤلاء الغزاة ، فقد لقي جزاءه فالبادىء أظلم . المترجم

الذي كان يمثل عندي أعز شيء في هذه الدنيا . ولقد كان شجاعاً وطيباً وفارساً هماماً . لقد كان يتمنى دائماً أن يكتشف عوالم جديدة .. لقد كان جسوراً ، وقاتل كما تقاتل الأسود. وكان آخر من بقي لي على قيد الحياة من بين ثلاثة ذكور رزقت بهم : كان في صغره جميلاً وفي شبابه شجاعاً وكان أغلى ما عندي في هذه الدنيا . وكنت واثقة من أن الله سيحفظه لي » .

غير أن خطابات هذه الأم الايطالية التي حوّلها إلي رئيس التحرير من باريس إلى ليبيا ، لم أتمكن من استلامها في بنغازي، إذ انها قد وصلت إليها بعد سفري عنها إلى مدينتي (درنه) و (طبرق) . وبادر الضباط الأتراك بإرسالها في إثري الى هناك عن طريق بريد خصوصي ، غير انها لم تصل الا بعد أن غادرتها أيضاً. ولذا فإنني لم أستلم تلك الخطابات الا بعد عودتي الى فرنسا حيث وجدتها في انتظاري. وكان بودي لو تلقيتها أثناء تواجدي في بنغازي .. اذ انه كان بوسعي ان ابذل كل ما في مستطاعي لتخفيف لوعة تلك الأم .

جلسنا مرة في احد بساتين النخيل في (الكويفية) حيث افترشنا السجاجيد والبُسط على الأرض،وأخذنا نأكل سفافيد لحم الخراف المشوية ونشرب مشروب « اللاقبي » ، المستخرج من أشجار النخيل ؛ التي دعانا اليها القوم . وتمنيت لو تحوّل ذلك المشروب الحامض الى نبيذ عنب معتق.وأسررت بأمنيتي الى (عزيز المصري بك) الجالس الى جانبي فشاطرني أمنيتي قائلاً :

— « لقد عثرنا ، بعد انتهاء معركة (اللثامه)[1] ، في الأكياس التي تركها الجنود الايطاليون بعد فرارهم، على عدد من قنينات نبيذ «الكيانتي» ، وكان الجو

---

(١) « اللثامة » تقع شرقي مدينة بنغازي على يسار الطريق المتجه الى المرج ، وهي واحدة من صرائم النخيل محصورة ما بين « الزريريعية » غرباً والبحر شمالاً و « سيدي خليفة » شرقاً . وقد توسع الآن عمران مدينة بنغازي بحيث أصبحت « اللثامة » إحدى ضواحيها .

المترجم

شديد الحرارة فأغرانا منظرها بشربها؛غير أننا اضطررنا الى تحطيمها بخبطها على الصخور مجاملة منا لهؤلاء البدو الذين يمقتون الخمرة وشاربها » .

ثم عبرنا الطريق الواقع مـا بين الأسباخ وشاطىء البحر واتجهنا غرباً حتى اقتربنا من مدينة بنغازي . وكان المنظر رائعاً تحلـّيه تموّجات الرمال الفضية وزرقة البحر التي دكنت حتى قاربت السواد ، وصفوف النخيل البـاسق . وشاهدنا ما بين كثبان الرمال مستنقعات سبخ صغيرة أخذ يركض بمحاذاتها حوالى خمسين فارساً من المجاهدين ثم توقفنا فترجلنا عن خيولناوتركناها،واستمر بعضنا في التقدم غربـاً في صحبة (عزيز المصري بك) سيراً على الأقدام ، عبر كثبان الرمال المطلة مباشرة على البقعة التي أقيمت عند طرفها المقابل تحصينات الايطاليين وخنادقهم ، حيث صرنا نبعد عنها بمسافـة ألف ومائتي متر تقريباً . وكان البحرعن يميننا،فكنا نلمح بيوت بنغازي عن بُعد،ونلمح ثلاث بوارج حربية ايطالية راسية في مينائها . وقدّرت المسافة التي تفصلنا عن تلك البوارج بحوالي أربعة كيلومترات . وأمامنا مباشرة كان هنالك صف أسود من أشجار النخيل نمت خلف كثبان الرمال التي نقف عندهـا . وفي الوسط تماماً كنا نتميّز المبنى الرئيسي للتحصينات الايطاليـة في (اللثامة) ، وهو يتكون من برجين اثنين ارتفاع كل منهما أربعة أمتار ، يقومان وسط جدار التحصينات المستطيل . أما عن يسارنا ، أمـام صفوف النخيل ، فقد كنا نشاهد تحصينات ايطالية أخرى تقل أهمية وحجماً عن سابقتها وتشبه البرج في هيئتها . وكانت واحة (اللثامة) محاطة كلها بالأسلاك الشائكة وبالفخاخ والمصائـد وأجراس الانذار . وكانت تقوم بحراستها طيلة الليل كلاب الحراسة وتضيئُها الأنوار الكاشفة .

ووراء هذا الخط الدفاعي المحصّن كان يوجـد خط دفاعي آخر في الوسط به عدة تحصينات وخلفه مستنقعات أسباخ أخرى وأسوار ، ثم أخيراً مدينة بنغازي نفسها . وهكذا فإنكم تلاحظون أن المنطقة محروسة ومراقبة مراقبةً دقيقـة .

وكنت أجيل النظر في هذا المشهد الذي فرغت من وصفه لكم ، حين بادرني (عزيز المصري بك) قائلا :

– « سمعت صباح يوم الثالث من أبريل الماضي فجأة دوي مدافع هائل ، وشاهدت القذائف تتجه من تحصينات الايطاليين في (اللثامة) هذه نحو دورية (الكويفية) ، التي كمُن أفرادها من المجـــاهدين في المناطق المجاورة [انظر الخريطة] . فهرعت من المعسكر مسرعاً وبصحبتي اثنان من شرطتنا . ومــا لبثت ان لمحت طرّادين مدرّعين ايطاليين عنــد الشاطىء وهما يقتربان من هذه الكثبان الرملية التي نقف عندها الآن؛ في حين ظلت مدافعهما مستمرة في قصف (الكويفية) لمنع وعرقلة وصول الامدادات منها الى دوريتنا المتقدمة . وازددت توغلا – ولم أعد أسمع سوى تراشق برصاص البنادق – فاعتقدت أن الأمر ليس سوى تكرار للمناوشات اليومية . فعدت أدراجي الى المعسكر بينما أرسلت من سبقني اليه لابلاغ المجاهدين هناك بألا يقلقوا للأمر . غير انني ما ان وطئت قدمي البقعة التي بها ضريح (سيدي مفتاح) حتى أطل عليّ أحد الليبيين براســـه فجأة وأخبرني أن دوريتنا قد حوصرت على بعد خمسمائة متر من (اللثامة) ، وبالتحديد في (سواني عصمان) . فانثنيت راجعاً في الحــــال حيث أصدرت أوامري بأن تلحق بي فرقة المدفعية ، وفي نفس الوقت أمرت سلاح الفرسان بأن يكمن قرب ضريح (سيدي مفتاح) ، وأعطيت الاشارة لسلاح المشاة بأن يتبعني . وانطلقت في المقدمة وبصحبتي ستة ضباط من بينهم المقدّم (سليمان العسكري بك) . وتبعنا الباقون على بعد كيلومتر واحد . وما أن أصبحنا على بعد أربعمائة متر من (سواني عصمان) حتى استقبلنا وابل من رصاص الايطاليين الذي كان يُصوّب نحونا من أمامنا ومن يسارنا . ولم يكن أمامنا ما نحتمي بــه الا كُثَيّب رمال كان الايطاليون يكمنون خلفه ، فلم نجد بُدّاً من الاسراع بالتدحرج من فوقه في سرعة فأصدرت أوامري الى اثنين من الضباط الذين في صحبتي بالتوجه فوراً الى المجاهدين الليبيين الذين كانوا يتبعوننا عن بعد فيأمرانهم



شاعر شعبي من قبيلة أولاد إبراهيم



بعض أعيان ومشايخ بنغازي مجتمعين في خيمة عمر
منصور باشا الكيخيا في معسكر المجاهدين

بالاتجاه يساراً كي يلاقوا الايطاليين عند جناح قواتهم الأيمن ومن خلفهم ، ولكي يصدوهم عن عبور مستنقعات السبخ ومن ثم الانطلاق تجاه تحصيناتهم الجاثمة خلفها . وهكذا فقد بقينا وحدنا وسط هـذه الأرض المسطّحة في وضع يجعلنا طعما سائغا لقذائف ونيران المدفعية الإيطالية . وبادرت فتفحصت الذخائر التي تركها الايطاليون عند ُكثيِّب الرمال الذي أجليناهم عنه ، فقدّرت بعد إحصاء تلك الذخائر أن الكثيِّب كان ُمحتلا من قبل سرية ايطالية كاملة. وقد انسحبت تلك السرية واحتمت وراء سور من أسوار تحصيناتهم. وكانت توجد على يسارنا كذلك سرية ايطالية ثانية تحتمي هي الأخرى وراء أحد أسيجة « السواني»[1]، وكان أفرادها مستمرين في اطلاق نيرانهم في حين اختفت رؤوسهم فيما وراء السياج ؛ الأمر الذي جعل طلقاتهم لا تستهدف أهدافاً محـدودة ، بل تتجه بالأحرى الى أعلى كيفما اتفق .

ثم لحق بنا في مكمننا عدد من المجاهدين ؛ أما الباقون فلم ينفذوا أوامري بدقة ولم يقوموا ، كما رسمت أنا ، بالالتفاف حول العدو ، بل أخذوا يجادلون الأوامر التي صدرت اليهم قائلين بعناد : أين عزيز َبيْ .. أين القائـد ؟ . فهم كانوا يريدون اللحاق بي بأي شكل ، وحاولوا حتى ارغام رجال مدفعيتنا على الحذو حذوهم والاتجاه الى الموقع الذي ِكمنتُ فيه. وفي هذه الأثناء قام عشرون من مجاهدينا الفرسان بمهاجمـة جناح القوات الايطالية الأيمن . ولتغطية هؤلاء ودعمهم فقد اضطررت حينئذ الى الهجوم من جانبي ، بمن معي ، دون أن أنتظر دخول مشاتنا في الالتحام ، حيث انهم قد تقاعسوا وتريثوا بعض الشيء لعدم اقتناعهم بفائـدة التفافنا حول العدو على النحو الذي خططت له أصلا . وانسحب الايطاليون الى خطهم القتالي الثـاني ، ثم عبروا مستنقعات الأسباخ هاربين الى تحصيناتهم للاحتماء وراءهـا . وهكذا فقد فلتوا منا بسبب تردد

(١) « السانية » : بلهجة برقة هي البستان المليء بالفواكـه أو الخضروات ، وتقابلها في الطرابلسية كلمة « الحوازة » . المترجم

وتباطؤ مشاتنا . وكانت ما تزال هنالك كتيبة ايطالية أخرى بقيت لحماية مؤخرة الانسحاب الايطالي ؛ فأصدرتُ الأوامر فوراً بمهاجمتها ، حيث تمكنا من اجلائها عن مواقعها بسهولة . ولقد استشهد منا مجاهدان وجُرح ثلاثة آخرون ؛ في حين استولينا من الايطاليين على كمية من الغنائم : انك الآن موجود في مسرح تلك المعركة التي وصفتها لك . ان هذا هو طراز المعارك التي تدور بيننا وبين الايطاليين حول بنغازي . والالتحام الذي فرغت من رواية تفاصيله لك ، يعطيك فكرة وافية على مدى جُبن الايطاليين وافتقارهم الى كفاءة قتالية حقة . ولذا فإن قائدهم الجنرال (بريكوللا) قد اضطر ، لعجزه عن خوض معارك حقيقية طاحنة ، الى الاكتفاء من حين الى آخر بهذا النوع من المناوشات » .

ثم تقدمت في صحبة (عزيز المصري) متوغلين قُدُماً حتى أصبحنا على بعد ثمانمائة متر فقط من المواقع الايطالية . وكانت ظلمة الليل قد أخذت تطبق على الكون ، الأمر الذي حرمني من التقاط صورة نادرة لتلك المواقع التي كانت في مدى بصري .

ثم عدنا أدراجنا الى معسكر المجاهدين وقد أطبقت ظلمة الليل المدلهمّ تماماً. وكان مرشدنا البدوي يقود خطانا وسط الظلمة الدامسة عبر ذلك السهل المسطح المستوي ، حيث لم يكن هنالك في السماء أثر لنجمة من النجوم ، ولم نكن نلمح أضواءً سوى أنوار الايطاليين الكاشفة التي كانت تستعرض الأفق المظلم من حين لآخر فنستفيد بضوئها في الاسترشاد على موقع البحر منا . وخُيِّل اليّ أن مرشدنا لم يعد يدري بالضبط موقع المعسكر؛ اذ انه قد أخذ يدور بنا في حلقة مفرغة مدة من الوقت ، محاولاً الاسترشاد باتجاه الرياح على الطريق والاتجاه الذي يتحتم أن نسير فيه . وبعد لأي استطاع تبيّن الطريق رغم حلكة الظلمة. وهكذا فإننا لم نصل الى المعسكر الا بعد مضي ثلاث ساعات من المشي على الأقدام ، فها نحن من جديد عند خيمة القائد (عزيز المصري) التي تتوسطه .

وفي اليوم التالي عرّفني (عزيز بك) إلى أعيان بنغازي وقدمني الى مشايخها فاجتمعت بهم، وكان على رأسهم نائب بنغازي في مجلس المبعوثان السيد (عمر منصور الكيخيا) الذي عرفني بهم فرداً فرداً. وكان اولئك الأعيان ومشايخ الزوايا على شيء من الترفع والأنفة. وقد قبل كثير منهم ان ألتقط لهم صوراً تذكارية في خيمة النائب (عمر منصور الكيخيا) الكبيرة، في حين رفض الآخرون ذلك في إباء. وكان مشايخ الزوايا شديدي السمنة وتبدو عليهم مظاهر النعمة، ولهم ذقون طويلة، يطوون فوق رؤوسهم عمماً بيضاء كبيرة، وجُبباً من الحرير، وتفوح العطور المضمّخة من أردانهم.

ولقد حكيت طويلاً مع عدد كبير من هؤلاء المشايخ والأعيان، فبدوا لي على إلمام واف وعلى اطلاع كبير على تيارات السياسة الأوربية الحالية؛ وإن كنت قد لاحظت عليهم اهتمامهم الخاص بكل ما له علاقة بمصائر البلدان العربية وعلى الخصوص ما يمس مستقبل ليبيا. وقد سألني أحدهم ساخراً:

«يبدو أن أوربا لا تتلقى معلومات كافية من قناصلها في طرابلس وبنغازي، حتى تبادر فتبعث إلينا بأحد صحافييها كي يقف بنفسه على كيفية سير حربنا مع الايطاليين؟».

فرددت عليه بما معناه أن قنصل فرنسا في بنغازي محاصر داخلها بعد ان عزلها الايطاليون عن بقية البلاد وضربوا حولها تحصيناتهم. ولذا فإنه من الطبيعي ألا يكون على إلمام كاف بما يجري في معسكر الليبيين والاتراك الضارب خارجها. زِدْ على ذلك أن الإيطاليين قد يزودونه عن الحرب بمعلومات محرّفة ويخفون عنه بعض الحقائق التي لا يسعدهم أن يطلع عليها قناصل الدول الأخرى. ثم أن قنصلنا الفرنسي، باعتباره شخصية رسمية معتمدة، حتى وإن استقى معلومات أكيدة عن سير الأمور؛ فإن مركزه الرسمي لا يسمح له بأن يُسِرّ إلى الصحفيين الفرنسيين بانطباعاته الخاصة عنها.

فضحك محدثي وقال باستخفاف :

ـ « فما هو جدوى حرية الرأي التي تتشدّقون بها كثيراً في أوربا ؟! » .

ولقد كنت طيلة إقامتي في معسكر المجاهدين هنا ، أنزل في ضيافة أطباء الهلال الأحمر المصري ، الذين ظلوا يوفرون لي المأكل والمسكن والعلاج ويعاملونني كصديق عزيز .

وبعثة الهلال الأحمر المصري هذه كانت قد أُرسلت إلى هنا منذ بداية الغزو الإيطالي لليبيا في شهر أكتوبر سنة ١٩١١ ؛ والبعثة قد تأسست ووضعت تحت رعاية وبمساعدة وكرم والدة خديوي مصر[١] .

ويترأس هذه البعثة الطبية المصرية (فريد بك) ؛ أما الأطباء العاملون في وحداتها فهم : (الدكتور حلمي) وهو طبيب جرّاح ، و (الدكتور حافظ عفيفي) و (الدكتور شكري) . وفي البداية كان من المقرر ان ترحل هذه البعثة من مصر الى برقة عن طريق البحر لتنزل في ميناء بنغازي نفسه ؛ ولكن ما لبث ان سُحب منها هذا التصريح . وهكذا فإن أعضاءها اضطُروا إلى القدوم إلى هنا عبر الصحراء ، حيث لم يصلوا إلى معسكر مجاهدي بنغازي إلا بعد مسيرة خمسين يوماً بالبر ، ومن ثمّ فقد نصبت البعثة خيامها قرب هذا المعسكر منذ اليوم الثاني من فبراير ١٩١٢ .

ولقد قامت بعثة الهلال الأحمر المصري هذه ، خلال شهري فبراير ومارس

---

(١) كان خديوي مصر هذا الذي يشير المؤلف الى أمه هو : الخديوي (عباس حلمي الثاني) الذي ولد بالاسكندرية سنة ١٨٧٤ ، وتوفي سنة ١٩٤٤ . ولقد ظل في منصبه كخديوي لمصر منذ سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٩١٤. حيث خلعه الانجليز ونصبوا بدله الملك فؤاد الأول ، عندما كانت للانجليز اليد الطولى في شئون مصر يعزلون الحكام او ينصبونهم ، الى ان استرجعت مصر استقلالها عنوة . المترجم

من هذا العام ، بعلاج مائتي جريح من بينهم أربعون اقتضت حالتهم وإصاباتهم إجراء عمليات جراحية عاجلة لهم .

ولقد أخبرني هؤلاء الأطباء المصريون ان البدو الليبيين سرعان ما يؤثر فيهم « البنج » ، نظراً لأنهم لا يتعاطون المشروبات الكحولية . ولذا فإن معظمهم لم يكن ليحتاج – قبيل إجراء عملية له – إلا إلى حقنة تخدير لا تتجاوز كمية « البنج » فيها مقدار ثلاثين او أربعين جراماً . بل ان بعض المجاهدين كان يرفض بإصرار حقنة « البنج » مطلقاً ؛ فالبدو الليبيون يعتبرون الاستسلام للعمليات الجراحية دون تنويم مخدر دليلاً على الشجاعة وقوة العزيمة على تحمل الآلام ، قائلين ان الرجال هم وحدهم القادرون على معاناة الآلام بصبر . وروى لي الأطباء المصريون في هذا الصدد ، ان الواحد من هؤلاء الجرحى يستلقي على سرير العمليات دون مخدّر وبكامل وعيه الحسي حيث يظل يكبت آلامه بصبر مدهش طيلة مدة إجراء العملية عليه . وكل ما يفعله بعضهم – لتصبير نفسه – هو ان يصفق بكفيه مردداً بعض الأهازيج الشعبية بينما يكون الطبيب الجراح مستغرقاً في إعمال مباضعه وأمواسه في جسده حتى تنتهي العملية الجراحية . فهذا يجرّح ويخيط وذاك يصفق ويتغنى !. وقد انفجرت إحدى شظايا القذائف الإيطالية في أحدهم فمزقت أحد خديه ، ورغم جروحه البليغة ، كان الرجل يستعجل الطبيب لكي يفرغ من وضع ضماداته ، فقد كان على عجلة من أمره ويرغب في العودة إلى مرابض قبيلته ورؤية زوجته .

والواقع ان رصاص الإيطاليين – وهو من العيار الصغير – لا يحدث في العادة جروحاً بليغاً . ولقد شاهدت بنفسي ، مرات عديدة ، مجاهدين ليبيين أصيبوا بالرصاص في عدة مناطق من أجسامهم ، غير أنهم كانوا يشفون من جروحهم في مدة لا تزيد عن ثمانية أيام . والغريب ان لدى هؤلاء القوم إيماناً كاملاً بأنهم ما داموا يجاهدون في سبيل الله ، فهو لا بد حاميهم من رصاص الأعداء حتى وان اخترق أجسامهم .

ونظراً لأنه لم تحدث أثناء إقامتي في نواحي بنغازي أية معارك فعلية تستحق المشاهدة ، فإن القائد (عزيز المصري بك) ، كان يمضي في صحبتي من آن لآخر بعض الوقت ، حيث يظل يترجم لي فقرات من المذكرات التي يسجل فيها وقائع الأحداث هنا يوماً بيوم[1] . وقد قال لي مرة :

ـ « عندما قدمت إلى هنا يوم الثالث من ينـــاير الماضي لتنظيم العمليات الحربية ، لم يكن يوجد بالمعسكر سوى ألف وخمسمائة من المجاهدين البادية . فقد حدث عند نزول الإيطاليين على شواطىء بنغازي لأول مرة ان هربت الحامية التركية التي كان يترأسها ضابط تركي عجوز يدعى (شاكر بَيْ) . لقد هربت تاركة المدينة بدون دفاع والتجأت إلى الجبل الأخضر حيث استقرت ببـلدة المرج . وفي (المرج) أخذ المجاهد (عمران السكوري)[2] ينظـــم صفوف المقاومة ويجمع الليبيين هناك حوله في المرج للجهاد . ثم ما لبث ان انضم اليهم أفراد الحامية التركية الهاربة ، فاتجه بهم الشيخ (السكوري) أولاً إلى بـلدة (الأبيار) ثم إلى بلدة (الرجمة) الواقعتين بين المرج وبنغازي إلى ان جاء بهم إلى مواقعنا هذه . ثم بدأت المناوشات مع الإيطاليين ؛ أولاً في ضاحيـــة (الصابري) ثم في قرية (الكويفية) . ولم تكن لتلك المناوشات أهمية كبرى ، وان كان من نتائجها أنها أعادت الثقة إلى نفوس الليبيين وعوّدتهم على التصدي

(١) لم أسمع بأن المرحوم (عزيز المصري) قد نشر هذه المذكرات التي يشير اليها المؤلف هنا . وان كان فعلاً قد سجل هذه المذكرات من موقعه القيادي ، فإنها لا بد وان تحتوي على حقائق وتفاصيل هامة بالنسبة لهذه الفترة من تاريخ ليبيا العربية . ولعل ورثته او أحد الباحثين العرب يكرس جهده لتحقيقها ونشرها ، ان وجدت ، فإنه سيؤدي للتاريخ خدمة جليلة .

المترجم

(٢) عمران السكوري هو من أشهر المجاهدين الذين تفتخر مدينتي المرج بإنجابهم ، وأسرته من أفضل الأسر المرجاوية سمعة ، ولهذا المجاهد بها اليوم أبناء وأحفاد هم من خيرة شبابها ، وقد ظلت أسرته تقطن المحلة الشرقية من مدينة المرج حتى حدوث زلزال سنة ١٩٦٣ ، وكان ذلك آخر عهدي بهم .

المترجم

لمدافع الإيطاليين . وشيئاً فشيئاً أخذت القبائل تتكبّ على المعسكر ، واليوم تجد فيه مجاهدين من كل القبـائل ، من بينها : قبائل[1] العريبات ، والعبيد ، وعيلة الطيرة ، والصبيحات ، والفواخر ، والمغاربة ، والفسيّات ، والعشيبات ، والفوارس ، وسديدي ، والشنيبات ، والقطـــارنة ، والعمارنة ، وابراهيم ، والبراغثة ، والبدور ، والمسامير ، والعرفة ، والدرسة ، والشلمان ، والعبيد ، والعبادلة ، ومطاوع . إنهم جميعاً هنا ! ولقد اجتمع مشايخ هـذه القبائل يوم العشرين من فبراير الماضي وحلفوا يميناً جماعياً التزموا بموجبه بالجهاد حتى يلفظ كل منهم آخر أنفاسه . وبعد ذلك قرروا إحضار أسرهم كلها للمعسكر لكي لا يصرفهم عنه أي شاغل » .

ثم أخذنا نتجول بين أنجع هذه القبائل المجاهدة . وعندمـا مررنا بمرابض قبيلة (سديدي) تناهى إلى سمعي غناء متناوب بـين امرأتين ، بحيث كانت الأولى تغني مقطعاً ثم تثنّي الأخرى فترد عليها بمقطع تالٍ . وأخـــذ (عزيز المصري بك) يترجم لي كلمات الأغنية التي كانت تدور كلهـــا حول معركة (الزريريعية) . وتنتمي إحدى المرأتين إلى قبيلة (سديدي) بيـــنما تنتمي الأخرى لقبيلة (المغاربة) . وكلتاهما كانت تفاخر باستبسال رجال قبيلتها في تلك المعركة التي خاضوها ضد الإيطاليين ، محـــاولة ان تضفي عليهم من شيم الرجولة وخصال الاستبسال أكثر من الأخرى .

وفي اعتقادي ان مثل هذه الأهازيج والأغاني الشعبية البدوية ليست سوى صدى بعيد لشعر الفخر الذي عرفته شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي وفي بداية العصر الإسلامي . فالشاعر كان وما يزال يعتبر في أعين كل القبائـل

---

(١) الحقيقة ان بعضها ليس قبائل بالمعنى الكامل للكلمة ، إذ منها ما هو « أفخاذ » قبائل او عشائر صغيرة او « لحمات » او « بيوت » تنطوي تحت قبائل ، وقد تحققت من جميع أسمائها كما ترجمتها هنا .
المترجم

العربية إنساناً ملهماً له من الفصاحة وقوة البيان ما يجعله يُفحم الأعداء بأقوال محكمة لها مفعول السحر بين العرب .

وأشار (عزيز المصري بك) إلى إحدى المرأتين قائلا :

ــ « لقد اشتهرت هذه المرأة في معركة (الزريريعية) حيث ظلت واقفة ــ بينما المعركة مستعرة مع الإيطاليين ــ تحت المجاهدين ، بين صفوفهم ، بأهازيجها الشعبية التي كانت تذكي فيهم حماس القتال . وقد عرّضت بذلك نفسها في ساحة المعركة لرصاص العدو وهي سادرة في الشدو بملحمتها البطولية حتى تلقت رصاصة فجرحتها جرحاً بليغاً » .

ثم هرع لاستقبالنا الشيخ (عمر بورقعة) ــ وهو نفس الشيخ الذي حدثتكم في هذا الفصل من الكتاب بأنه قد طلب مني ان أحرر خطاباً إلى الجنرال (بريكولا) أنقل اليه فيه تحدي المجاهدين له بالدخول معه في معركة مكشوفة .
وقال لي (عزيز المصري) :

ــ « إن هذا الشيخ عندما فقد ابنه في معركة (الفويهات) التي قُتل فيها إلى جانبه ، توجهتُ اليه بعد ذلك في خيمته لتقديم تعزيتي اليه في مصابه الفادح ؛ ولكنني بدلاً من ان أجد والداً مكلوم القلب حزين الخاطر ، وجدت على العكس من ذلك إنساناً صابراً هادىء الأعصاب . وعندما حاولت مواساته والتخفيف عنه ، قال لي : ولماذا أحزن ؟ أليست الجنة هي مثوى فلذة كبدي الآن ؟ وكنت واثقاً من ان عيونه الكليلة كانت تلمح طيفه في تلك اللحظة هائماً في جنّات عدن » .

ثم أشار (عزيز المصري بك) إلى شخص آخر قائلا :

ــ « هل ترى هذا ؟.. إنه هو ذلك المالطي الذي سبق لي ان حدثتك عنه ، والذي أحضره إليّ هؤلاء (الدرسة) ذات صباح من بنغازي نفسها ، حيث اختطفوه من وسط بستانه الذي كان في حماية الإيطاليين . ولقد أمضى بين

أيدي هؤلاء البدو لحظة من أقسى لحظات حياته . ولكنه كان شخصاً ذكياً ، وهو يجيد اللغة العربية إجادة كاملة ، فتملـّقهم بلغتهم قائلاً لهم : إنكم شجعان كالأسود ، وأنه سعيد لوقوعه بين أيديهم ، لأن الليبيين – على حد قوله – أبناء عمومته . وهكذا فقد أثـّرت كلماته الإطرائية فيهم فـلم يقتلوه . وهو يعيش بيننا هنا منذ يوم اختطافه حراً طليقاً . وقـد نصحته بارتداء برنس حتى لا يؤذيه أحد من البدو او يتشككوا في أمره خطأ . بل إنني قد عرضت عليه ان نخلي سبيله ونتركه يعود الى بنغازي ولكنه رفض قائلاً إنه قد استقر رأيه على ان يظل بين الليبيين » .

تهب على المنطقة منذ أربع وعشرين ساعة عاصفة من الرياح المحملة بالأتربة والرمال ، وقد اقتلعت الرياح خيمة الهلال الأحمر المصري الكبيرة ، كما تمزقت أروقة عدة خيام أخرى من بينها خيمتي . وإذا ما استمر هبوب الرياح على هذا النحو ، فقُلْ على خيمة المستشفى وبقية الخيام هنا السلام !. وقـد اكتسحت الأتربة الدقيقة جميع أمتعتنا؛ بل إنها قد تغلغلت حتى الى أدقّ أجهزة وعدسات آلاتي التصويرية رغم إحكامي لإغلاق عليها .

ولقد اختفت بنغازي خلف عاصفة الغبار تمـاماً . وتصورتُ أنا والضباط الأتراك حالة الجنود الإيطاليين وقد عفـّر هذا الغبار الدقيق وجوههم وخنـق أنفاسهم ، وهم الذين لم يتعودوا على مثـل هذه العواصف الرملية في بلادهم . وتخيلتهم وهم يرغون ويزبدون ويلعنون قائلين بلغتهم فيما بينهم :

— « Che brutto paese ! Ma chè brutto paese ! »

— « Che cosa facciama qui ? »[١] .

---

(١) وردت بالإيطالية على هذا النحو في النص الفرنسي . وترجمة العبارة الى العربية :

– « ما أقبحه من بلد !.. ما أقبحه من بلد ! » .

– « ماذا نفعل هنا ؟ » .

الفصل الحادي عشر

مدن الجبل الاخضر الاثرية

بدأت يوم السابع عشر من أبريل في إعداد قافلتي للرحيل . وتجمّع أمـام خيمتي عدد كبير من البدو طالبين مني أن أقوم بالتقاط صور تذكارية لهم بعدستي الفوتوغرافية لنشرها في مجاتي البارزية . وقد فاتهم أن المجلة ، حتى ولو رصدت جميع صفحات عدد من أعدادهـا لنشر صورهم ، لما استطاعت أن تفي بها جميعها لكثرة عددهم !

ولقد أصر المقدّم (عزيز المصري بك) على منحي عدداً من جمـال الجيش وتخصيص أربعة شرطيّين وجنديين اثنين لمرافقتي وحراستي في بقية رحلتي . ثم حضر لتناول طعام العشاء معي بمقرّ الهلال الأحمر المصري، ومن ثمّ ودّعني وتمنى لي سفراً ميموناً .

ورحلنا عند الساعة الثالثة من بعـد ظهر اليوم التالي في صحبة (الدكتور حافظ عفيفي) . وما ان ابتعدنا عن المعسكر مسيرة ساعة حتى بـدأنا نلمح بداية سلاسل « الجبل الأخضر » التي كان ارتفاعها في البداية يتراوح ما بين مائة وخمسين ومائتي متر . وكنا نشاهد هنا أو هناك بعض أدغال النباتات البريـــة والمراعي الخضراء وحقول الشعير[1] .

---

(١) لاحظ أن المؤلف وقافلتـه لم يواصلوا الرحلة عبر الطريق الساحلي المار بـ (دريانه) و (توكره) في اتجاه (المرج) ، بل ساروا في الطريق « الفوقي » الموازي له جنوباً والمـــار بقرى (الأبيار) و (الرجمة). والغريب أن هذا الطريق هو نفسه الذي سار فيه الطبيب الرحالة الإيطالي (باولو دي لاشيلا) في سنة ١٨١٧ في صحبة الحملة القره مانلية، ووصفه لنا في رحلته التي سمّاها بالإيطاليـــة : « Viaggio da Tripoli dï Barberia Alle Frontiere Orientali Dell' Egitto » . =

ووصلنا الى (الأبيار) حوالى الساعة الثامنة مساء ، حيث وجدنا بها عدداً من الآبار، مما يتمشى مع اسم هذه البلدة. وكان يوجد عندها بضعة جنود يقومون بحراسة الذخيرة المخزونة هناك وحيث أن قافلة جمالنا التي تركناها تسير وراءنا، لم تلحق بنا إلا في وقت متأخر من الليل، فلقد دعاني أحد ضباط الصف الأتراك الى خيمته لقضاء الليل فيها .

ويوم الثامن عشر من أبريل ظللنا نمشي منذ الساعة السادسة صباحاً حتى الظهر ، حيث وصلنا إلى نقطة تسمى (سيلينا) تطل عليها آثار « أكروبول » إغريقي تتمثل في بقايا أسوار وأقواس دائرية صغيرة قائمة حول ساحة، وكذلك آثار خزانات مياه قديمة .

ومن (سيلينا) إلى بلدة (المرج) سرنا مدة خمس ساعات تقريباً ، حيث كانت تتواصل على يميننا سلسلة من الجبل العالية التي يبلغ ارتفاعها حوالى ثلاثمائة متر موازية للطريق الذي كنا نسير فيه. ثم عبرنا آجام صنوبر بحري نمت تحتها أعشاب خضراء كثيفة. وكان يخيّل إليّ أننا كنا نتنزّه وسط حديقة غنّاء وقد جفّلنا طيور الكروان والحمام البري والحجَل ، فطارت أسرابها فارّة من أمامنا ، كما هرعت من أمامنا مذعورة جماعات من الأرانب البرية .

ثم وجدنا أنفسنا وسط سهل واسع توسطته عن بعد بلدة المرج الصغيرة التي

= والجدير بالذكر أن هذه الرحلة لها ترجمة فرنسية تحت عنوان « Voyage En Afrique Au Royaume de Barcah Et Dans La Cyrènaïque » .

كما أن لها ترجمة عربية للدكتور الهادي بولقمه وكيل الجامعة الليبية حالياً ، تحت عنوان : « أخبار الحملة العسكرية التي خرجت من طرابلس إلى برقة في عام ١٨١٧ » .

المترجم

شيدت بيوتها من الأحجار والطين الأحمر قرب قصر[1] قديم ذي أبراج ضخمة قصيرة . ويبدو أن أرض هذه المنطقة ذات تربة شديدة الخصب . وقد فاضت بساتين (المرج) بما فيها من مختلف أشجار الفاكهة من عنب وزيتون ولوز وتين؛ هذا الى جانب مختلف صنوف الخضروات .

وقد استقبلنا في القصر المذكور حيث دعانا ضابط من ضباط الشرطة برتبة نقيب - اسمه (المهدي أفندي) - لتناول العشاء، حيث حضر مشايخ البلدة وأعيانها للترحيب بنا والتعرف علينا .

١٩ إبريل ١٩١٢

غادرنا (المرج) عند الساعة الثامنة صباحاً . وما أن ابتعدنا عن البلدة قليلاً

---

(١) القصر الذي يشير إليه في مدينة المرج هو القصر الذي كان يسمى حتى حدوث زلزال فبراير ١٩٦٣ باسم «قصر المتصرفية » ، وقد تهدم في ذلك الزلزال وأزال المسئولون جميع آثاره تماماً رغم أنه يعتبر أقدم صرح أثري لمدينة المرج ، وأعتبر إزالته من الوجود خطأ لا يغتفر فقد كان الأولى بنا ترميمه، او على الأقل تركه كما هو للتاريخ. وقد بناه الأتراك في أكتوبر سنة ١٨٥٢ واستمر بناؤه حوالي عامين. وأهميته تأتي في رأيي من أنه قد بُني في المكان الذي شيد فيه العرب قلعة محصنة عندما كانت مدينة (برقه) - أي المرج القديمة - عاصمة برقة كلها ؛ وكان العرب في أعقاب الفتح العربي للمدينة- وكانت تسمى باركي وهو اسمها الإغريقي - قد بنوا تلك القلعة من حطام الآثار اليونانية في المرج . وعندما بنى الأتراك بدورهم هذا القصر في منتصف القرن الماضي ، فإنهم قد استعملوا نفس احجار البناء الاسلامي ونفس احجار الآثار اليونانية . وقد زار مدينة المرج سنة بنائه الرحّالة الاسكتلندي (جيمس هاملتون) ، وهو الذي استقيت من كتابه هذه المعلومات . انظر كتابه :

James Hamilton : « Wanderings In North Africa » — : 130 - 136 , London ; 1856 .

المترجم

حتى أخذ الطريق في التصعيد مخترقاً عدداً من الوديان التي نمت فيها غـابات من مختلف الأشجار من بينها أشجار الصنوبر والخرّوب .

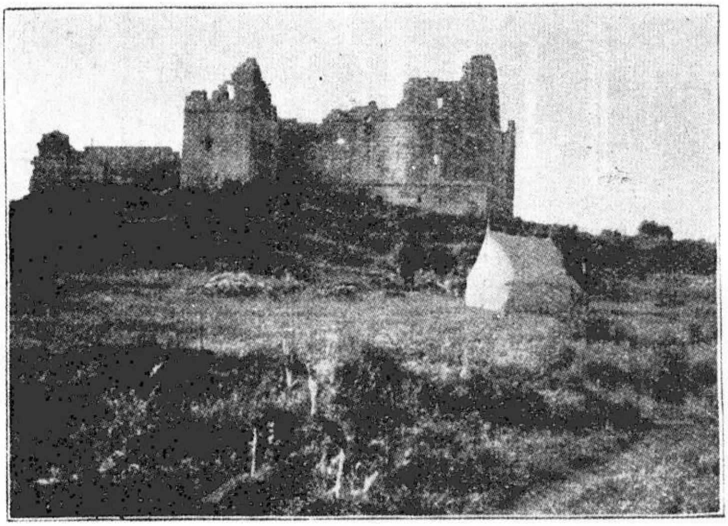
وتوقفنا عند الظهيرة حيث تناولنا طعام الغداء في منطقة اسمها (بوغرّاقه) كثرت حولها آثار المستعمرات الاغريقية القديمه، وماء آبارها مالح بعض الشيء. ثم واصلنا ترحالنا حوالى ثلاث ساعات أخرى حيث خيّمنـا وسط واد مليىء بأشجار الزيتون الضخمة وبه بئر ماء عذب .

٢٠ إبريل ١٩١٢

واصلنا رحلتنا طيلة اثنتي عشرة ساعة عبر طريق وعْر يخترق الغـابات . وقد شاهدت هنا وهناك آثار بناءات رومانية من بينها خزانات وصهاريج مياه وقلاع دفاعية . ومررنا بضريح مرابط يـدعى (سيدي عبدالله) يطل على سلسلة من الجبل وتوجد على بعد بضعة كيلومترات منه علىاليسار إحدى الزوايا.

وازداد الطريق وعورة حيث أخـذ يصعّد تارة وينحدر تارة أخرى ؛ وأخذت جيادنا وجمالنـا تعاني من السير فوق الحصى النـاتىء أو العبور فوق الصخور الملساء،وبدأت أحزمتها تنفكُّ وتتقطع وأحمالها تميل من فوق ظهورها. وشاهدت المزيد من آثار الحصون الرومانية ما تزال قائمة فوق الهضاب المطلة على وديان خصبة ، يساعد تجمُّع الأمطار فيها على قيام الزراعة . كما كنت أمرُّ بآثار صهاريج مياه رومانية وقنواتها المعمولة من الصخور .

وعند هبوط المساء وجدنا أنفسنا فجأة أمام أحد تلك البناءات الأثريـة الضخمة ، وكانت تتألف من جدار يبلغ علوّه حوالى خمسة عشر متراً . ولم أكن – منذ أن غادرت آثار (لبدة) الشهيرة – قد مررت سوى بالخيام او البيوت الصغيرة المبنية بالطين والجير ، ولم أكن أشاهد من الآثار القديمـة سوى الضئيل



خيمة المؤلف ورفاقه منصوبة أمام قصر المقدم
الروماني الأثري في الجبل الاخضر



وادي الغريب بالجبل الاخضر

الحجم منها . ولذا فإن ذلك الحائط الأثري قد أدهشني كما أدهش (الدكتور حافظ عفيفي) الذي برفقتي . وانبرى أحد أصحاب جمالنا وقد ملأه العجب ، يقـــول :

– « هذا قصر بناه (الجاهلية) الذين كانوا يفوقوننا نحن أهل العصر الحالي في بنيتهم الجسمانية أربعة او خمسة أضعاف » !! .

وقد قضينا ليلتنا مخيِّمين تحت الجدار الشاهق الذي حمانا من الرياح التي كانت تهب بقوة وعنف . ويُطلق على ذلك البناء إسم (قصر المقْدم) .

٢١ ابريل ١٩١٢

ومن (قصر المِقْدم) انحـدرنا في وادي (الغريب) العميق ، الذي كانت تقوم على جانبيه صخور عالية انتشرت فيها الكهوف ؛ وكانت تنمو به أشجار الصنوبر وأشجار الأرز الضخمة . ولقد ذكّرني منظر هذه البقعة الجميلة بمضايق جبال (الجونـدو)[1] ، ولو ان (وادي الخرايب) يمتاز عنها بطابعه الافريقي وبشدة وعورة مضايقه ، خصوصا في مثل هذا النهار الشديد الحرارة .

وعند الظهيرة توقفنا للراحة والغداء قرب مقبرة من مقابر البادية شُيدت قبورها وأضرحتها بقطع من الأحجار الأثرية الكثيرة في هذه المنطقة . وكان يتوسط تلك المقبرة ضريح مرابط يدعى (سيدي عبد الواحد) ، وتوجد الى جانبها آثار « أكروبول » إغريقي . وقد جلست في ظل شجرة خرُّوب وارفة حيث اقتعدت بلاطة لتغسيل الموتى نقشت عليها كتابة قديمة لم تعد آثارهـــا واضحة المعالم .

---

(١) تقع مضايق جبال (الجوندو) على الحدود السويسرية الايطالية . المترجم

ثم واصلنا سيرنا حيث اخترقنا هضبة خصبة نمت فيها آجام وغابات أشجار الصنوبر الصغيرة . ثم ها نحن نعبر طريقاً أثرياً قديماً مرصوفاً بالبلاط الذي ما تزال منقوشة فوقه آثار عجلات المركبات الرومانية ، وقد شُيِّدت على جانبيه قبور أثرية ذات توابيت حجرية متشابهة لا تحمل أية نقوش . وقد تواصل امتداد الطريق وعلى جانبيه التوابيت طيلة عدة كيلومترات ، فذكرني ذلك بالطرق الأثرية الرومانية في إيطاليا . وفي المساء ألقينا رحالنا قرب بلدة (البيضاء) .

٢٢ ابريل ١٩١٢

المطر ينهمر بغزارة ، وأمامنا هضاب عالية ومراعٍ خضراء ، وأحجار آثار قديمة مكدّسة ، وبقايا أسوار أثرية مهدمة وتوابيت حجرية . وبين أشجار الصنوبر الضخمة كان يقوم ضريح (سيدي رافع)[1] أحد قادة الفتح الإسلامي في ليبيا ، وكانت تربض حوله أنجع البدو الرُّحَّل .

وواصلنا رحلتنا ، وكنت ألمس ازدياد الآثار القديمة في عددها وأهميتها . ثم

---

(١) هو الصحابي رويفع بن ثابت ، بن السكن ، بن عدي ، بن حارثة الأنصاري ، من بني مالك بن النجار ، وقد شهد فتح مصر وكان يسكنها . وولاّه ابن حديج على طرابلس سنة ٤٦ للهجرة ، وغزا (جربة) من طرابلس وفتحها سنة ٤٧ هجرية . وتوفي ببرقة وهو أمير لها سنة ٥٣ للهجرة . وكان قبر رويفع الأنصاري قد درس وامحت معالمه ثم عُثر على شاهد قبره وقد كُتب عليه : « هذا قبر رويفع بن ثابت الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم » . أنظر : ١ – رحلة العياشي المسمّاة « ماء الموائد » .

٢ – الطاهر الزاوي في كتابه « تاريخ الفتح العربي في ليبيا » ص ٧٨ – ٧٩ .

المترجم

دخلنا إلى منطقة (شحات)[1] – أو قورينـّة القديمة – فرأيت قطعان الأغنام ترعى وسط الخرائب الأثرية ، أو تحتمي من وهج الشمس في ظل قبر أثري أو في ساحة أحد البيوت الإغريقية التي عفى عليها الدهر . ولم أشاهد بين تلك الخرائب آثاراً ضخمة رغم كثرتها ؛ فقد كانت كلها عبارة عن قبور يونانية محفورة في الصخور ، ولها أروقة وممرات مكشوفة تقوم على جوانبها أعمدة حجرية ، وبداخلها ثقوب منقورة مربعة الشكل لغرض استقبال التوابيت ومرامد الموتى، وقد حُفرت فوق مداخلها حُفر للاحتفاظ فيها بتماثيل صغيرة.

وتنتهي الهضبة بوادٍ ضيق به نبع ماء دافق . وشاهدت عائلات «إقريتلية» مُسلمة ، هاجرت من جزيرة (كريت) إلى هنا[2] واختارت تلك القبور الإغريقية المحفورة في صخور الجبال سكناً لها في معظم الحالات . وكانت تلك العائلات تشتغل بالزراعة كما أنها قد أنشأت في المنطقة عدداً من بساتين الفاكهة .

ثم ينتهي الوادي فجأة وتأخذ الجبال في الانحدار نحو هضبة أخرى تتواصل حتى شاطىء البحر ، حيث تنتهي بتموُّجات تضاريسية أخرى . وكان المنحدر الجبلي مغطى بالآثار الإغريقية ، فقد كان هذا الجبل وتلك الهضبة المقابلة له

---

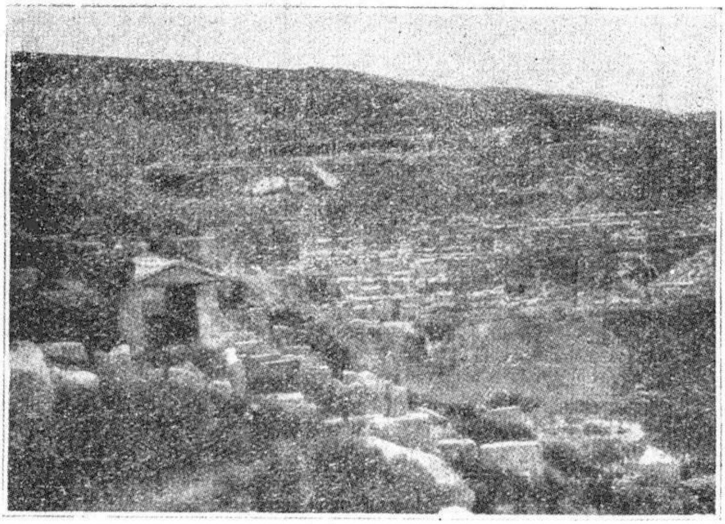
(١) أسسها اليونان في سنة ٦٣١ قبل الميلاد ، وأطلقوا عليها إسم (سيرين) ثم اشتقوا من اسمها « سيرينايكا » الذي عمموه على برقة كلها، ومن ثم عُرفت عند الغربيين بهذا الإسم . ومؤسسو (قورنـّة) الإغريق جاءوا من جزيرة (ثيرا) اليونانية وهي جزيرة (سانتورين) الحالية . وكان قائدهم يدعى (أرسطوطيلس) فنصّبوه عليهم ملكاً لقورنـّة ، ولقبوه باسم (باطوس الأول) . ولقد توالى على حكم (قورنـّة) ثمانية ملوك باطيين من سلالته . ثم أنشأ اليونان للمدينة ميناء سموه (أبو للونيا) وهو ميناء (سوسة) الحالي .

انظر : المؤرخ اليوناني (هيرودوت) في كتاب « التاريخ » – الجزء الرابع .

(٢) أسباب هجرة الأسر (القريتلية) المسلمة الى (سوسه) و (شحات) في شرقي ليبيا في سنة ١٨٩٧ هو إجلاءها عن جزيرة (كريت) وظلم اليونانيين المسيحيين الارثوذكس لها ، ومن ثم استقرت هنا وصارت أسراً ليبية . المترجم



شحات : جمال قافلة المؤلف باركة بين التماثيل
والآثار اليونانية



شحات : آثار المقابر الإغريقية القديمة

تُستعمل – فيما يبدو – مقابر للمدن الإغريقية التي كانت قائمة قرب شاطىء البحر . وقد حضرتْ الى هنا في العام الماضي بعثة من علماء التنقيب الأمريكيين للتنقيب عن الآثار ، حيث أقاموا في هذه الناحية وبنوا لهم بيتاً صغيراً من الخشب . ثم قُتل أحدهم واسمه (نورتون) ؛ أما الآخرون فلم يرحلوا إلا مع بداية الغزو الإيطالي . وقد خلّفوا هنا كل ما ترتب على حفرياتهم من اكتشافات أثرية ، وهي عبارة عن بضعة تماثيل صغيرة ، ولوحات حجرية عليها كتابات إغريقية منقوشة ، وتوابيت حجرية استخرجوها من باطن الأرض ومن أهمها حوض ضخم دائري الشكل له جدران عالية محلّاة بالنقوش الأثرية الجميلة ، ويطلق على هذا الحوض عند بادية المنطقة اسم (الطاحونة) أو (الرحى).

وهكذا فإن الآثار الإغريقية تمتد هنا حتى ساحل البحر ، حيث توجد آثار وخرائب (قورنّة) – أي شحّات – و (أبوللونيا) – أي سوسة – و (إريث) ، و (إكزيرسون) ، و (زيفيريون) ، و (نوزيدوس) . فقد كانت هذه المنطقة في الماضي ولا تزال منطقة رائعة تتناثر فيها المدن ، وهي تشبه منطقة (الكوت دازور) – أي الساحل اللازوردي – في فرنسا على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، بل وربما أجمل منها وأغنى .

٢٣ ابريل ١٩١٢

لم نرحل من هنا إلا بعد الظهر ، حيث أخذنا نسير في نفس الطريق الذي يخترق الهضبة ، والذي تكدست على جانبيه الآثار الاغريقية القديمة . وقد ظل ذلك الطريق معبداً بالبلاط الذي ترتسم عليه آثار العربات الاغريقية أو الرومانية ، لست أدري . وقضينا الليل في منطقة (بشارة) التي بها « زاوية بشارة » . وكان المطر مستمراً في الهطول .

٢٤ ابريل ١٩١٢

سقينا خيولنـا في الصباح من مـاء نبع شُيِّدتْ حوله أعمدة أثرية ، بدت جميلة المنظر وسط الصخور العالية والأشجار الوارفة الظل . ثم واصلنا رحلتنا عبر نفس الطريق الذي تناثرت حوله الآثار وأدغال الصنوبر .

وبعد مضي سبع ساعات من السير المتواصل المرهق وصلنـا الى منطقة (عين بو منصور)[١] التي أقيم بهـا معسكر المجاهـدين الليبيين والأتراك قرب مدينة درنه . وقد توجهت من فوري وحال وصولي لمقابلة القائد العـام لجيش المجاهدين هنا المقدّم (أنور بك)[٢].

---

(١) (عين بو منصور) هي إحدى عيون وادي درنه المائية ، وهي توجد في قـاع ذلك الوادي الى الجنوب من المسقط المائي المشهور باسم (شلال وادي درنه) ، وتنبثق مياه العين نفسها من طبقات الصخور الجيرية التي تنتمي لعصر « الاوليجوسين » الاسفل ، وهي تبعد عن مصب الوادي بنحو ١٤ كيلومترا ، وتنمو حولها كثير من أشجار الاوليانـدر . وعلى الرغم من كثرة المياه التي تخرج منها فإن هذه المياه لا تظهر بشكل مجرى متصل على السطح إلا بعد ثلاثة كيلومترات من العين ، وقبل ذلك لا تظهر الا في برك صغيرة غير متصلة لان معظمها يتسرب في تكوينات سطح الارض .

أنظر : كتاب الدكتور عبد العزيز طريح شرف : « جغرافيا ليبيا » صفحة ٣٣٦ و ٣٣٧.

(٢) كان (أنور بك) قبل مجيئه الى ليبيا يشغل منصب الملحق العسكري للدولة العثمانية في برلين عاصمة ألمانيا الموحدة آنذاك . المترجم

الفصل الثاني عشر

مع المجاهدين عند درنة

معسكر عين بو منصور في ٢٨ ابريل ١٩١٢

ينقسم معسكر المجاهدين في (عين بو منصور) الى مخيّمين يربض كل واحد منهما على أحد جانبي وادي درنة العميق ، وتفصل بين المخيمين مسيرة حوالى أربعين دقيقة . وأهمها هو المخيم الواقع على الجانب الغربي للوادي ، والذي توزّعت خيامه بين تلال ومنحدرات وعرة . وقد نُصبت خيام مجاهدي البادية السوداء بين المنحدرات ، في حين نُصبت خيام أركان حرب الجيش العثماني فوق الهضبة وفي وسطها خيمة المقدّم (إنفر بك) البيضاء . والمنطقة التي يوجد بها المعسكر منطقة مجدبة وعرة ومغطاة بأحجار رمادية اللون ، بسقت بينهما أشجار الصنوبر البحري المتشابكة وأشجار الزيتون الجرداء .

ومنذ الوهلة الأولى دهشت لذلك النشاط ولتلك الحركة الدائبة في المعسكر ، والتي كان يسودها ، بالرغم من ذلك ، النظام . فكل شيء هنا يدل على ان وراءه إرادة منظّمة لكل ما يجري .

وقد شهدت يوم أمس ، السابع والعشرين من ابريل سنة ١٩١٢ ، الاحتفال بعيد السلطان . وهذه هي أول سنة لا تشارك فيها المدن الليبية في هذه الاحتفالات نظراً لاحتلال الايطاليين لها . أما في معسكرات المجاهدين التي تغص بالناس وتربض بالقرب من المدن المحتلة ، فإن الاحتفال بهذا العيد لم يسبقه من قبل مثيل . فمنذ الصباح الباكر انبعثت الحركة في كل خيمة من خيام المعسكر ، حيث ارتدى الجميع أبهى حللهم وأجمل برانسهم وأرديتهم وعمائمهم . وأخذ الفرسان يثبتون السروج على ظهور جيادهم المطهمة . وأخذت النسوة يصدحن بالزغاريد ويُهيّئن طبول الحرب . ثم انتظمت المواكب

وأخذت صفوف الفرسان تتوارد منحدرة من بين التلال وعبر الدروب الضيقة . وبدأنا نسمع شيئاً فشيئاً صيحاتهم التي أخذت تعلو مؤذنة باقترابهم .

وتجمعت فرق الطرق الصوفية و « الحضارى »[1] تتقدمها الرايات الخضراء والحمراء التي رُسم في وسطها هلال وأنجم بيضاء . وسارت في مقدمة الموكب كوكبة من الفرسان والضباط الأتراك ، ومن بينهم ممثلون عن الهلال الأحمر ، وقد كان على رأسهم جميعاً المقدّم (مصطفى كمال)[2] . واتجه الجميع الى مقر قائد الجيش المقدّم (إنفر بك) لتحيته وتهنئته .

ويُعد (أنور بك) أشهر القادة العسكريين الأتراك الموجودين حالياً في برقة ، فهو ينتمي الى أسرة السلطان العثماني الحالي ، كما أنه قد أسهم في الثورة التركية التي أطاحت بالسلطان عبد الحميد . وقد ذاع صيته خصوصاً بعد قيام إيطاليا بغزو ليبيا وذلك بالنظر الى الدور التنظيمي الذي قام به في الإعداد

---

(١) « الحضرة » – جمعها حضارى – تطلق على مواكب الطرق الصوفية او تجمعهم داخل زاويتهم في حلقة الذّكر والترنّم بالمدائح والأوراد الصوفية ، وطرق الطبول و « البنادير » حتى تتهيج نفوس المريدين المتصوفين في تلك الأثناء ، حيث تعبق الروائح المعطرة ويعلو دخان الأعرف المحروقة في المجامر فتساعد على حالة الوجد حتى يغيب الكثيرون منهم عن وعيه ؛ وهنا يقال انه « قد فني في الحضرة » – أي في الحضرة الإلهية فيما يذهبون . فاصطلاح الحضرة مشتق من الاصطلاح الصوفي « الحضور » ، وهو في مقابل « الفناء » ، أي فناء العبد في ربه . وقد اختفت هذه الشعائر وهذه الحضارى – في صورتها المبالغ فيها – من ليبيا منذ أكثر من خمسة عشر عاماً ، لإغراقها في هذه الطقوس التي هي ليست من الاسلام في شيء .

(٢) المقدم مصطفى كمال الذي يشير اليه المؤلف هنا ، سيترقى في رتبة العسكرية فيما بعد حتى يصبح مشيراً . وقد وُلد سنة ١٨٨١ . وهو قد قاد جيوش بلاده ضد الجيوش اليونانية وانتصر عليها سنة ١٩٢٢ وهي نفس السنة التي خُلع فيها السلطان العثماني ، وأصبح مصطفى كمال في السنة التالية رئيساً للجمهورية التركية . كما انه كان رئيساً للحزب الوطني التركي . وقد لُقب بلقب « أتاتورك » ، وهو يعتبر مؤسس دولة تركيا الحديثة . توفي سنة ١٩٣٨ .

المترجم



فرسان قبيلة البراعصة يمرون أمام أنور بك قائد الجيوش في معسكر عين بو منصور

لمقاومتهم هنا . وتقدم منه الضباط حيث استقبلهم داخل خيمته الرائعة التي زُينت بالتحف المصرية . وتحدث اليهم عن التقدم الذي أحرزه نضال المجاهدين منذ بدء الحرب ضد ايطاليا ، وأطلعهم على الانتصارات التي حققوها ، وعلى ما يعقده من آمال على المجاهدين الليبيين والعسكر الأتراك في تحقيق انتصارات جديدة . ثم تلى عليهم آخر البيانات الرسمية التي تلقاها من حكومته عن سير الأمور بين إيطاليا وتركيا ، حيث أخبرهم بأن الأتراك قد صدوا هجوم الأسطول الايطالي على مضيق « الدردنيل » ، وأطلعهم على ما قاله له السلطان العثماني في خطابه في افتتاح البرلمان العثماني وما أعلنه من ان تركيا ستدافع عن حقوقها في ليبيا . فرد عليه زائروه بنوبة من التصفيق الحاد .

وأعقب وفد الضباط الأتراك وفد مشايخ الطرق الصوفية الذين بلغ عددهم حوالى عشرين فقيهاً وشيخاً ؛ وكانوا يرتدون جُبباً وبرانساً جميلة ويضعون فوق رؤوسهم عِمماً محبوكة اللفـّات ، وبدت على وجوههم آثار النعمة واكتنزت أجسامهم البدينة بالشحم . والحقيقة ان هنالك فرقاً كبيراً في الهيئة الجسمانية وفي المظهر بين هؤلاء الفقهاء وبين المجاهدين الليبيين أنفسهم . فالمجاهد له جسم ضامر ، وعظام كتفيه ناتئة ، وأطرافه نحيلة ، ولقتاته مفاجئة عنيفة وعصبية فهو دائم الحركة لا يستقر به مكان . أما أمثال هؤلاء الفقهاء ومشايخ الطرق والزوايا فإنهم – على العكس من ذلك – شديدو البدانة كبيرو البطون ولهم أعصاب هادئة ووجوه نضرة .

ثم استقبل (أنور بك) بعد ذلك وفد أطفال المجاهدين ، الذين أنشأ لهم هذا القائد كتاتيباً داخل المعسكر . وفكرة إنشاء « الكتاتيب » في معسكر حربي اعتبرها من خير إنجازات (أنور بك) هنا ؛ فهو قد لاحظ عند قدومه الى هنا لأول مرة ان أبناء المجاهدين كانوا ، رغم صغر سنهم ، يتطلعون للإسهام من جانبهم في الجهاد . فما كان منه إلا ان أصدر أوامره بالبدء في تدريبهم ، ثم قرر فتح « كـُتـَّابٍ » لهم ، وقد تم ذلك في أول مارس الماضي .

ولكن سرعان ما تزايد عدد الأطفال بحيث لم يمض إلا وقت قصير حتى اضطر الى إنشاء كُتّابٍ ثانٍ خُصصت له خيمة كبيرة أخرى . ففي المعسكر الآن خيمتان كبيرتان تستخدمان كفصول دراسية تقليدية ؛ فيتردد على تلك التي أقيمت في مخيم المجاهدين الغربي أكثر من مائتي تلميذ، ويتردد على خيمة الدراسة في المخيَّم الشرقي ستون تلميذاً آخرون . وتُخصص فترة الصباح لتعليم الأطفال القراءة والكتابة ؛ أما فترة العشية فإنها مخصَّصة لتدريبهم على حمل السلاح ، وذلك بالتمرن على العصي ، بل ان تدريبهم يتم أحياناً على بنادق آبائهم الحقيقية نفسها !

ولا يقتصر دور هؤلاء الأطفال في المعسكر على التعليم والتدريب، بل إنهم يكلفون أحياناً ببعض المأموريات التي تتناسب وسنهم . فهـــم يقومون في المعسكر بدور سُعاة البريد او يكلفهم الضباط بنقل الأوامر او نقل المعلومات بين مسئول في الجيش وآخر .

وإنه لشيء رائع ان يرى المرء أطفالاً مثل هؤلاء ، وهم الذين لا تزيد أعمارهم عن ست سنوات في المتوسط ؛ ومع ذلك فإنهم يقومون بمسئولياتهم في الحرب الغريبة الأطوار . بل ان أسر المجاهدين كلها ، وليس رجالها وأطفالها وحدهم هم الذين يخوضون غمارها ؛ فحتى النساء والشيوخ الطاعنون في السن تُناط بهم واجبات ويسهمون — كل بطريقته الخاصة — في الصمود والجهاد ضد العدو . إذ لم يتقاعس عن القتال في هذه الحرب أحد من الليبيين !

ولقد شاهدت بإعجاب هؤلاء الصبية والأطفال ، وهم ينتظمون في صفوف منسّقة وطوابير منظمة ، وقد ارتدوا سراويل وقمصاناً وعمـــائم بيضاء ، وتقيّدوا بأوامر نُقباء وعُرفاء من بينهم ، حيث أبانوا عن مدى التزامهم بما كان يُصدر اليهم منها .

ثم اصطفت فرق الجنود النظاميين وجيش المجاهدين الشعبي الذين ينفردون

بلباسهم الخاص المكوّن من الرداء الصوفي[1] والطاقية الليبية الحمراء التي تتدلى منها « شنوارة البصكل »[2] أحياناً ، وفرسان قبائل البادية فوق جيادهم . واتجه الجميع نحو التلال القريبة من المعسكر استعداداً لبدء السباق والاستعراض. وعند كل صف من صفوف هؤلاء الجند أخذت النساء المحجّبات ، اللاتي كُنّ يرتدين ثياباً زرقاء طويلة ، يرددن أغانيهن وأهازيجهن ويضربن الطبول التي كانت تحمل كلّ طبلة منها — وهي عبارة عن قصعة عود مشدود عليها جلد غنم — امرأتان في حين تقوم ثالثة بينهما بطرقها في إيقاع .

وأخذ الشعراء الشعبيون يصدحون ويترنمون بأشعارهم وملاحمهم الشعبية ؛ في حين أخذ المرابطون والدراويش يلوحون براياتهم الحمراء والخضراء مرددين اسم (سيدي عبد السلام الأسمر) وغيره من الأولياء الصالحين ، او يتلون « الختمات » والأذكار الصوفية . وجلس المتفرجون من الجماهير فوق أغصان أشجار الزيتون التي كانت تنوء بثقلهم وأعدادهم الكبيرة .

وطفق مشايخ القبائل يركضون بين الصفوف بجيادهم وقد ارتفع صياحهم وطلقات أعيرتهم النارية في الفضاء .

ثم مرّ موكب القائد العام للجيش المقدّم (أنور بك) ، وتلاه أركان حربه ، حيث قاموا باستعراض وتفقد القوات المصطفة . ثم بدأت مختلف المواكب في المرور أمام المتفرجين ، تتقدمها مواكب القبائل من (براعصة) و (حاسة) و (عيلة بو منصور) .. الخ .

---

(١) « الرداء الصوفي » الذي يشير اليه المؤلف هو ما نطلق عليه بلهجتنا العامية في شرق ليبيا اسم « الجرد » وفي غربها اسم « الحُولى » . المترجم

(٢) « شنوارة البصكل » هي خيوط من الحرير دقيقة تُجمّع وتُحاك أطرافها في وسط « الطاقية » — أي غطاء الرأس — عند قمة الرأس ، وتُترك متأرجحة الى الخلف حتى تلامس مؤخرة العنق . وهي فيما أعتقد انتقلت الينا مع الأتراك وان كانت في الأصل مأخوذة عن الألبان . المترجم

ولقد سبق لي وان وصفت لكم أمثال هذه المواكب في فصول سابقة؛ ولكنني لا أملك نفسي من الإعجاب بها كلما شاهدتها كأنني أراها للمرة الأولى ، نظراً لما يغلب عليها من ألوان جميلة أخاذة وما يطفح فوق وجـــوه فرسانها من تعابير نبيلة .

إن هؤلاء البدو لا بد وان يكونوا قد بذلوا خلال الشهور المنصرمة جهوداً جبارة حتى قبلوا بما أُلزموا به هنا من نظام والتزام بحركات مرسومة منظمة ، وهم الذين عاشوا طيلة حياتهم أحراراً من القيود لا يقبلون أي نوع من أنواع القسر . لكنهم في هذا اليوم ليس لهم ، فيما يبدو لي ، سوى هدف واحد هو إرضاء قائدهم إنفر « باشا » – كما يلقبونه – فهم يعتبرون لقب « بك » أقـل جدارة به ، فمنحوه من عندهم « الباشوية » . ولقد قال لي أحد أفراد قبيلة (البراعصة) :

– « بَيك شنُو .. وباشة شنو ؟ هذا راهو ملكْ !! »[1] .

ويحاول هؤلاء البادية جميعهم ان يثبتوا لـ (أنور بك) أنهم قـد تشبّعوا بالنظام والتزموا به وأنهم لم يعودوا يقلـّون في ذلك عن عساكر جيشه النظامي . ومع ذلك فإن كل واحد منهم يحاول ، عند مروره من أمامه على أقدامه ، ان يلفت نظر (أنور بك) اليه . فمنهم من يحييه ضامّاً كفه الى صدره ومن ثم لامساً به جبينه ؛ ومنهم من يبسم له ، ومنهم من يطلق صرخة مدوية ، ومنهم من يلوّح بخنجره او غدارته او بندقيته او سيفه . ولم يكن هؤلاء الفرسان وحدهم هم الذين كانوا يفعلون المستحيل وبكل الحيل للفت نظر القائد التركي ، بل حتى الأطفال والمرابطون والدراويش يستهدفون جذب أنظاره اليهـم ملوحين بعصيّهم او أيديهم في الهواء .

---

(١) العبارة جاءت باللهجة البدوية المحلية وهي تعني بالفصحى – كما هو واضح – ما يلي : « بك ماذا وباشا ماذا ؟.. انه ملك من الملوك » أي انه يستحق ما هو أرفع من رتبته الحقيقية.

المترجم

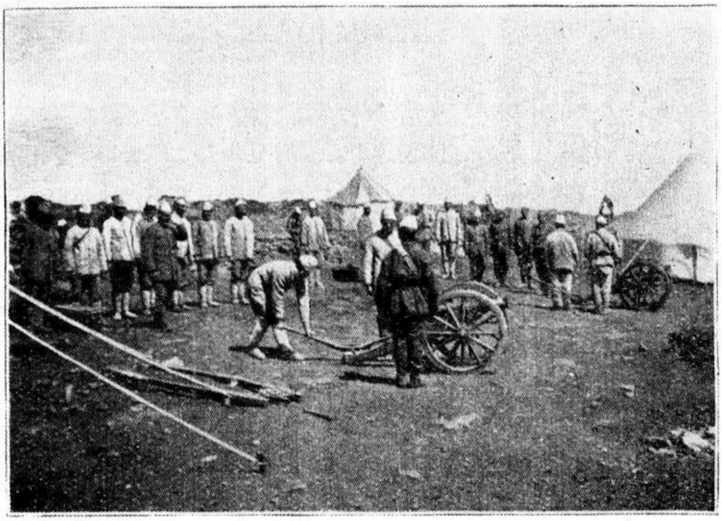
ثم مرّ موكب سلاح المدفعية وعربات الذخيرة ، وتلاهـــا مرور ثلاث مصفحات رشّاشة غُنِمت من الإيطاليين . وأخيراً مرّ موكب أطفـــال الكتاتيب المدرسية ، ثم خيّالة القبائل الذين كانت خيولهم المطهّمة تمرّ متباطئة في بادىء الأمر ، ثم ما تلبث ان تنطلق راكضة بسرعة مفاجئة مخلّفة وراءها زوبعة من الغبار الأحمر القاني .

وارتفع غبار سباق الخيول حتى غطى قمم التلال ، ثم أخذ الجميع يعودون أدراجهم الى المعسكر يقطعونه جيئة وذهاباً . ثم صُوّبت المدافع تجاه (درنة) التي يحتلها الطليان وأُطلقت قذائفها . وبعد ذلـك وقف نائب بنغازي السيد (عمر منصور باشا الكيخيا) فخطب في القبائل ، فما لبثت الصيحات ان ارتفعت متعالية من كل ناحية وهي تردد : « الله ينصر السلطان ! » .

مقابلتي الصحفية مع (أنور بك) :

وبعد الظهيرة دعاني (أنور بك) للجلوس الى جـانبه فوق المنصّة التي أقيمت له ليشهد منها حفل السباق الذي نظّم في تلك العشية بين فرسان مختلف القبائل عند الخطوط الأمامية للمعسكر .

وبينما كنت مستغرقاً في الحديث معه ومع مصطفى كمال [أتاتورك] وهو آمرُ الحامية التركية في (درنة) ، والمقدّم (نوري) ، والنقيب أركان حرب (رشيد بك) ، أخذ الناس يتجمهرون حولنا . فأخذ شرطة المعسكر يحاولون تفريقهم وإبعادهم عن المنصّة في صعوبة كبيرة ، لـكي نتمكن من مشاهدة السباق . ولكن الناس ما لبثوا ان عادوا الى التجمهر أمامنـا ، كلٌّ يتحمس لفرسان قبيلته . وما ان أعلن صوت من بعيد بـدء السباق واقتراب مرور الفرسان أمامنا حتى أصبح من المستحيل إلزام المتفرجين بالمكوث بعيداً عن حلبة السباق . ثم أقبل الفرسان متسابقين في قوة ، كل واحد منهم يبذل بالغ جهده للفوز بقصب السبق ، وفي تلك الأثناء كانوا يلوحون في الهـواء



درنة : مدفعية الجيش التركي



درنة : أنور بك القائد التركي ومعه رئيس أركانه
مصطفى كمال (آتاتورك) يستعرضان المجاهدين

بينادقهم ويطلقون أعيرتها النارية الى أعلى كلما مرّ الواحد منهم في موازاة منصّة الشرف التي جلس وسطها (إنقر بك) .

ولقد أدهشتني براعة أولئك الفرسان البدو وقدرتهم العجيبة على التحكم في جيادهم ، كما دهشت لشدة إطاعة هذه الجياد المدربة لهم . فقد كانوا ينطلقون بها بجسارة نادرة عبر ممرات وعرة أحاطت بها الصخور وامتـلأت أرضيتها بالحصى الناتيء . وكانت جيادهم من فصائل الجياد العربية النادرة ذات بُنيـة قوية تحتمل التعب والإرهاق. وقد لاحظت أنها قد تعودت على خوض المعارك ، فقد قيل لي أنه قد يحدث في بعض الأحيان ان ينزل الفارس من فوقها كي يلتحم مع عدوّه وجهاً لوجه وجسداً بجسد ، فتبقى هي واقفة تنتظره حيث تركها . بل ان العدو إذا ما حاول ان يقترب منها في أثناء المعركة ، فإنهـا تبادر الى رفسه بقدميها الخلفيتين او تنهشه بأسنانها !

وقلت لـ (أنور بك) معلـّقاً على الحفل :

— « إنه لمن المفارقات الغريبة أن أحضر إلى هنـا ، وأنا المراسل الحربي ، لا لشيء إلا لكي أشهد احتفالاً سلمياً بعيد السلطان وألتقط صوراً لهذا السباق ؛ بل إنني قد وجدت أثناء رحلتي هذه من الوقت للقيام بنزهة « أركيولوجية » بين آثار مدينة (لبدة) الرومانية وبين آثار الإغريق في « الجبل الأخضر » .

فرد عليّ قائلاً :

« .. إنك لم تشهد كل هـذا فحسب ؛ إذْ لا تنس أن أعظم دروس حربنا ما تشهده الآن وفي هذه اللحظة من تآلف بين مختلف القبائل التي هبَّت جميعها هبَّة رجل واحد للدفاع عن وطنها » .

ومرَّ من أمامنا في هذه اللحظة ذلك الفارس البدوي الذي فـاز في الجولة الأخيرة من السباق بالمرتبة الأولى ؛ وقد كان هائل البنية ، عريض الكتفين ، مفتول الساعدين ، أسمر الوجه ، صارم الملامح . فأشار إليه (أنور بك قائلاً :

— « إنه يلقّب بـ « أبي جردْ » ، وهو ينتمي الى قبيلة (البراعصة) ؛ وقد كان في الماضي من بين الخارجين على الادارة العثمانية ، غير أنـه منذ بداية الغزو الايطالي أصبح من أفضل جنودنا . زد على ذلك أن قبيلته نفسها لم يسبق لهـا في الماضي أن انصاعت كليةً للسلطة العثمانية ؛ فقد ظلت دائماً تتمرّد على سلطتنا رافضة تسديد الضرائب المقررة عليهـا . ولكن الآن — ونحن نواجه العدو الايطالي — فقد تبدّل حال هـذه القبيلة وصارت تلتزم بقوانيننا ، وأصبح في وسع القوافل التركية المحملة بالمؤن والذخائر ، بل وبالأموال أحياناً ، والتي قد تبلغ عشرة أو عشرين ألف دينار ؛ أصبح في وسعها أن تعبر مرابض هـذه القبيلة في أمن وسلام وبدون حراسة ، اللهم إلا من شرطي أو جندي واحد . إن الأمن مستتب الآن في برقة كلها ؛ وهذا أمر قد شاهدته أنت بنفسك عندما عبرتَ برقة في أعقاب عبورك لطرابلس الغرب كلها » .

وهذا حق ،فقد عبرت الأراضي الليبية من الحدود التونسية الى هنا في أمان.وقد حاول الكثيرون أن يثنوني عن عزمي ، وقال لي بعض الصحفيين الفرنسيين ، قبل أن أبدأ رحلتي : إنك لن تتمكن حتى من الوصول الى خليج (سرت) حتى يحل بك الأذى . ولكنني أقدمت على هذه المخاطرة مجازفاً ، فارتحلت على النحو الذي وصفته لكم في هـذه المذكرات ، ولم يكن لي من حرّاس سوى شرطي أو شرطيين في أفضل الحـالات ؛ بل إنني قمت بجزء من رحلتي وليس في صحبتي من الليبيين سوى أصحاب الجمال المُستأجرة . ومع ذلك فلم يتعرض لي أحد بسوء طيلة رحلتي . وقد لمست في كل نقطة توقفت بها أن السلطات المدنية والشرطة والبلديّات ومصلحة البريد والبرق تسير سيراً منتظماً عادياً ، بل وربما على نحو أفضل مما كانت عليه قبل الحرب .

ثم أردف (أنور بك) قائلاً :

— « ولكن ، وقد آلفت هذه الحربُ بيننا وبين الليبيين وأنهت ما كان بيننامن الخصومات القديمة ، فإنه يتحتم أن يكون هذا فرصة للحكومة العثمانية

كي تفكر جدياً في إدخال الاصلاحات في هذا البلد الذي قاسى الكثير من الاهمال والنسيان ، وأعتقد أن حكومتنا ستجد الآن لدى الليبيين تقبُّلاً لمثل هذه الاصلاحات ، بعد أن أبدى الناس هنا رغبتهم في تجنُّب عصيان السلطة العثمانية من جديد . وبالرغم من أن معظم المدن الليبية قد وقعت في أيدي الايطاليين ، وانتظاراً لليوم الذي سنسترجعها فيه منهم ؛ فإن الناس قد واكبوا ظروف الحرب وجعلوا من معسكرات الجهاد شبه مدن شُقَّتْ بين مخيماتها الشوارع وأقيمت في وسطها الأسواق ، وظهرت المتاجر التي طالبتُ أصحابها وتجارها أن يبنوا لها بدلاً من الخيام المؤقتة متاجر مشيدة من الأحجار . ولسوف نسعى قبل مضي بضعة أشهر الى تشييد مبانٍ لإيواء الناس وإسكانهم. أما خطوطنا التلغرافية فإن شبكاتها تعمل بانتظام في طول البلاد من الحدود المصرية حتى الحدود التونسية . هذا وإن كنتُ أعترف أن بعض خطوط هذه الشبكات البرقية تتعطل في بعض الأحيان بسببٍ من قلَّة عدد الموظفين المنوطين بها ، او نتيجة لتخريب القوات الايطالية لأسلاكها في بعض المناطق القريبة من شاطىء البحر . وقد قررنا وبدأنا في إعادة وصل تلك الخطوط بعيداً عن الشاطىء حتى لا تتعرض لتخريبهم من جديد ؛ وإن كان هذا المشروع ما زال يسير ببطء وتعثُّر نتيجة لافتقارنا الى ما نحتاجه من الأسلاك ، حيث نستولي عليها من التحصينات الايطالية نفسها . ورغم كل هذه الصعوبات فإنك قد تمكنت من أن تبعث بمراسلاتك وبرقياتك الصحفية الى مجلتك في فرنسا طيلة رحلتك كلها . وقد أنشأنا في كل معسكر كتاتيبَ مدرسية ومستشفيات. وهنالك مشروع لمدّ خط تلفوني يصل ما بين خطوط جبهاتنا الأمامية هنا وبين (السلُّوم) و (بنغازي) . ونفكر كذلك في إنشاء بريد مستعجل يُنقل بالموتوسيكلات ، كما سنستقدم في المستقبل بضع سيارات » .

فرددت على هذا القائد التركي قائلاً له :

– « إن الشيء الذي استلفت انتباهي هذا الصباح أكثر من غيره ، خلال

الاستعراض الذي مرّ من أمام منصتكم ، هو ذلك التنظيم والتدريب اللذين أصبحت تتمتع بهما فصائل القوات الشعبية الليبية نفسها ، وما توصلت إليه من قدرات قتالية نادرة في وقت قصير جداً . فهل يرجع الفضل في ذلك إلى هؤلاء المجاهدين أنفسهم أم إلى مجهودات الحكومة العثمانية ؟ وفي هذه الحالة ، لماذا لم تتجه حكومتكم الى القيام بهذا الدور قبل الآن ، بدلاً من إضاعتها لوقتها واستنفاذها لقواها – كما سبق لها وفعلت في الماضي فعلاً – في قمع قوى هذا الشعب الذي تربطه بتركيا وحدة العقيدة الدينية على الأقل ، وهذا الشعب الذي كان من الممكن ان يكون من بين أنشط قوى الدولة العثمانية . إنكم تحاولون الآن تعويض ما فاتكم ، وأعتقد أنكم يوم ان تغيروا سياستكم القديمة تجاه الليبيين تماماً ، فإنكم ستفتحون بذلك صفحة جديدة من العمل المثمر . إن العالم العربي لم ينبعث ولم يترقّ عبر كل تاريخه إلا عن طريق تحقيق الفتوحات وعن طريق تقوية مكانته الحربية وتنظيم جيوشه ، فإن تم للعالم الإسلامي هذا الإعداد الحربي فإنه كفيل بأن يحقق من جديد ما كان قد حقق مثله عبر تاريخه التليد . فإن أنتم فعلتم مثل هذا في ليبيا ونجحتم فيه ، فإنكم ستعطون للولايات والإيالات العثمانية الأخرى في إمبراطوريتكم الواسعة مثلاً يُحتذى ، ولسوف يبعث هذا في النفوس قوى كامنة يمكن للمرء ان يتكهن مقدماً بمدى ما تنطوي عليه من قوة . فتركيا الفتاة وقد أثبتت منذ ثلاث سنوات على قدرتها ان تُحدث ثورة في مؤسساتها الدستورية قادرةٌ الآن على ان تُثبت أيضاً أنها تستطيع تنظيم نفسها وإحياء هذا العالم العربي المتلهّف لتقبُّل وتمثُّل التّجديد والتغير والتحول الحضاري ربما أكثر من الأتراك أنفسهم » .

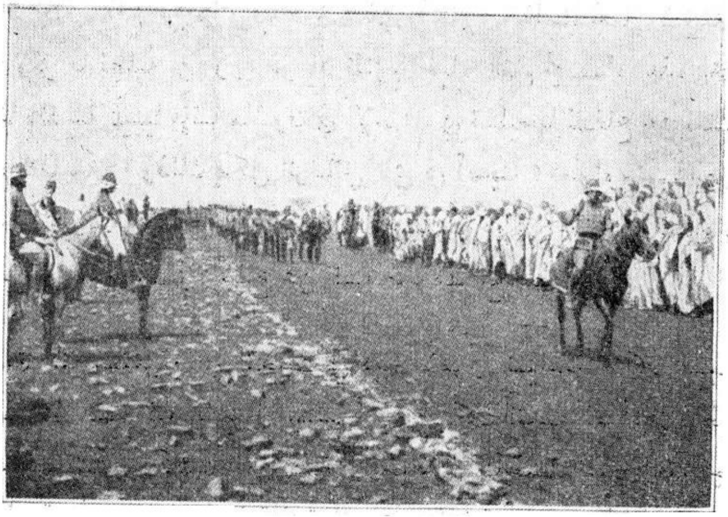
وبعد ان أسررت لهذا القائد العثماني بمدى إعجابي بجهاد الليبيين واستبسالهم وبالبوادر المشجعة التي تدلُّ على إمكانية تغيير الدولة العثمانية لسياستها تجاههم على يديه هو وزملائه القادة والضباط الأتراك في طرابلس وبنغازي ؛ سمحت لنفسي بأن أضيف ما يلي :

– « ولكن هل تدري ما الذي يدور في ذهن أوربا حول كل ما يجري الآن

في ليبيا ؟ فأنا قد أمضيت الآن قرابة خمسة أشهر أتنقل عبرها بين كل جهات قتالها مع العدو عبر امتداد التراب الليبي كله ؛ وباعتباري أنا نفسي أوربي فإنه يخيل إليّ أنني أفهم بعض جوانب المسألة . أفلا تعتقدون ان أوربا ترى أنكم لو حققتم على الإيطاليين انتصاراً حاسماً في ليبيا — وهذا أمر ما يزال ممكناً — فإن ذلك سيجعلكم في نظر كل دولها دولة قوية قـادرة على تحقيق انتصارات أخرى على الجبهة الأوربية نفسها ؟ فمخيِّلة عامّة النـاس سواء في الغرب او في الشرق تبهرها الأحداث الفجائية والانتصارات الخـاطفة ، حتى ولو جهلت حقيقة بواطن الأمور ، فالأحداث المفاجئة تجسِّد فيها الشعوب مخاوفهـا وتوقعاتها . وعندنا في الغرب ألاحظ أنه كلمـا تطرق الحديث الى الشرق الإسلامي ، فإن أول ما يمرُّ بالخـاطر هي « الحرب المقدسة » و « الحروب الصليبية » وغير ذلك من الأوهام التي تُوحي بها العصبيات الدينية ، تماماً كما يتحدث عامّة الناس عن مفهوم « الثورة » او مفهوم « الاشتراكية » دون ان تفقه عقولهم مدلولات هذه المفاهيم بالتحديد . فهنالك بعض الصحف الفرنسية التي ذهبت الى حد القول بأن تركيا لو كسبت حربها ضد ايطاليا عن طريق دعمها لجهاد الليبيين ، فإنها ستصبح خطراً مباشراً يهدد فرنسا في مستعمراتها الإفريقية ، ولذا فإن المهيمنين على تلك الصحف في بلادي يتمنون طبعاً ان تكسب ايطاليا هذه الحرب الدائرة » .

وردّ عليّ (أنور بك) قائلاً :

— « إنني كما تعلم رجل عسكري ، ولم أكن طيلة حياتي ولا أريد ان أكون سوى عسكرياً . وقضايا السياسة الدولية ليست من اختصاصي ، فأنا مكلّف هنا بأمور أخرى . ولكنك أنت نفسك في إمكانك — فيما يبدو لي — ان تُدلي بشهادة شخصية لأهل بلدك . فأنت كمسيحي أوربي أعزل ووحيد وسط هـذا البلد المسلم الواسع الأرجاء ؛ هل حدث لك وان سمعت فيه أننـا نحن الأتراك نستعد لخوض حرب أخرى غير هذه التي تدور بيننا وبين الايطاليين ؟ أضف



درنة : العسكر النظامي التركي يمر أمام أنور بك يوم عيد
السلطات العثماني ، وعلى رأسهم النقيب منتره بك



مطربات البادية وضاربات الطبل في موكب اثناء
مرووهن أمام القائد أنور بك

الى ذلك أننا ندافع عن هذه البلاد ضد غزو أجنبي . فلسنا نحمل ضغينة لأحد آخر ، وكل ما نطلبه من أوربا هو ان تلتزم الحياد التام تجـــاه هذه القضية . ولكننا بالنسبة لليبيا فإننا ماضون في الإسهام في تسليحها للدفاع عن نفسها ضد مطامع الطامعين ، وذلك بكل الوسائل التي في أيدينا ، سواء منهـا العواطف الدينية او غيرها . ونحن قادرون على ان نرغم أية دولة أخرى لا تلتزم بالحياد باحترام حق هذا البلد في الدفاع عن نفسه ضد مطامع ايطاليا » .

وبينما كنا مستغرقين في التحدث في هذه الأمور السياسية ، كان السبـــاق والتنافس على الفوز فيه ما يزال مستمراً ، وان كان التعب قد أنهك الجياد من طول ما تسابقت وركضت بين الصخور الجبلية ؛ فأخذت تعلن احتجاجها على فرسانها برفع أرجلها الأمامية قافزة الى أعلى رافضة التقدم رغم لسعات سياط راكبيها الذين كانوا يريدون إرغامها على المرور من جديد مرّات ومرّات أمـــام منصة القائد التي كنت أجلس الى جانبه فوقها .

ثم قام (أنور بك) وأخذ يوزّع الجوائز على الفائزين. وتلك مهمة صعبة !! فكل فارس كان يصرّ على أنه هو الذي كسب السباق ، وأصبح كل واحد منهم يطالب بالجائزة الأولى . وعلا الصخب والعراك بعض الوقت ، ولكن ما لبث الجميع أن هدأوا فجأة بمجرد إيماءة من القائد التركي الذي غـادر المنصّة وأنا بمعيته ، فأفسح لنا الناس الطريق .

وفي المساء أُوقدت النيران أمام خيام المعسكر واستمر إطـلاق العيارات النارية في الهواء متواصلاً ، وتجمهر الناس في حلقـات حول الشعراء والمطربين الشعبيين وارتفع خبط الأيدي الإيقاعي العنيف وترديد الأهازيج البدوية التي كانت تمجّد شجاعة المجاهدين وترثي شهداءهم ، وكلٌ في حـالة من التهيج الذي تبعثه الحروب عادة في نفوس البشر .

معسكر عين بو منصور في ١٠ مايو ١٩١٢

أما عن الإيطاليين، فإنهم ما زالوا صامتين قابعين خلف تحصيناتهم في مدينة (درنة) . بل إنهم قد كفّوا عن إرسال دورياتهم الاستطلاعية تماماً . إلا ان خنادقهم وقلاع تحصيناتهم وأسوارهم الدفاعية تزداد كل يوم في عددهـــا وفي ضخامتها ومناعتها . وقد أقاموا فوق أسوارها تجهيزات ناتئة وأسلاكاً شائكة يستحيل تسلّقها .

وخرجت اليوم للتجوال فيما وراء المواقع الأماميـة للمجاهدين ؛ فأدهشني وجود مرتفع يشرف على المنطقة كلهـا ولا يبعد عن تحصينات الايطاليين إلا بمسافة اثنين من الكيلومترات ، ومع ذلك فانهم لم يفكروا بالإستيلاء عليـه ! ولو فعلوا لأصبح على معسكر المجاهدين ان يتعرض لنيرانهم مباشرة. ثم تقدمت بعض الشيء ، فاكتشفت أنه يفصلهم في الحقيقة عن ذلـك المرتفع واد عميـق يصعب اجتيازه . وحيث ان تكتيك الايطاليين مبني على عدم المجـــازفة او المخاطرة بقدر الامكان، فانهم لذلك قد قنعوا بالتطلع الى ذلك المرتفع الطبيعي من بعيد .

ولكن ألا يخشى القادة الإيطاليون ، وقد اختفى جنودهم خـــلال أشهر طويلة وراء أسوار تحصيناتهم في (درنة) ، ان يثبّط ذلك عزائمهم ويفتت قواهم المعنوية والنفسية ؟ أليست حالة الجيش الايطالي الآن شبيهة بحالة إنسان مصاب بالوساوس وأمراض الوهم، فهو يقضي وقته في الحيطة والحذر خشية ان تصيبه الأمراض او تحل به الحوادث فيذهب ضحية لها ، ولذا فانه يظل مختفياً منفرداً بنفسه ولا يفعل شيئاً سوى تعاطي الأدوية الوقائية ؟!

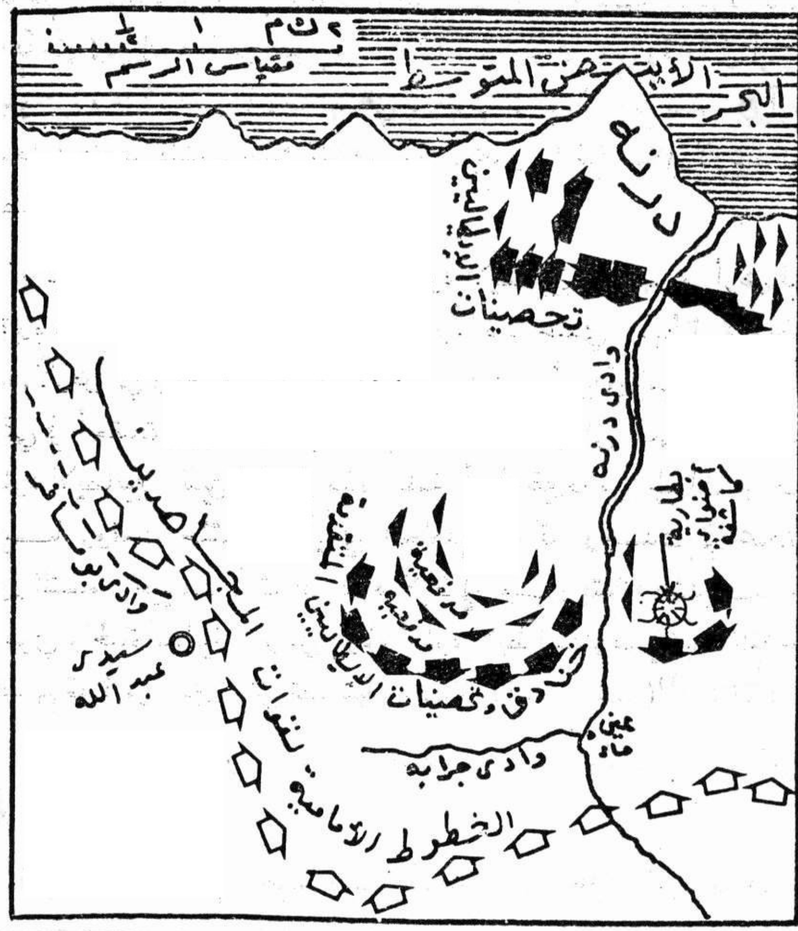
فالإيطاليون هنا يكتفون بفتح نيرانهم وإطلاق قذائفهم على كل مجموعة من المجاهدين تجازف بالاقتراب من تحصيناتهم ، او على أية قافلة إبل او أي قطيع من الأبقار يتقدم نحوهم بحثاً عن المرعى والكلأ .

بل إنني قد علمت أن الايطاليين — ربما اقتصاداً في ذخيرتهم التي طالما استنفذوها في البداية اعتباطاً وهدراً — أصبحوا في الآونة الأخيرة لا يفتحون نيرانهم إلا كلما ارتابوا في أن المقترب من تحصيناتهم قد يكون ضابطاً من ضباط الجيش التركي الكبار ، ربما (أنور بك) بنفسه . وقد حدث فعلاً ان انفجرت مرة على مقربة من هذا القائد شظايا قذيفة ، وذلك بينما كان يقوم بتفقد الجبهة الأمامية ، حيث لمحه القنّاصة الايطاليون . وبالفعل فإنه قد انتشرت في أعقاب تلك الحادثة في صحف أوربا إشاعة مقتله .

وروى لي (رشيد بَيْ) كيف كان يقوم بجولات ليلية في (وادي درنة) حيث كان يجازف بالذهاب متطوعاً لتخريب أنابيب المياه وقطعها عن المواقع الايطالية . فقد كان يتجه تحت جنح الظلام في صحبة ضابط تركي آخر وفي صحبتهما بضعة جنود ، الى ان يصبحوا على بعد خمسمائة متر فقط من التحصينات الايطالية .

فكيف لم يفكر الايطاليون في إرسال إحدى فرقهم لقطع خط الرجعة عليهم ومن ثم أسرهم ؟ وقد أخبرني نفس الضابط أنه قد ظل يتجول مع رفاقه قرب مواقع العدو إلى ما بعد الفجر في إحدى المرات ؛ وهنا أسرع الايطاليون الى نقل اثنين من مدافعهم الى أعلى القمم المشرفة على (وادي درنة) وأخذوا يطلقون عليهم قذائفهم طيلة النهار التالي الذي أعقب ذلك الفجر ؛ فما كان منه ومن رفاقه الا ان احتموا وراء الصخور مطمئنين وطفقوا يقتلون الوقت في شرب الشاي ! او في النوم ، وذلك الى ان حلّ المساء ، وهنا انسحبوا بطمأنينة الى معسكرهم فوصلوه سالمين ، ولكن دون أن يفوتهم إطلاق بعض العيارات النارية في الفضاء لتحطيم أعصاب الايطاليين الذين لم يعودوا يدرون أين اختفوا عن أنظارهم طيلة النهار .

وقد ذكر لي الضباط الأتراك هنا ان الجنود الايطاليين ينقصهم فيما يبدو التدريب الكافي والإلمام الحقيقي والتمرّس بفنون القتال الحديثة ، كما انه تنقصهم



الموقف الحربي حول درنه في مايو ١٩١٢

الأسهم السوداء تبين مواقع وتحصينات الإيطاليين ، والأسهم البيضاء تبين مواقع المجاهدين وخطوطهم الأمامية

الرغبه المخلصة بالتضحية بالأنفس في حرب يعرفون في قرارة أنفسهم أنها لا تجدي نفعاً لهم ولا فائدة من ورائها لوطنهم إيطاليـــا، لأنها لا تمسُّها مباشرة وليست دفاعاً عنها؛ بل إن هذا هو نفس ما يعترف لنا به أسراهم الذين وقعوا في أيدينا، وما يكرره هؤلاء الجنود في رسائلهم التي يوجهونها الى ذويهم ويقع بعضها في أيدي المجاهدين عندما يفتشون جثث قتلاهم الذين لم يجدوا الوقت الكافي لارسال تلك الخطابات الى أهلهم .

والواقع : ما فائدة تضحية هؤلاء الجنود الايطاليين بأنفسهم على أرض ليبيا الفقيرة ما دامت الحياة حلوة في إيطاليا ؟ وما دام الجندي الايطالي لا يربطـه بهذه الأرض اي رابط فهو باقٍ على مضض وما يزال يأمل في العودة إلى إيطاليا ليرتمي في أحضان زوجة أو عشيقة جميلة . ولقد تناهى الى سمعي هنا ان جميع الجنود الايطاليين الذين قتلوا في هذه البقعة أو في غيرها من الجبهات على طول ليبيـــا ووقعت جثثهم في أيدي المجاهدين – قد وُجـدت في محافظهم صور النساء والحبيبات . ثم ان الفرد الايطالي مشهور بتعلقه الشديـــد بالجو الأسري والحياة العائلية . ولعل هؤلاء الجنود الايطاليين وهم يرهبون التضحية بأنفسهم قد فهموا العبرة التي تضمنتها عبارة (إرنست رينان)[1] القائلة :

– « ان الذين يخسرون الحروب حقيقة هم وحدهم اولئـــك الذين ذهبت أرواحهم ضحية لها » .

نعم! ان الموت لشيء فظيع بالنسبة لأولئك الجند الطليان الذين تعودوا على

---

(١) (إرنست رينان) هو كاتب فرنسي شهير ومفكر عميق الفكر ، ولد سنة ١٨٢٣ ، وانخرط في مطلع حياته في سلك الرهبنة ثم أشهر إلحاده وخروجه على الكنيسة وأخذ يكرس حياته لدراسة اللغات والأديان دراسة شاملة . وهو في كل تفسيراته مظاهر الأديان ينطلق من موقف علماني يلتزم بالنزعة العقلانية الصارمة. وقد أودع أفكاره وآراءه الفلسفية كتاباته العديدة التي من أشهرها ما يلي : « مستقبل العلم » ، و « تاريخ أصول الديانة المسيحية » و « مذكرات طفولة وشباب » وقد ضمّنها الاسباب الفكرية التي انتهت به إلى الإلحـــاد والكفر . وقد توفي (رينان) سنة ١٨٩٢ .
المترجم

رغد العيش ، وخصوصا بالنسبة لأولئك الذين يشكـُّون في وجود حياة أخرى بعد المات من بينهم .

ولعل القارىء [الفرنسي] يذكر قصة ذلك قصة الجنرال الفرنسي الذي زار مدينة (نابولي) في النصف الثاني من القرن الماضي ، حيث استقبله جنرال المدينة الايطالي الذي أخذ يستعرض أمامه الحرس الملكي التابع لملك (نابولي) فأبدى الجنرال الفرنسي إعجابه بالحرس الايطالي قائلاً :

– « يا لهم من حرّاس رائعين ! .. فمن قامة فارعة إلى لباس أنيق ! » .

فردّ الجنرال الايطالي مستدركاً يقول :

– « ومع ذلك فإن لهم عيباً كبيراً ! » .

فرد الآخر :

– « اي عيب هذا ؟ » .

فأجاب الآخر :

– « انهم شديدو الذكاء » .

فرد الفرنسي :

– « ولكن شدة الذكاء ليست عيبا من العيوب فيما أعلم ! » .

فأجاب الايطالي :

– « بلى ، بلى إنه لعيب كبير ، فالجندي ان كان شديد الذكاء فإنه يتحاشى تعريض نفسه للموت كلما استُدعي لخوض الحرب في حملة عسكرية لا يفهم القصد الحقيقي من وراء القيام بها » . !

ذكرت في نفسي هذه القصة ، ثم تفكرت في امر الليبيين الـــذين هم على العكس من هؤلاء ، لا قيمة للحياة الدنيا عندهم ، فهم يؤمنون بأن الذي يستشهد

منهم في ساحة الجهاد سيفتح له استشهاده فيها باب الجنّة يحيا فيها حياة أخرى أدوم وأنعم وأبقى .

لقد وقعتُ خلال الأيام الأربعة الأخيرة فريسة لحمّى شديدة ، وقد نُقلت الى خيام الهلال الاحمر حيث احــاطني اطباؤه الدكاترة (ناصر فريد بَيْ) و (كمال بَيْ) بعنايتهم الى ان شُفيت منها تماماً. ولقد أُحضر الى المستشفى أثناء إقامتي بخيمته بعض الجرحى الليبيين ، حيث كانت تُجرى لهم عمليات جراحية او تُستخرج بالمباضع من أجسامهم شظايا الرصاص دون ان يُحقنوا بمفعول البنج المخدّر . فكانوا يقاومون آلام المباضع فوق أسرّة العمليات بصبر وشجـاعة نادرين ، وكلما برّحت الآلام بأحدهم فإن كل ما يفعله هو ان يرفع إصبعه لافظاً بخشوع وصبر : أشهد ان لا إله إلا الله محمد رسول الله [ﷺ] .

وصل الى معسكر (عين بو منصور) يوم الرابع من هذا الشهر رئيس تحرير جريدة (النيل) المصرية (المسيو كولرات) وبرفقته زوجته ؛ كما وصلت معهم إحدى ممرضات الصليب الاحمر (مدام ڤينسان) . وقد أحدث وصول هاتين المرأتين الفرنسيتين الى هنا تأثراً كبيراً بين الناس وأكبروا فيهما تطوعهما لعلاج المرضى والجرحى من المجاهدين .

وفي يوم الثامن من مايو الحالي اختفى الملازم الانجليزي (جون سمولوود) الذي سبق له وان أشهر إسلامه واختار لنفسه اسماً جديداً هو (عثمان أفندي) ولا يشك أحد هنا في ان الايطاليين هم الذين اغتـالوه . إذ ان بعض الليبيين الذين أُرسلوا لتقصي أخباره وتتبع أثره قد وجدوا بقعاً كبيرة من الدماء على بعد خمسين متراً من موقع التحصينات الايطالية حول (درنة) .

ولقد كان ذلك الانجليزي المسلم شخصية فريدة في نوعها ، فهو أشقر الشعر ، شديد النحافة ، وأنفه كُسرَ أثناء مباراة للملاكمة ، أمــا جسمه فهو مكسو بالوشم من عند رأسه حتى أخمص قدميه . وكان يتمتع بشجاعة نادرة وينظر



ممرضة فرنسية وحولها أطباء وممرضو الهلال
الاحمر المصري قرب درنة



أطفال وصبية كتّاب معسكر عين بو منصور
ينصتون الى إحدى خطب أنور بك

الى الحياة كما لو كانت لعبة رياضية . وكان يصرُّ كل يوم على تحقيق أمثلة جديدة على ما يتمتع به من الجرأة والإقدام. فكان يذهب مثلاً في وضح النهار فيجلس تحت وابل رصاص الايطاليين ويستغرق أثناء ذلك بلامبالاة في إعداد الشاي ؛ او يتسرَّب تحت جنح الظلام داخل مدينة (درنة) نفسها او داخل التحصينات الايطالية .

وفي المرة الاخيرة التي غادر فيها المعسكر في صحبة أحد البادية فلم يعد اليه، كان يزمع التقاط صور فوتوغرافية قريبة لتحصينات الايطاليين في (درنة) تحت ضوء القمر ، واعداً لي بأن يهديني تلك الصور لكي أنشرها في مجلة « المصور » . وإنني لأتصور أنه قد اقترب من المواقع الايطالية بحيث لم يعد يفصله عنها إلا عدة أمتار؛ ولا ريب عندي في أنه قد نصب عندئذ «الكَمِرة» التصويرية فوق حاملها ذي الثلاثة قوائم المنغرسة في الارض ، وظل قابعاً عندها فترة طويلة يهيئها لالتقاط الصورة أوتوماتيكياً ، ولعل ضوء القمر قد انعكس في تلك الاثناء على عدسة آلته او على جدرانها المطليَّة بمعدن النيكل اللامع فأدى مرآها الى لفت انتباه الحراس الايطاليين . ولذا فانه – فيما أتصور – عندما عاد الى آلته بعد حوالى ربع الساعة وقد قامت بالتقاط المنظر أوتوماتيكياً ، فلا بد ان القناصة قد أطلقوا عليه في تلك اللحظة نيرانهم هو وزميله الليبي عن قرب ولا بد أنهما ، وقد أصيبا بجروح مميتة ، قد حاولا ان يزحفا راجعين الى المعسكر فوقعا في هُوَّة الوادي حيث يحتمل ان يكون الايطاليون قد وجدوا جثتيهما في اليوم التالي فنقلوهما الى مدينة (درنة).

تلك هي الافتراضات التي تكهنَّا بها هنا طبقاً للمعلومات التي أمدنا بها من ذهب لتقصي أثرهما ، وبناء على وجود بقع الدماء التي عُثر عليها في المكان الذي يُعتقد انهما قد أصيبا فيه .

وفي المساء تجمع الناس في حلقات من جديد حول شاعر شعبي من شعراء

قبيلة (البراعصة) حيث ألقى قصيـــدة رثاء أبّن فيها هذا الانجليزي المسلم ورفيقه الليبي .

وصحبني (رشيد بَيْ) لزيارة الموقع الذي جرت فيها المعارك التي تمت حتى الآن بين المجاهـدين والغزاة الايطاليين منذ بداية الحرب . وطفق هذا الضابط التركي يحلل لي الكيفية التي سارت عليها تلك المعارك ذاكراً لي كل تفصيلاتها ، وللأسف فإن شروحه كانت من الاستفاضـــة والاستطراد بحيث يستحيل عليّ تسجيلها هنا بكل تفاصيلها . ثم انتقل بي الى ما بعد الخطوط الأمامية بقليل ، حيث أخذت أجوب معه التل الذي قامت فيه قبيلة (الشواعر) يوم الرابع والعشرين من نوفمبر ١٩١١ – اي في نفس اليوم الذي وصل فيـــه القائد التركي (أنور بك) – بالالتحام مباشرة مع سرية إيطاليـة كانت تقوم بحماية مؤخرة جيش العدو فأفنتها عن بكرة أبيها وقد شاهدتُ بعينيجثث جنودها الايطاليين ما تزال هياكلها مبعثرة في العراء هنا وهناك . ثم واصلنا سيرنا حتى اقتربنا من ضريح المرابط (سيدي عبدالله) الذي قامت حوله معركتـــا يوم ٢٧ ديسمبر ١٩١١ ويوم الثالث من مارس سنة ١٩١٢ ؛ وتُعدان أهم المعارك التي تمت بين الايطاليين والمجاهدين هنا حتى الآن ، حيث ترك الايطاليون جثث العديد من ضباطهم وفروا تاركين عدداً من المدافع الرشاشة .

ثم ازددنا توغلا إلى الأمام ، حيث تمكنتُ من شاهـــدة الحصن الايطالي المشرف على جناحهم الشرقي ، والذي قام بتسلقه يوم الثامن عشر من ينـــاير الماضي أحد ضباط الصف الأتراك ليلقي من فوقـــه قنابل متفجرة، غير أن الايطاليين قبضوا عليه أسيراً . ثم شاهدت حصن جناحهم الغربي الذي هاجمته يوم الحادي عشر من فبراير الماضي قبيلتا (الحاسة) و (البراعصه) . وقـــد استبسل في القتال في تلك المعركة على الخصوص الشيخ (المبروك البرعصي) الذي ألقى بنفسه بين الأسلاك الشائكة التي نصبها الإيطاليون حول تحصيناتهم ، محاولاً اقتلاع أوتادها وأعمدتها من الأرض لإحداث ثغرة بهـا ؛ ولكن نظراً لضخامة تلك الأوتاد والأعمدة فإنه لم يتمكن وحده من اقتلاعها، فما كان منه إلا

ان قبض بيديه على أحدها ولفّ ساعديه حوله طالبا من صحبه المجاهدين أن يسحبوه بقوة نحوهم من أقدامه ، مما مكنّه في النهاية من اقتلاع ذلك العمود وإحداث الثغرة في تخوم العدو .

ثم بادر مرافقي التركي فقدمني الى الضباط الألمان الأربعة الذين تطوّعوا هنا للقتال في صفوف المجاهدين وظلوا يحاربون الى جانبهم منذ شهر مارس الماضي . ثم أخذ (رشيد بَيْ) يطلعني على الوثائق والأوراق التي وجدت فوق جثث القتلى الايطاليين، فوجدتُ من بينها خطابات عاطفية ، وكراسات مذكرات يومية ، وديوان شعر مخطوط ألفّه صاحبه وهو ضابط صف إيطالي وسجل فيه بالأبيات الشعرية الموزونة جميع الأحداث اليومية التي كانت تمر به منذ ان غادر مدينته (قاطانيا) في جزيرة صقلية، مبيّناً بالأشعار كيف ودّعته أمه وأسرته ، كما يصف فيها حياته في المعسكر الإيطالي في (درنه) . أما آخر قصائد ذلك الديوان فإنها عبارة عن تحية وداع لزوجته وأطفاله كأنما كان يتوقع موته القريب .

وقد علمتُ أن جميع محافظ النقود التي وُجدت على جثث الضباط الايطاليين الذين قتلهم المجاهدون في المعارك — قد تم إرسالها الى السفارة الألمانية في روما وهي السفارة التي ترعى المصالح التركية في إيطاليا ، ومعها جميع النقود والأشياء الثمينة التي وُجدت بحوزة أولئك الضباط المقتولين .

وإنه ليسعدني أن أشير إلى هذه الواقعة التي تدل على مدى نبل المجاهدين واحترامهم لممتلكات الموتى وتركتهم حتى وإن كانوا ألدّ أعدائهم وجاءوا إلى هنا للاستيلاء على بلادهم .

وأنا أعرف أن الضباط الأتراك ورؤساء المجاهدين قد تعرضوا لحملاتٍ مغرضة في الصحافة الغربية منذ بداية هذه الحرب . ولكنني — وقد عشت بينهم وبين جنودهم ومقاتليهم طيلة قرابة خمسة أشهر، منذ أن وطئت أقدامي أرض هذا البلد فإنه لايسعني إلا أن أشهد فيهم بالحق وأن أبدّد بقلمي كل ما قيل عنهم



الشيخ يادم يطلق نار بندقيته على تحصينات
الايطاليين



قائد مجاهدي «البراعصة» التركي وإلى
يساره الشيخ « العلمي »

زوراً وبهتاناً في بعض الصحف الغربية . فالليبيون والأتراك قد عاملوا أسراهم من الإيطاليين معاملة كريمة ، وهذا أمر وقفت عليه أنا بنفسي وسمعت التنويه بـــه من أفواه الأسرى الإيطاليين الذين التقيت بهم شخصياً . كما لاحظت أن هؤلاء القوم عندما يتحدثون عن عدوهم فإنهم يذكرونه ويصدرون أحــكامهم عليه على ضوء قدراته القتالية بكل تجرد .

وقد يقول قائل إنهم قد أثـّروا فيّ بدعاياتهم وبكرمهم وحاولوا انيصوروا لي الأمور بغير حقيقتها حيث أنني أجنبي عابر سبيل . ولكن لو كان الأمر كذلك فإنه ما كان لينطلي عليّ طيلة أربعة أشهر كامــلة وأكثر ، حيث عشت بينهم في السرّاء والضرّاء كأنني فرد منهم ، وحتى في أقسى الظروف . إنــني أصف ما أشاهده بعيني . إذاً ما هو السبب الذي يدعوني للتحيز لهم وأنا فرنسي لا أمتّ لهؤلاء القوم بصلة عرقية ولا بوشيجة دم ولا برابطة في العقيدة الدينية او غيرها ؟

درنة في ١٠ مايو ١٩١٢

إنني على أهبة الاستعداد لمواصلة رحلتي ، ولا يعرقـــل سفري ويؤجله إلا انتظار إبلي التي أرسلتها منذ وصولي الى معسكر (عين بو منصور) الى منطقة (المكيلي)[1] التي تتوفر فيها المراعي ، فالمراعي هنا حيث أُوجد غير متيسرة والمنطقة شبه قاحلة . فما زلت أنتظر عودتها من هناك ، وهذا قد يقتضي مني انتظار أسبوع آخر .

---

(١) تقع (المكيلي) الى الجنوب من درنة عند منطقة « بلاطة الرملة » في الطرف الجنوبي الشرقي للجبل الأخضر حيث ينتهي وتبدأ المناطق القاحلة نسبياً . المترجم

إن أوجه التنظيم والاستعداد والتدريب تزداد في معسكر المجاهدين يوماً عن يوم . حيث يتم إنشاء السرايا والفرق النظامية للجيوش على قدم وساق ويتم تسليحها شيئاً فشيئاً بأساليب حديثة . فقد بُدىء في توزيع بنادق « الموزر » الالمانية المهرّبة على المجاهدين ، الى جانب البنادق والأسلحة الايطالية التي يغنمها المجاهدون من عدوهم كل يوم .

وكما يلاحظ القارىء في الصور الفوتوغرافية التي أرفقها بالكتاب ، فإن المقاتلين من البادية قد صاروا ينتظمون في كتائب نظامية ويتلقون يومياً مختلف التدريبات العسكرية التي تزيد من قدراتهم القتالية . وقد أنشأ (أنور بك) في (عين بو منصور) مصنعاً صغيراً لصنع الخراطيش وأصبح هذا المصنع قادراً على توفير ذخيرة كافية . ويتلقى كل مجاهد يومياً مبلغ قرشين تركيين وحصة من دقيق الشعير . ويُقسم المجاهدون الى مجموعات تتراوح ما بين عشرة وعشرين فرداً وتسكن كل واحدة منها في خيمة . وقد خُصصت لكل مجموعة منها امرأة مكلّفة بطبخ طعامهم وغسل ملابسهم ، ويُطلق عليها اسم «نفّاقه»[1] . ويترأس كل فرقة من هذه الفرق الصغيرة عسكري برتبة عريف او برتبة رقيب يعينه شيخ القبيلة التي يتبعها أفراد تلك الفرقة . وتنضوي هذه المجموعات

---

(١) جاءت بالعربية في الأصل الفرنسي . والكلمة عربية صميمة وهي مشتقة من الإنفاق أي ما يُصرف من النفقات . و (النـّفـّاقة) هي امرأة كهلة ، غالباً ما تكون بدون عائل يعولها كزوج او ولد ، ولذا فإنها تنخرط في خدمة مجموعة من الرجال العزّاب لطهي طعامهم وغسل ثيابهم . وأكثر استعمال للفظة في العادة هو اطلاقها على (النـّفـّاقة) التي تخرج مع مجموعة الحصّادين وقت الحصاد ، حيث يقومون هم بحصاد الزرع وتقوم هي بشئون أكلهم . ولذا فإنه يطلق على الحصّاد في هذه الحالة « الربّاع » لأنه يخصص له ربع ريع الزرع الذي يحصده ، وان كانوا مجموعة فإنهم يقسمون الربع الذي يعود عليهم فيما بينهم .

انظر كتاب الاستاذ (جاك بيرك) التالي بالفرنسية :

Jacques Berque : « Études D'histoire Ruale Maghrébine » - 1938 .

المترجم

الصغيرة من المحاربين تحت مجموعات أكبر تضم خمسين شخصاً يترأسهم شيخ من مشايخ البادية يتلقى راتباً أعلى قليلاً من رواتب الأنفار . وتُشكّل هذه المجموعات الأكبر بدورها سرايا ، بحيث تتكون كل سرية منها من مائة وخمسين مجاهداً على رأس كل منها ضابط تركي يعاونه اثنان من ضباط الصف عن كل قبيلة ، هذا الى جانب ضابطين آخرين يُكلف أحدهما بالشئون الادارية ، ويضم اليهم أحد الوعّاظ الدينيين .

وتتلقى أسر الشهداء الذين يستشهدون أثناء المعارك مع الايطاليين ، كل أسبوع ، مبلغاً صغيراً من المال ومؤناً .

وقد لاحظت ان الحرب لم تتسبب في الإخلال بهيكل الحياة الاقتصادية التي تعودت عليها من قبل قبائل البادية . فقد بقيت كثير من الأسر في أنجعها وقراها في الدواخل وخصوصاً النساء والأطفال . أما الرجال ، فإن كل أسرة تبعث عدداً من أبنائها للإسهام في الجهاد والذود عن حمى الوطن ، ثم يعود هؤلاء الى ديارهم بعد فترة من الوقت ليعملوا في حقولهم فيزرعوها او يحصدوها ويباشروا رعي مواشيهم وقطعانهم ، في حين يحل محلهم فوج آخر من ذويهم ، وهكذا ، بالتناوب . بحيث لاحظت ان عدد المجاهدين في المعسكر لا ينقص أبداً بل يزداد دون ان تتضرر مصالحهم الاقتصادية في الدواخل .

ولا تضحكوا او تسخروا ان أنا أخبرتكم ان أهم إصلاحات القائد العثماني (أنور بك) هنا هي تلك التي تمت في مجال ابتكار القبعات وأغطية الرأس !!

فلقد لعبت مشكلة القبّعات في تاريخ تركيا دوراً كبيراً ، وهذا أمر مضحك حقاً ! فلقد حدث أنّ أحد سلاطين دولة بني عثمان قد قرر استبدال العمامة كغطاء رأس رسمي للاتراك بالطربوش « العصملي » الأحمر . وكاد الأمر ان يؤدي في تركيا الى ثورة ، إذ سرعان ما اكتشف الأتراك ، بعد تنفيذ أمر السلطان واختيار الطربوش غطاء رأس رسمياً ، أنه قبيح الشكل وان وضعه فوق الرأس

يثير السخرية كما أنه غير عملي في البلدان الممطرة ولا يقي من حرارة الشمس في البلاد الحارة . ثم انه يمثّل – وهذه هي الطامة الكبرى – تقليـــداً أعمى لليونانيين الذين عرفوه قبل الأتراك ! وطبعاً ، ونظراً للكراهية التقليدية بين الأتراك واليونانيين ، فإن تقليد العثمانيين لهؤلاء الأعداء اعتُبر في نظر العامّـة مساساً بالكرامة الوطنية لا يصحّ . ومع ذلك فقـد أصرت الحكومة العثمانية على قرارها بجعل الطربوش لباس رأس قومياً . وقد أدّى الجدل حول هـــذه المسألة الى معارك دامية في شوارع القسطنطينية منذ عامين فقط ! كما أنه قـد حدث عندما كانت مقاطعة (مقدونيا) تابعة للامبراطورية العثمانية ان أحضرت حكومة السلطان اليها بعثة من الضباط البلغاريين لتنظيم جهاز الشرطة العثمانية بها وتطويره . وهنا حدث جدل طويل حول مشكلة غطاء الرأس الذي يتحتم ان يلبسه هؤلاء الضباط الأوربيون . فهل يرتدون الطربوش ؟ أم « الشاشية » التونسية ؟ أم « الكلبك » ؟ أم القبعة الأوربية ؟ وكاد الأمر يقـود الى حرب بلقانية تهدد السلام بين الشرق المسلم والغرب المسيحي ، وكل ذلك بسبب معضلة الطرابيش والقبعات !!

أما أنا شخصياً فإنني قد اضطررت الى خلع القبعة الأوربية بعد مضي بضعة أيام فقط من دخولي الى ليبيا ، حيث استبدلتها بالطربوش الأحمر الذي لم يكن يحمي أذنيّ وعينيّ من لسعات حرارة الشمس ، فاستبدلته في بلدة (العزيزية) بغطاء رأس « طوارقي » تلثّمت به ، غير ان (خليل بَيْ) نصحني في بـلدة (الخمس) بالعودة الى لبس الطربوش لأنه غطـاء الرأس العثماني الرسمي ، ولذا فإنني قد عدت الى لبسه منذ ان أخذت في عبور صحراء (سرت) ، وما زلت أرتديه حتى اليوم ، رغم أنه يعرضني لضربة الشمس في كل لحظة .

وقد شاهدت في مرات عديدة الليبيين هنا وقد عادوا من ساحة القتـــال بخوذات ايطالية فأخذوا يحطمونها ويمزقونهـا إرباً إرباً ، إذ ان البرنيطة والخوذة الحديدية تعتبر عندهم شعاراً ممقوتاً مكروهاً لا يتميز بلبسه سوى

النصارى . وهكذا فإن البدو هنـا يُكبرون فيّ لبسي للطربوش بدل البرنيطة قائلين لي :

– « آه !.. إنت مُوشْ خواجةْ برنيطه ! . إنت خواجةْ طربوش ، لأنك صاحب السلطان »[1] !!

ولنعد الآن الى الحديث عن تلك « الثورة » التي أحدثها (أنور بك) هنا في مجال قضية غطاء الرأس العويصة التي سردت عليكم تاريخها في الدولة العثمانية . فرغم كراهية المسلمين للخوذات واعتبارهم لها من أغطية الرأس التي يتميز بها النصارى ، إلا ان (أنور بك) قد لبس هو نفسه خوذة وأمر ضبـاطه هم الآخرين بلبس الخوذات ، كما أنه يُزمع تعميم لبسها بين جميع جنوده قريبـاً . وقد فرحت بهذه الثورة في عالم أغطية الرأس التركية ، وهرعت الى (أنور بك) أملاً ان أحصل منه على إحدى الخوذات التي خصصها لضباطه ، كي أقِيَ بهـا رأسي ووجهي من لظى الشمس الحارقة بدلاً من الطربوش الذي لا يمنـع عني هذا اللظى .. ولكنني – لحسرتي – ما لبثت ان علمت أنها قد نفدت !

وفي رأيي ان قوة أي قائد او زعيم تظهر في قدرته على إحداث مثل هذه التغيرات – التي قد تبدو شكلية – في عادات الناس ، أكثر مما تظهر في أعماله الكبيرة . فالأمور المتوارثة والمتـأصلة في نفوس الشعوب والأصعب والأشد مقاومة للتغير هي في الحقيقة عاداتهم اليومية وتقاليدهم التي تعارفوا عليهـا وتوارثوها ، وأساليبهم في الملبس او في المأكل . فقد لا يُصدم الليبي حين تخـبره أنك مسيحي فهو يحترم أديان الآخرين ، ولكنه يصدم حقاً ويندهش بل ويتبرم منك عندما يكتشف أنك تستعمل يدك اليسرى في الأكل ، إذ أنه يعتبر الأكل

---

(١) وردت العبارة كلها تقريباً بالعربية الدارجة ، ومعناها كما هو واضح : أنت لست من الاوروبيين لابسي البرانيط ، فقد شذذت عنهم ولبست الطربوش كأنك تركي ، وما ذلك إلا لانك صديق للسلطان . المترجم

باليد اليسرى مكروهاً ومنافياً لآداب المائدة. فمسائل العقيدة الدينية والاختلاف بين الناس في الأديان ، هي من المسائل التي تتقبلها طبيعة الانسان وتحترمهـا ، أما العادات والآداب الاجتماعية وتقاليد المأكل والملبس ومـــا شابهها ، لدى الغريب ، فإنها تبدو لعين ذلك الذي لم يتعود عليها ، منذ لحظة اللقـاء الأولى مجافية للطبيعة ، فلا يملك إلا ان يستهجنها ويتقزز منها ، ان كانت منافية لمـا نشأ عليه .

وأختم هذا الفصل بخبر طـازج علمته اليوم وهو ان السلطـات التركية بصدد استصدار جريدة يومية سيطلق عليها بطبيعة الحال اسم « الجهاد » .

الفصل الثالث عشر

آخر ساحة جهاد أشهدها في ليبيا

معسكر المجاهدين عند طبرق في ١٥ مايو ١٩١٢

غادرت معسكر (درنة) يوم الحـادي عشر من مايو ، وقـد حدث عندما كنت أهم بالرحيل ان تقدم مني أحد الليبيين ، معتقداً أنني ضابـط تركي ، حيث أخذ يودعني ويشد على يـدي بحرارة متمنياً لي سفراً ميموناً ، ثم قال :

– « إذهب في حفظ الله ، واطمئن فإننا صامدون هنا لقتـال هؤلاء الايطاليين الملاعين ، فأنا نفسي قد سبق لي وان جاهدت ضد النصارى الفرنسيين في إقليم (وداي)[1] حيث قتلت منهم الكثيرين » !

وانحدرنا من معسكر (عين بو منصور) ، أنا ورفاقي ، حيث أخذنا نعبر (وادي درنة) الذي كان يجري فيه نُهير صغير نمت في بطنه شجيرات «الدفلى». ولا يمكنكم ان تتصوروا ما يساويه مرأى الميـاه الجارية والخضرة النامية والأزهار في مثل هذا البلد القاحل في معظمه ، رغم ان مرأى الخضرة في بلادي يعتبر أمراً طبيعياً عادياً لا يلفت نظرنا . أما ملاقاتها هنا فإن لهـا أهمية تشبه ملاقاة شخص عزيز فجأة عبر صحراء مقفرة بعد الارتحال أمداً طويلاً في وحدة ووحشة . فالخضرة والماء هنا تبعث الحياة في الطبيعة وتسبغ عليها جمالاً أخاذاً لا نحسّه في بلادنا .

وأخذنا نعبر الجناح الأيمن لمعسكر المجاهدين . والطريق وعْر للغاية يمر عبر صخور ناتئة لا تخترقها الإبل إلا بصعوبة بالغة . ثم تلت ذلك هضـاب مليئة

---

(١) يقع إقليم (ودّاي) في جمهورية تشاد المتاخمة لليبيا جنوباً .

بالأحجار والصخور وتوجد بها بعض الآثار القديمة وصهاريج المياه الحجرية ، وخرائب القلاع القديمة ، وآثار المستعمرات الزراعية اليونانية القديمة .

وبعد انقضاء خمس ساعات من الترحال وصلنا الى واحة (مرتوبة)[1] الصغيرة التي وجدنا بها أشجار نخيل وتين وحولها مراعٍ نمت بها الأعشاب وسرحت فيها الأبقار ترعى الكلأ . كما ان بها نبع ماء . وقد كان مشهد تلك الخضرة الداكنة في وسط الصحراء المليئة بالحصى والأحجار ، يبدو وقت الغسق مشهداً خلّاباً للغاية ويأخذ النفس بجماله .

١٢ مايو ١٩١٢

واصلنا رحلتنا اليوم حيث ظللنا نسير مدة إحدى عشرة ساعة حتى حللنا بنقطة ماء تسمى (التميمي)[2] . وكانت الرياح تهب بعنف وسط الهضاب الموحشة المليئة بالصخور العادية التي نمت بينها في بعض الأمكنة أشجار الصنوبر البحري التي كانت الرياح تعصف بغصونها .

وتوقفنا عند الساعة الثانية ظهراً عند نبع ماء مالح يطلق عليه اسم (بير بونقيره) قائم بين الصخور البيضاء التي نحتتها الرياح ، فسقينا منه إبلنا مضطرين . وكنا نشاهد على يسارنا ، على حوالي عشرة كيلومترات

---

(١) (مرتوبة) هي قرية صغيرة، وبها عين ماء تسمى « عين مرتوبة » وتسمى هذه المنطقة منطقة (الفتايح) وهي تقع في الجنوب الشرقي لمدينة (درنة) بنحو ستين كيلومتراً . انظر « معجم البلدان الليبية ص ٣٠٨ » . المترجم

(٢) تقع بلدة (التميمي) الصغيرة قرب ساحل البحر ، وهي تقع في منتصف المسافة بين (درنه) و (طبرق) .

(خليج بمبة)[1] والقصر التركي القـــائم عنده ، والذي أصابتـه قذائف مدافع القطع الحربية البحرية الايطالية . ويقال ان الأمير ال الإيطالي (فاراڤيللي) كان من أنصار الاستيلاء على (خليج بمبة) والتمركز فيه ، وذلك بدلا من (خليج طبرق) الذي فضّله الأمير ال الإيطالي الآخر (أوبرى)[2]. والواقع أن (خليج بمبة) أهم في رأيي لأنه أقل انخفاضاً ويطل على ساحل أطول .

١٣ مايو ١٩١٢

قطعنا مسافة طويلة استمرت منذ أن غادرنا (التميمي) الى أن وصلنا الى منطقة يطلق عليهـــا أهل البادية اسم (السّدّ) وهي على مسير ثلاث ساعات قبل منطقة (عين الغزالة) . ويوجد في (التميمي) بئر ماء مالح كما يوجد في الوادي القريب منه نبع ماء عذب غير أنه شحيح المياه . والأرض هنا مستوية السطح، نمت فيها بعض نباتات « العيص » والحرارة فيها شديدة . وقد خُيل إليّ ان

---

(١) خليج (بمبة) خليج يقع إلى شرقي درنه ويصب فيه وادي (تميم) الآتي من الجنوب . وتقع في مواجهته (جزيرة بمبة) التي تقع على بعد ٧٣ كيلو متراً جنوب شرقي (درنة) . وهي الجزيرة التي مكثت بها جماعة المعمرّين الإغريق مدة عامين في القرن السابع قبل الميلاد ، وذلك قبل تركهم لها وإنشائهم لمدينة (قورنـّة) على نحو ما ورد في حاشية سابقة . وقد احتلتها قوات البحرية الأمريكية فترة من الوقت في القرن الثامن عشر . وبنى بالجزيرة المشير (علي رضا باشا) حاكم طرابلس التركي قصراً للحكومة أيام ولايته ، وكان ذلك في حوالى سنة ١٨٧١ .

(٢) هاجم الأميرال (أوبري) قائـــد القوات البحرية الإيطالية ميناء (طبرق) يوم ٤ أكتوبر ١٩١١ ، فلقي مقاومة عنيفة من المجاهدين والقوات العثمانية ، ونزلت أول فرقة من جنود البحارة من السفينة (فكتور عمانويل) عددها حوالى الاربعمائة جندي واحتلت (طبرق) بعد مقاومة عنيفة . فكانت (طبرق) هي أول بقعة من أرض ليبيا تطؤها أقدام الغزاة الإيطاليين .

انظر : محمد مصطفى بازامه في : « العدوان : أو الحرب بين إيطاليا وتركيا في ليبيا » ، صفحة ٧٧ .

المترجم

الطريق لا نهاية لها. غير أنني تعودت الآن على الاستمرار في مواصلة الترحال دون ان أكلف نفسي عناء الاستفسار عن الوقت وعن ساعة الوصول إلى نقطة التوقف التالية . وقد علمني البدو ذلك: فهم لا تهمهم المسافات ولا يقلقهم مفهوم الزمن . وإن أنت سألتهم عن ساعة الوصول إلى النقطة التالية ؛ فإنهم إمــا ان يردّوا عليك بكلمة « بعيد !! » أو بكلمة « قريب !! » ، وذلك دون أن يعطوا لهاتين الكلمتين دلالة زمنية محددة . وقد سألت أحد مرافقيّ البـدو الذي ظل يقول لي باستمرار :

« قريب ! .. قريب ! » .

دون أن نصل الى ذلك الـ « قريب » الذي يشير إليه ! سألته :

« ولكن ما الذي تعنيه في رأيك كلمة « بعيد ؟ » .

فردّ عليّ قائلاً :

— « البعيد هو الشيطان !! »[1] .

فالسُّذّج هم وحدهم الذين يتعبون أنفسهم بسؤال مرشديهم البدو عن الوقت وعن ساعة الوصول ، لأن الإجابة ستكون حتماً : مازال نصف ساعـة او خمس ساعات !

وبادية ليبيا قد يجهلون في الغالب حتى أعمـارهم وتواريخ ميلادهم ، وهذا أمر طيب لأنه يخلف لديهم انطباعاً مستمراً بدوام الشباب !

وأذكر أنني حين كنت أعبر (خليج سرت) ، حيث كان صحبتي أحد مشايخ قبيلة (الحسون) ويدعى (الشيخ سليمان) — والذي كان من المؤكد أن

---

(١) وردت بالعربية في النص الفرنسي ، ودلالتهـا هى التطير من الشيطان والرغبة في أن يكون دائماً بعيداً عن الإنسان فلا يوسوس له، ومتى بُعد إبليس فالوصول الى الغاية محقق لا محالة!

المترجم

سنّه لا تقل عن خمسين عاماً – ومع ذلك فإنني عندما سألته عن عمره رد عليّ قائـــلاً :

– « الواقع أني لست أدري على وجه الدقة ؛ ولكن على أية حال فـإنني لا أتجاوز الخمسة وعشرين ربيعاً » .

ومررنا عند شاطىء البحر بنبع ماء مالح يوجد في كوّة عميقة ويطلق عليه اسم (عين الغزالة) ، فسقينا منه جيادنا .

١٤ مايو ١٩١٢

كنا طيلة نهار وليلة أمس نسمع دوّي المدافع الإيطالية ، وتضاعف الدويّ عند الصباح. ودوي المدافع أصبح بالنسبة لي موسيقى هذه الرحلة ، ولقد بلغ من كثرة تعودي على سماعه أنني أنسى دائماً انأشير إليه فيمذكراتي: فلكم يبذّر الإيطاليون ويسرفون في استهلاك الذخيرة في غير طائل ! !

وأخذنا نسير في موازاة تلال حجرية ، وعند الظهر اعترضت طريقنا حفرة عميقة تجمعت فيها الأمطار التي تهطل على تلك التلال. وقدتكونت حولها رطوبة وبلل في الأرض أدتإلى نمو نباتاتوأدغال صغيرة متشابكة. ولابد وأن تكون تلكالأدغال مليئة بالحياة والثعابينوالحشرات والزواحف. غير أننا اضطررنا إلى الالتجاء إليها هرباً من القيظ الشديد، حيث هيأنا وسطها لأنفسنا مأوى غطيناه بالأغصان وقضينا في حماه مدة ساعتين هرباً من وهج الشمس .

وفي المساء وصلنا إلى مسكر المجاهدين، حيث كان في استقبالي آمر المعسكر المقدّم (نظيم بك) والملازم (إسلام بَيْ) ، فرحبوا بي أجمل ترحيب ، كعادة هؤلاء الضباط الأتراك منذ أن وطئت أقدامي أرض ليبيا .

ويقع المعسكر على بعـد مسيرة ساعتين من ميناء (طبرق) ، وسط هضبة يبلغ ارتفاعها حوالى مائة متر ، ويمكن المرء منها مشاهدة البحر . وهي هضبة جرداء حرقتها حرارة الشمس ، بحيث يخيّل المرء في فترة الظهيرة أنـه واقف وسط حريق نار هائل ، اذ لا أثر للظل هنا. ومع ذلك فإن النسمات الرطبة التي تهب من جهة البحر تلطـّف بعض الشيء من تلك الحرارة. غير ان تلك النـّسمات كثيراً ما تتحول فجأة إلى ريح عاتية معها زوبعة من الغبار الدقيق الذي ما يلبث أن يتسرب الى كل شيء .

فمقومات الطبيعة هنا هي الشمس والغبار وملايين الذباب . والأفق خـال موحش لا تحجبه عن العين حتى شجرة واحدة! ولابد للمرء من أن يتحلـّى بصبر كبير وبرباطة جأش حتى يقبل العيش في هذه البقعة أشهراً طويلة لتنظيم قوات المجاهدين وخوض الاشتباكات مع القوات الايطالية الرابضة في (طبرق) وتحديها واستثارتها طيلة النهار بدون طائل ، لعلها ان تخاطر بالخروج من تحصيناتها التي اختفت وراءها .

وقد جلست في المساء مع الضباط الأتراك في المعسكر وأخذت أتحدث معهم عن الجنود الإيطاليين ورفضهم مغادرة مخابئهم .

فردّ عليّ المقدم (نظيم بك) قائلاً :

— « إنني أنا نفسي أكره الحرب ؛ اذ ما هي اللذة التي يحصل عليها المرء من تقتيل هؤلاء الشباب الإيطالي الذي كان من الأولى به أن يبقى في بلاده . ولكن ما حيلتي والواجب العسكري هو الذي ألقى بي هنا »[١] .

ولقد لمست طيلة المدة التي قضيتها في ليبيا قيـام أقصى درجات المساواة في

---

(١) من المؤلم أن يكون هذا المنطق هو منطق آمر القوات التركية في معسكر (طبرق)، فهو يستبشع تقتيل الشباب الإيطالي ويتأذى من التحاقه بالخدمة هنا وتسليمه آمرية الحـامية . وهذه الروح الانهزامية لدى أمثاله هي التي ساهمت في تخاذل القوات العثمانية في ليبيا .

المترجم

نكران الذات بين جميع الضباط الأتراك ـ حتى في أحلك الظروف ـ الى درجة أنني تمنيت لو كنت أنا نفسي ضابطاً . فهي حالة الغيرية التي يظل الواجب فيها أمراً لا مجال للتشكك في جدواه او نقاش الأوامر الصادرة بموجبه. ويخيل إلي أن هذه الأخلاقية تفضل كل شيء . فالجنـدي الحقيقي هو ذاك الذي لاترتاح نفسه الا اذا كان لديه إيمان بعدالة ما يفعله وما يُقدم عليه ، وهو إحساس نبيل يفوق حتى القتال اندفاعاً وراء التحمس الديني وحده .

ولقد انتظمت المقاومة الشعبية والجهاد بين قبائـل البادية التي تسكن هذه النواحي بمجرد أن وصلت إلى ميناء (طبرق) بوارج وسفن الأميرال البحري الإيطالي (أوبري) ؛ فالتحم المجاهدون البدو مع الإيطاليين في عدة معارك .

وحدثوني هنا عن المعارك التي خاضتها قبيلة (بني مريم) ، ومن بينها تلك المعركة التي خاضوها ضد الايطاليين عندما أرسل هؤلاء إحدى كتائبهم لقطع الأسلاك التلغرافية وتخريبها. وكان يقود هذه القبيلة أحد مشايخها ويدعى(الشيخ المبري المريمي) الذي قُتل جواده تحته في تلك المعركة. وفي يوم الثاني والعشرين من ديسمبر سنة ١٩١١ خرجت نفس القبيلة بقيادة (الشيخ المبري) هذا للتصدي للقوات الايطالية التي كانت تحاول احتلال (قصر الناظورة) ، فأصابت ذلك الشيخ رصاصة في رأسه ، فألقى طاقيته بعيداً وصاح في فرسانه :

ـ « لقد جُرحت .. ولكن لا تهتمّوا لأمري . هاجموا العدو بدوني ! » .

وعندما رآه أفراد قبيلته صريعاً كادت عزائمهم تخور، غير أن نساءهم كنّ وراءهم يلهبن حماسهم ، فما كان منهم الا ان هاجموا العدو وأعملوا فيه أسلحتهم.

١٦ مايو ١٩١٢

كنت أتأهب للرحيل ، عندما تناهى الى سمعي أن أحد المجاهدين هنا قـد أنجز في الليلة الماضية التي بتُّها في المعسكر ، عملية فدائية تخريبية داخـــل

التحصينات الإيطالية المضروبة حول مدينـــة (طبرق) . فلقد خرّب ذلك الفدائي خطوطهم الهـــاتفية وشحن فوق دوابّه حوالي مائتيْ متر من أسلاكها وستة من أوتادها وكذلك عدداً من « الكابلات » العازلة .

الساعة الآن هي الثالثة بعد الظهر ؛ وهـــا نحن نغادر المعسكر مواصلين رحلتنا شرقاً ، وقد انضم الى قافلتنا بعض (القريتليين) المسلمين الذين ملوا حالة الحرب بعد أن انخرطوا فيها كمجاهدين وجرحوا فيها ، ثم ها هم يقررون العودة إلى بلادهم جزيرة (كريت) عن طريق مصر .

وأخذنا نسير في سهـل أجرد لا تنمو به سوى بعض شجيرات « العيص » الصغيرة ؛ وما لبثت قافلتنا أن توارت في خضم ذلك الفراغ الموحش الذي كانت الشمس تسلط عليه لظاها الشديد . وبعد مسيرة ساعتين من هنـاك توقفنا عند بئر ماء يدعى (بير المبرى) .

١٧ مايو ١٩١٢

صحونا عند الفجر ، حيث أخذ بعض رفقائي يقومون بسقي الجيـــاد من البئر ويملأون القِرب بما نحتاجه من ماء عبر ترحالنا . وفجأة هرع نحونا بعض رجال البادية من الأنجع المجاورة وأخذوا يصيحون فينا :

– « كـُفوا عن أخذ هذا الماء .. إنه مِلك لنا ! » .

ثم حدثت بيننا وبينهم مشادّة ، ولكنني تمكنت في النهاية من حسم النزاع ، فلقد اختلط على أولئك البدو الأمر واعتقدوا أنني ضابط تركي ، إذ أن بعضهم كان قـــد سبق له وأن لحنيَ في معسكر (طبرق) في صحبة آمر المعسكر (نظيم بك) . فطيَّبت خواطرهم وهدّأت ثورتهم بأن منحتهم بعضاً من

السكّر . ووقفوا يتطلعون إلينا ونحن نواصل ترحالنا بعد ذلك وهم يقولون :

— « أليس مما يحزّ في النفس أن نقف مكتوفي الأيدي وهم يرحلون حاملين معهم من ماء بئرنا ما ملأوا به أربعة قِرب ؟! » .

والواقع أن الماء قرب الحدود المصرية نادر ، بل إنه نادر في معظم أرض برقة . فالناس هنا لا يعيشون إلا على مياه الأمطار المتجمعة في قيعان الآبار أو الصهاريج القديمة . ولذا فإنه كلما نفد ما بها من المياه ، تضطر القبائل التي تضرب خيام أنجعها حولها في فترات الجفاف إلى أن تشد رحالها وتطوي خيامها فتنتقل إلى مناطق أخرى بحثاً عن آبار مياه أخرى . فالإنسان قد يقتل أخاه الإنسان من أجل قليل من الماء بالرغم من أن الأمطار قد هطلت بشدة في شتاء هذه السنة . وذكرني ذلك بما جاء في كتاب اليهود من أن ملكهم سليمان قد طلب من ملكة سبأ (بلقيس) أن تتخلى عن عذريتها ثمناً لكوب الماء الذي سرقته منه . فتمنّعت هذه الملكة ، فردّ عليها هو بعبارة مليئة بالحكمة والسخرية في آن واحد قائلاً :

— « وهل هنالك كنز هو أثمن من الماء ؟! » .

ثم واصلنا ترحالنا إلى أن توقفنا عند بئر ماء آخر يُطلق عليه اسم (بير يوسف الخوير) حيث كنا مضطرين إلى إعادة ملء قِربنا التي نفد ماؤها من جديد نظراً لكثرة عدد أفراد قافلتنا . غير أن بدوياً مُسناً كان في حراسة ذلك البئر ثار في وجوهنا ومنعنا من الاقتراب من البئر . وهددته قائلاً له بأنه إن لم يسمح لنا بالتزود من مياهه فإننا سنكتّفه ونربطه فوق ظهر جمل وننقله إلى معسكر المجاهدين في (طبرق) . فلم يرهبه التهديد وما كان منه إلا أن تحدانا مصوباً إلينا فوهة بندقيته قائلاً لنا إنه لن يسمح لنا بسقي دوابنا حتى ولو أدى ذلك بنا الى قتله ، ثم أخذ يرغي ويزبد قائلاً :

— « إن قائم مقام (طبرق) نفسه يمنحني السكر والشاي ، بل إن القائد

[العثماني] نفسه يمنحني النقود ، كلما توقف أحدهما هنـا لطلب المـاء .. وأنت تتوقع أن أتخلى لك عن ماء بئري بدون مقابل ؟ وأيْمُ الله لن يحدث هذا ! ».

فشرحت له قائلاً إن بإمكانه أن يطلب منا السكر والشاي في مقابل ذلك، ولكن بلهجة أقل عداءً . غير أنه لم يتراجع عن موقفه . وانتهى بنا الأمر الى التزود من مائه دون أن يجسر على إطلاق النار علينا، إذ أن أحد مشايخ البادية قد مر في تلك اللحظة وتوسط بيننا وهدّأ غضبته قائلاً :

– « لا عليك ! فإن هذا الضابط ، هذا البك ، سيدفع لك ثمناً جزيلاً، فثق من ذلك » .

وبالفعل فانني قد دفعت له بعض النقود ، فرضي وشكرني معتذراً عما بدر منه .

ثم مضينا الى سبيلنا . ومررنا بعد ذلك بأحد أنجع البـادية ، حيث سقتنا بدوية من لبن شياهها . وتوقفنا بعد ذلك للمبيت . ونظراً لشدة الحرارة في تلك الليلة ، فقد قررنا ألا ننصب خيمتنا مفضلين النوم في العراء . وهكذا فقد نمنـا تحت قبة السماء ، وكان يخيم على الكون سكون مطبق فلم نكن نسمع أي صوت أو حركة ، فحتى عواء الذئاب لم نسمعه . فاستغرقنـــا في نوم عميق لم نصحو منه إلا على سقسقة عصفور يعلن إقبالة الفجر .

١٨ مايو ١٩١٢

لفحتنا اليوم رياح « القبلي » الساخنة ، فكنا كمن يسير عـبر حريق هائل من شدة الحرارة. ولم نلتق في طريقنا سوى بالصخور والأحجار ونباتات العيض الشوكية . ثم أخذت أطياف السراب تـُولد أمامنا عند الأفق البعيد العاري .

وكنا كلما لحنا قافلة عن بعد خُيِّل إلينا أن إبلها تسبح في المـــاء . وكلما لحنا عن بعد بضع شجيرات « الجنيْبة » الضئيلة خُيِّل إلينا أنها غابة كثيفة . ففي كل اتجاه نظرنا إليه كنا نلمح بِركاً وبحيرات خيـالية لا تلبث أن تمّحي وتتلاشى . وقد أدار مرأى السراب الخادع رؤوسنا وآلم عيوننا ، فحسبت أننا لا محالة على وشك الجنون . وأخذت أقـــاوم هذه الدوّامة وهذه الخيالات السرابية محـــاولاً حصر تفكيري في اجترار الذكريات ، والالتزام بعدم مدّ البصر بعيداً والاكتفاء بالتحديق فيما حولي من الرفاق والدواب ، إذ أن رمي النظر الى مدى بعيد سرعان ما كان يشعرني بالغثيان. وفي بعض الأحيان كان يولد لديّ انطباعاً خادعاً بأنني أدور حول الكرة الأرضية أو حول كوكب مستدير آخر ، غير أن الأرض كانت تبدو لي في أحيان أخرى مسطـّحة ومستوية تماماً والسماء تتدانى منها بشكل مفزع بحيث تكاد تطبق عليها .

وعند الظهيرة توقفنا للراحة وسط بقايا صهريج أثري روماني . واضطجع البدو المرافقون لنـــا على أحجاره وقد انسدلت عليهم أطراف ثيابهم البيضاء الطويلة؛ فبدوا لي شبيهين بشواهد القبور المرمرية الأثرية . وربضت خيولنا عند مدخل الصهريج محاولة إدخال رؤوسها داخل فوهته طلباً للظل .

وبعد ذلك قمنا فواصلنا سيرنا طيلة ثلاث ساعات فلم نتوقف إلا عند بئر ماء في نقطة (كنبوت) وهي قرية صغيرة . وحول ذلك البئر وجدنا مجموعـــة من البدويات الجميـلات مستغرقات في استخراج الماء منه بدلاء هي عبـــارة قِرب من جلد الماعز. وكانت من بينهن فتاة بارعة الجمال شديدة السمرة ، قصيرة القـــامة ، مكتنزة الأرداف ، ليّنة الأعطاف ، طائشة اللفتات ؛ أخذت في لا مبالاة ترمي بدلوها في قاع البئر العميقة تارة وتجذبه من حبله تارة أخرى ، ثم تلتفت إلى رفيقاتها فتدعوهن الى مساعدتهـــا في شحن القِرب فوق حميرهن الرابضات قُربهنّ . ومن الغريب أن النساء في هذه الصحراء القـاسية ووسط هذه الطبيعة الصارمة يبدون شديدات الرقة واللطافة كثيرات المزاح والضحك:

إنه الشرق ! ولكنه غير ذلك الشرق الذي قرأنا عنه في « نشيد الأناشيد »[١].. وتمتمت مقاطعَ من نصوص ذلك النشيد الرائع بينما كنت أتأمل تلك البدوية الحسناء التي أخذت لبّي بجمالها المتوحش . نعم ! لقد ولّى الشتاء وكفّت أمطاره عن الهطول ، بيد أنني لا أسمع هنا شدو اليمام ، وليس في مستطاعي أن أنادي هذه البدوية باسمها — « مبروكة » أم « فاطمة » أم « عائشة »[٢] ؟ لست أدري — فأدعوها لترك قربها جانباً والاقتراب مني كي أتملى عن كثب محيّاها العذب الذي ذكّرني بملامح تلك النسوة الجميلات اللاتي صوّر لنا الكتاب المقدس عظمة جمالهن . ثم ما لبثت أن صحوت من تصوراتي الحالمة على صفير رياح « القِبْلي » وعلى لون الصحراء الجيفي الذي زاد في قبحه ضوء الشمس العنيف . فحاقت الهموم بنفسي التي قتلها الملل من طول التّرحال .

١٩ مايو ١٩١٢

واصلنا رحلتنا عند الساعة الثانية صباحاً كي نتحاشى حرارة النهار . وحدثت مشادة بين أصحاب الجمال البدو و « القريتليين » الذين بمعيتنا ، وأخذوا يكيلون لبعضهم البعض ضربات العصي . غير أنهم سرعان ما كفوا عن العراك واستعاد كل منهم هدوءه رغم التهديد والوعيد . ولقد مللت هذه الخصومات التي تقع بين رفقائي لأتفه الأسباب فأضطر الى التدخل لفضها حتى لا يجرنا الأمر الى ما لا تُحمد عقباه .

---

(١) « نشيد الاناشيد » هو أحد الاسفار المثبتة في الكتاب المقدّس ، ويُنسب الى سليمان الحكيم عليه السلام .
المترجم

(٢) وردت هذه الاسماء العربية الشائعة في ليبيا ، بالعربية في الاصل الفرنسي .
المترجم

وعن يميننا كانت الصحراء وتضاريسها ترتفع قليلاً فتتخللها تلال وروابٍ من من الأحجار التي يبلغ ارتفاعها أحياناً قرابة مائـة متر . وتعترض طريقنا من وقت لآخر حفر منقورة في الصخر هي بقـايا قواعـد الصهاريج الرومانية الأثرية . ولقد تبينت على سطوح التلال أن آثار معاول قاطعي الحجر الرومان القدماء ما تزال باقية . وتلك الصهاريج ما تزال تستقبل حتى الآن مياه الأمطار بعد سقوطها، غير أنها لا تحتفظ بها إذ سرعان ما تشربها الرمال. ومع ذلك فان الرطوبة والبلل الناشئين عن تجمّع المياه في نُقَـرْ هذه الصهاريج التي عبث بهـا الدهر ، قد ساعدت على نمو بعض أشجـــار التين الضخمة التي أحاطت بأحد الآبار المهجورة. وقد شاهدت في هذه المنطقة، في كل مكان مررت به، آثار تلك الصهاريج والخزانات الرومانية التي تدل على أن هذه الصحراء القاحلة كانت تعُج في الزمان الخالي ببساتين الفاكهة وضروب الزراعة الأخرى القائمة على الرّيْ ، فقد كان نظام الرّيْ الروماني القديم يمكّـن من الاحتفاظ بجميع مياه الأمطار الهـاطلة على المنطقة في فصل الشتاء في هذه الخزانات الأرضية ، ومن ثم كانت توزع على الأراضي المزروعة بحسب برنامج ريّ مرسوم ومحدد .

وحوالى الساعة السابعة مساء نصبنا خيمتنا قرب بئر مـــاء أخرى تسمى (بئر الشيبات) حيث قضينا الليل .

وفي اليوم التالي ، العشرين من مايو ، ظللنا نرحل منذ الساعـة الخامسة فجراً حتى الساعة العاشرة صباحاً . ونظراً لشدة الحرارة فقد توقفنا للراحـة والقيلولة عند دغل من الشجيرات الشوكية ، فتحنا بينها كوّة واحتمينا بظلها من القيظ حتى الساعة الثانية ظهراً .

ثم واصلنا رحيلنا . وعند الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر لمحت العـــلم التركي يخفق فوق خيام معسكر للجنود الأتراك ، ثم ما لبثنا ان وصلنا اليـه

حيث استقبلني الضابط التركي الملازم (عصمت بَيْ)[1] ورحب بي في هـذه النقطة التي هي آخر مراحل رحلتي الطويلة عبر ليبيا . وصعد هذا الملازم فوق سنام جمله المهـاري السريع وصحبني الى (قصر السلوم) فوجدت نفسي داخل مصر .

كانت الشمس آيـلة للغروب ، ولمحت فجأة أديم البحر الذي كان أزرق في لون الياقوت حيث كنت أراه بين قمم الجبال العقيقية . فـكان المشهد أخّاذاً سواء من حيث خطوطه او من حيث ألوانه الزاهية الذهبية والزرقاء . فيا له من مشهد هذا الذي تجلـّى لي ! كأنما الطبيعة كانت تكافئني به بعد ان عذبني منظر الصحارى أياماً طويلة ؛ إنه جزاء حاجٍّ كان يتجول في صحارى الشرق !

وأخذت قافلتنا تعبر الدرب الضيق الذي ينحدر بين الجبال بينما كنا نقبض على أعنـّة جيادنا التي صارت من طول السفر والترحال نحيـلة ضامرة ككلاب الصيد « السلوقية » . فجوادي مثلاً قد قطع أكثر من ألفين وخمسمائة كيلومتر منذ ان ابتعته من مدينة (طيطوان) التونسية . وطيلة هذه الرحلة لم يتخلّ عني هذا الجواد الأصيل ولو للحظة واحدة . ولسوف آسف وشيكاً على فراقه كما يأسف المرء على فراق صديق عزيز ، وهو بالفعل كان من أعز أصدقائي طيلة رحلتي ، ولذا فإنني قد أطلقت عليه اسم « المُغِيث » فقـد كنت أعتمد عليه كلية .

واستقبلني « ميجر » إنجليزي عند عتبة منزله الصغير الواقـع على شاطىء البحر ودعاني الى مائدته . ولقد كان ذلك الضابط شابـاً في مقتبل العمر نحيلاً ومهذباً ، غير انه لـلأسف لا يتكلم الفرنسية ، كما أنني من ناحيتي لا أتـكلم

---

(١) (عصمت بيْ) - او (بك) - هو فـيما اعتقد (عصمت إنُونُو) الذي خلف مصطفى كمال أتاتورك في رئاسة الجمهورية التركية وفي رئاسة حزبه ولم يستقل من رئاسة الحزب إلا هذه السنة (١٩٧٢) فهو لم يزل على قيد الحياة وان كان قد ناهز التسعين من عمره . المترجم

الانجليزية . فكلانا ينتمي الى أجهل شعبين في الدنيا باللغات الأجنبية ! ومع ذلك فقد تغلبنا على صعوبات هذه المحادثة المستحيلة باستعمال لغة عربية مكسّرة مرقعة وسط دهشة العرب الموجودين الذين استغربوا مرأى أوربيين يتفاهمان بلغتهم .

وتحصل لي الوزير المفوض الفرنسي في مصر من الحكومة الأنجلو – مصرية على تصريح يسمح لي بأن أستقل غداً أحـد قوارب خفر السواحل المصرية الى (مرسى مطروح) ، ومنهـا الى (الاسكندرية) ؛ الأمر الذي سيجنبني الاضطرار الى الترحال على ظهر جوادي مدة ثمانية أيام إضافية بدون جدوى عبر الصحراء الغربية المصرية قبل ان أصل الى أول محطـة من محطات خطوط السكة الحديدية الخديوية .

وقضيت النهار في الراحة والاستحمام في مياه البحر وفي غسل ثيابي القذرة. إذ أنه لم تتح لي فرصة للاستحمام او استبدال ثيابي منذ مغادرتي (مصراتة) . ويمكنكم ان تتصوروا جيوش القمل والبق والبراغيث التي عشّشت بين طيات ملابسي من شدة القذارة المتراكمة . فكنت أجد بينها براغيثاً وقملات سوداء تشبه بطونها المكتنزة بطون رهبان أديرة (نابولي) الشديدي السمنة ، وكذلك أسراباً من البق البنيّ اللون الذي يفوق النمُور المتوحشة ضراوة ! أما الذباب فقد ظل رفيقاً تقليدياً لي طيلة رحلتي ، وهو لم يتخلَّ عني بعدُ . فإن أنا طردته عن فمي طار ودار في الهواء ثم عـاد ليعشّش حول أنفي او أذنيّ ، وهكذا .

ويُروى ان الذباب لم يُخلق إلا منذ ألفي سنة فقط، فقد حدث ذلك عندما صلب اليهودُ (عيسى المسيح) ثم تجمعوا حوله محتفلين بعيد كبير أخذوا فيه يشوون لحماً لذيذاً ويعدّون مع نسائهم ولائم كبيرة وخمراً . وأطلقوا العنان لحواسهم وشهواتهم الخمس . وعندما فرغوا من الأكل أسِفوا لعدم وجود جوقة موسيقية تُشنّف أسماعهم بألحانها . فابتهلوا الى «يهوه» ان يبعث اليهم طيوراً

صغيرة كي يتمتعوا بالإنصات الى حفيف أجنحتها. ولكن إلههم كان غاضباً عليهم فأرسل عليهم جيوش الذباب. وهكذا فإن الذباب هو من بين العطايا التي يرجع الفضل في خلق الله لها الى اليهود! فأنعمْ به من هدية لهم.

وتقدم مني أحد أصحاب الجمال الذين ظلوا في رفقتي حتى هنا، واسمه (بزو) وقال لي:

– «اعطني إحدى قِربك، وأعدك بأنني سوف أدعو لك بالفلاح كلما شربت منها».

فأعطيتها له، فقال فرحاً:

– «أنت أمير!».

ولكنه عاد إليّ بعد الظهر، وقد اكتشف ان القربة في حاجة الى دابّة تحملها، فطلب مني ان أمنحه كذلك الحمار الذي سبق لي ان اشتريته في نقطة (بو رتيمة) في خليج (سرت). غير أنه جاء متأخراً، فقد كنت قد أعطيت ذلك الحمار منذ لحظة لمرافقي الآخرين من الطرابلسيين الذين كانوا على أهبة العودة الى موطنهم في (مصراتة) وجبل (غريان). ونظراً لعدم وجود شعير، ونظراً لأن العشب لا ينبت في هذه البقعة – فإن الحمار قد شعر بالجوع وأخذ يدور ويلف هنا وهناك. وكان أشد مكراً وذكاء من خيولنا إذ أنه اكتشف القش الذي حُشيت به الحوايا التي تُقتعد حول سنام الإبل، فأخذ ينتفه بأسنانه ويأكله. ففطن لذلك أصحاب الجمال فأحنقتهم فعلته – خصوصاً وأنه وقع من نصيب زملائهم «المصراتيين» و«الغراينة» دونهم – فأخذوا يستدرجونه ملوّحين له بقبضة من قشّ إحدى الحوايا الذي ضمّخه عرق الإبل ورائحته. فما كان من الحمار إلا ان تبعهم حتى اختفى وراء إحدى الصخور، فربطوه هناك وعادوا أدراجهم في صمت كأن شيئاً لم يكن!.. ولم تمض ساعة حتى فطن الطرابلسيون الى اختفاء حمارهم المريب، فأخذوا يبحثون عنه هنا وهناك حتى

وجدوه حيث ربطه البدو ، ولم تنطو عليهم الفعلة ، وحدث في الحـــال بينهم وبين هؤلاء عراك استعملت فيه العصي .

وقد لاحظت ان الساحل الممتد ما بين (السلـُّوم) و (طبرق) مـــلائم لعمليات التهريب تماماً، إذ توجد به في أماكن متعددة خلجان عميقة مواربة ، فيها مخابىء طبيعية تمتد الى الداخل . ولذلك فإن سفينة صغيرة محمـــلة بالبنادق والذخيرة والمدافع في إمكانها ان تدخل الى الحدود الليبية من الحدود المصرية ببساطة دون ان تفطن لها البوارج الإيطالية الغازية في (طبرق) . ولا يتطلب ذلك إلا جسارة ومخاطرة . زد على ذلك ان السكان العرب على جانبي الحدود بينهم صلات دم وقرابة ، وهم يشجعون عمليات تهريب الأسلحـة من مصر الى المجاهدين بكل ما أوتوا من قوة . وكذلك فإن بعض الضباط المصريين المكلفين بحراسة الحدود قد أسهموا بأنفسهم في عمليـــات تهريب الأسلحة الى المجاهدين الليبيين، بل قادوا القوافل التي تشحن الأسلحة والنقود والمؤن .

وقد عبـَّر لي الميجر (كيرك) الانجليزي العامل في سلاح الحدود المصري – الذي أطلعني على هذه التفاصيل – عن قلقه لاستمرار هذه العمليات التهريبية التي قد تترتب عليها في رأيه عواقب وخيمة وقد تجر الى مشاكل بين بريطانيا وايطاليا ، مثلما حدث على الحدود التونسية الليبية وما جرَّت اليه من مشاكل بين فرنسا وايطاليا ، بل ان الأمر قد يكون على هذه الحدود أخطر .

وهنالك ضابط سوداني يدعى (الماظ أفندي) يعمـــل في حرس الحدود المصري هنا ، علمت أنه قد قام هو الآخر بتهريب أسلحة الى الأتراك في ليبيا ، حيث مرَّر اليهم خفية مدفعين، كما استولى في الأراضي المصرية على إبل استعملها لنقل تلك المدافع الى داخل ليبيا ، واعتقل عساكر الحدود أثناء قيامه بعملية التهريب هذه حتى لا يشي به أحد منهم . وعندما علمت بذلـــك السلطات الحاكمة جرَّدته من رتبته العسكرية ، فما كان من (ألماظ أفندي) إلا ان اجتاز الحدود الى داخل ليبيا وانضمَّ الى صفوف المجاهدين الليبيين المعسكرين

عند مشارف (طبرق) تحت قيادة (نظيم بك) . ولقد كانت تلك المجازفة الشجاعة التي قام بها ذلك الضابط السوداني عملاً بطولياً يتسم بالشجاعة البالغة حدود التهور شأنه شأن مواطنيه السودانيين جميعاً .

وخرجت في صحبة الميجر (كيرك) الإنجليزي نتجول في نواحي (السلّوم)، حيث أخذنا نعبر الطريق الذي يخترق التلال القريبة التي ما تزال توجد فوقها خرائب المدينة الرومانية القديمة ، إذ مـا تزال هنالك آثار وحجارة أثرية مكدسة وبضعة صهاريج ترجع الى عهد البطالمة ، ومقـابر رحبة منقورة في صخور الجبل ويطل علينا أفق بحري رائع .

ولمحنا عن بعد خيط دخان متصاعد لا يكاد يبين، فأشار اليه الميجر (كيرك) قائلا :

– «إنها نار خفر السواحل الذين سيصحبونك غداً الى (مرسى مطروح) ».

ثم ابتسم وأردف قائلاً باللهجة المصرية :

– « أنت مبسوط ؟! » .

وحقيقة الأمر أنني لم أكن « مبسوطاً » !! وقد يكون هذا الاعتراف غير المتوقع من جانبي غريباً ومدهشاً ، ولكنه هو عين الحقيقة . فالآن قد انتهى كل شيء ! وها أنذا أوشك على وداع حياة الصحراء تلك ، والتي قال لي عنهـا النقيب التركي (شكيب بي) عندما كنت أتحدث معـه مرة بين (نالوت) و (غريان) مرة : « أنها تدخل الطمأنينة والسلام الى النفس » . وها أنذا على وشك الابتعاد عن أولئك المجاهدين الليبيين المغاوير وأولئـك الضباط الأتراك البواسل ، الذين طالما أكرموا وفادتي .. وها أنذا أفترق عن قافلتي وخيمتي ورفقائي العرب : (أحمد) المراكشي ، و (محمد) الطرابلسي ، و (عـلي) المصراتي ، وأتوارى عن هؤلاء الجمّالين البدو الآخرين الذين طالمـا أغضبوني

وطالمـــا أضحكوني وروّحوا عني كذلك . فسيحيطون بي للمرة الأخيرة لتوديعي ، وسيتباكون على فراقي متمنين لي سفراً ميموناً .

وهذا هو ما حدث بالفعل ، فلقد كان وداعهم لي يمزق القلب . فإن (علي) المصراتي قد انخرط في النحيب ، و (محمـــد) الطرابلسي انهمرت الدموع من عينيه مدراراً ، بينا أخذ الجمّالون يشهقون بالبكاء .

منتصف ليلة ٢٢ مايو ١٩١٢

ها هو زورق خفر السواحل المصري يُبحر بي متجهاً نحو (مرسى مطروح) وها قد انقطع خيط تلك الحوادث والأحداث المتتاليـة !.. ونظرت ورائي والزورق يمخر عباب البحر ، فلمحت الشاطىء في ظلمة تلـــك الليلة المقمرة يتوارى عني ، وُخيّل إليّ أنه قد صار ينتمي الى العالم الآخر .

(انتهى)

المصادر التي رجع اليها المترجم أو استشارها في تحقيق الكتاب أو ذكرها

أ – مصادر باللغة العربية

١ – ابن حوقل : « كتاب صورة الأرض » .

٢ – محمد العبدري البلنسي : « الرحلة العبدرية » .

٣ – أبو سالم العياشي : « ماء الموائد » .

٤ – محمد بن عثمان الحشائشي (تحقيق علي مصطفى المصراتي) : «جلاء الكرب عن طرابلس الغرب » .

٥ – الطاهر أحمد الزاوي : « أعلام ليبيا » .

٦ – الطاهر أحمد الزاوي : « معجم البلدان الليبية » .

٧ – الطاهر أحمد الزاوي : « تاريخ الفتح العربي في ليبيا » .

٨ – عبد العزيز طريح شرف : « جغرافية ليبيا » .

٩ – محمد شيت خطّاب : « قادة فتح المغرب العربي » .

١٠ – محمد فؤاد عبد الباقي : « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » .

١١ – محمد مصطفى بازامه : « العدوان : او الحرب بين إيطاليا وتركيا في ليبيا » .

١٢ – مصطفى بعيو : « المختار في مراجع تاريخ ليبيا » .
١٣ – الهادي أبو لقمة (ترجمة) : « أخبار الحملة العسكرية التي خرجت من طرابلس الى برقة في عام ١٨١٧ » .
١٤ – منصور عمر الشتيوي : « الغزو الإيطالي لليبيا » .
١٥ – خريطة ليبيا .

ب – مصادر باللغتين الفرنسية والانجليزية

1. **(Anonyme)** : «Histoire de la guerre italo- turque, 1911-1912», Paris 1912.

2. **Bruce (James)** : «Voyage aux sources du Nil» ,Londres 1722.

3. **Beechey (F.W. & H.W.)** : «Proceedings of the expedition to explore the Northern Coast of Africa», London, 1821-22.

4. **Berque (Jaques)** : «Etudes d'Histoire rurale maghrébine», Tanger 1938.

5. **Caron (P.) & Jaryc (M.)** : «Répertoire des périodiques de langue française», Paris 1935.

6. **Della Cella (Paolo)** : «Voyage en Afrique au royaume de Barcah et dans la Cyrénaïque», Paris 1817.

7. **Despois (Jean)** : «La colonisation italienne en Libye - Problèmes et méthodes», Paris 1935.

8. **Féraud (Charles)** : «Annales Tripolitaines», Paris 1927.

9. **Goddard (F.B.)** : Researches in the Cyrenaica», Leipzig 1884.

10. **Hérodote** : «Histoires», Tome IV (la traduction française), Paris 1960.

11. **Hamilton (James)** : « Wanderings in North Africa», London 1856.

12. **Hill (R.W.)** : «A Bibliography of Libya», Durham 1959.

13. **Kikhia (Dr. Mansour)** : «Le nomadisme pastoral en Cyrénaïque septentrionale», thèse doctorat, Aix-en-Provence 1968.

14. «L'Illustration», (magazine française), février-juin 1912.

15. **Ministère français des affaires étrangères (Archives)** : «Etat numérique de la correspondance consulaire et commerciale, (Benghazi), de 1793 à 1901».

16. **Pacho (J.R.)** : «Relation d'un voyage dans la Marmarique, la Cyrénaïque et les Oasis d'Audjelah et de Maradeh», Paris 1824.

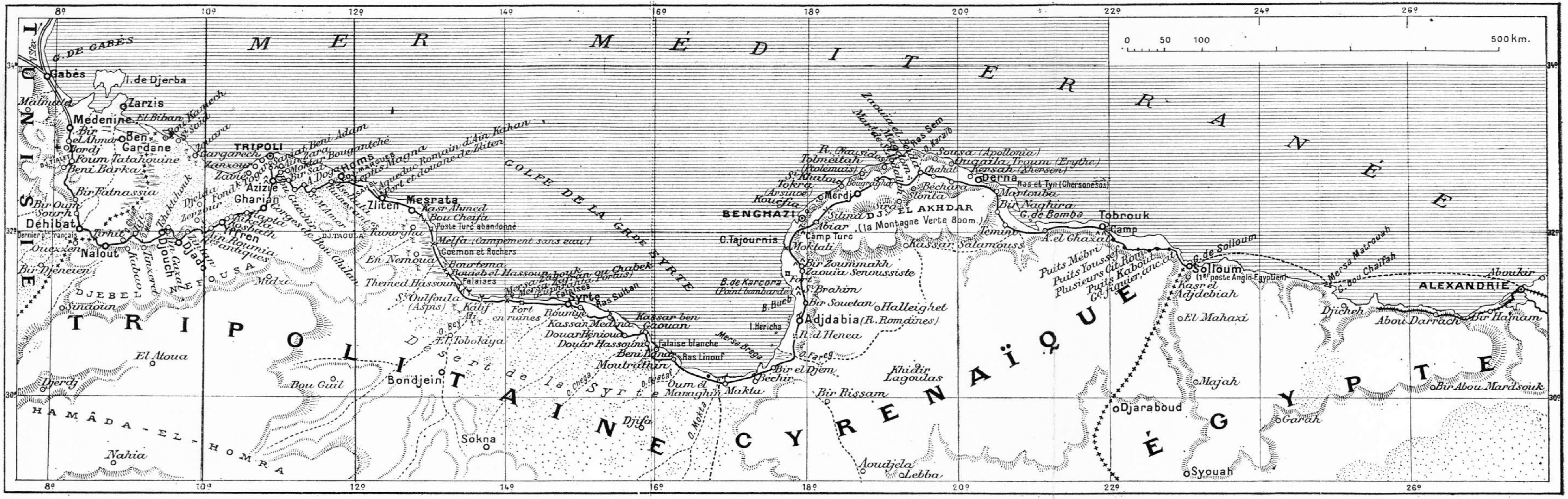


اعداد المترجم

خريطة تبين خط سير رحلة المؤلف عبر ليبيا، من الحدود التونسية إلى الحدود المصرية، في سنة ١٩١٢، وهي طبق الأصل من الخريطة التي ألحقها بكتابه.

○ ○ علامات تبين المدن والقرى التي مرّ بها في رحلته.

علامة تبين معسكرات المجاهدين التي زارها.



ﺣﺴﻦ ﻳﻮﺳﻒ اﻟﻠﻤﻮﺷﻲ

فهرست

